











دخائر العرب

١٨

# مذكرات الأمير عبد الله

آخرو ملك بني زيري بغرناطة

(٤٦٩ - ٤٨٣)

المسمّاه بكتاب "التبيان"

نشر وتحقيق

من النسخة الوحيدة المحفوظة

بجامع القرويين بفاس

إ. ليثي بروفسال

أستاذ الحضارة العربية بالمربون

ومدير معهد الدراسات العربية والإسلامية بجامعة باريس

والأستاذ الزائر بالجامعات المصرية

دار المعارف بمصر



## مقدمة

إنَّ المصنّف الذى سيوجه الجزء الأكبر من نصّه هنا — وهو كلُّ ما عُثر عليه لحدِّ الآن — سبق أن عُرِف لدى كلِّ من درس تأريخ الأندلس بعض الشيء ، وعلى الأخصّ العهد المسمّى بعهد ملوك الطوائف من هذا التأريخ ، والموافق إجمالاً للقرن الخامس الهجرى ( الحادى عشر الميلادى ) . ولقد نشرتُ منه ، فى فترتين ، أولاً ثلاث قطع ، ومن ثمّ قطعتين واسعتي كلاً ما اكتُشف شيء منها ، وذلك فى مجلّة « الأندلس » الصادرة فى مدريد فى عام ١٩٣٥ — ٣٩ وفى عام ١٩٤١ . وستظهر ترجمةٌ باللغة الإسبانية ، بعد فترة وجيزة ، بتوقيعى وتوقيع زميلى وصديق الأستاذ إ . غرسية غومس ، للمجموع الذى أُلّف بين أجزائه اليوم ، ما عدا الصفحة الأولى وفراغاً طويلاً يؤسف له فى وسط الكتاب . وستصحّب هذه الترجمة بمقدّمة مفصّلة وبمجموعة من الملاحظات التاريخية والجغرافية أُحيلُ إليها منذ الآن القارئ الذى يرغب أن يطلع بتفصيل على المؤلّف الذى أنشره اليوم وعلى قيمته الأدبية والتاريخية .

سأقتصر هنا إذاً على بعض الإشارات الأساسية . فليس من المألوف أن نجد فى تأريخ العالم العربى ملوكاً أو شخصيات رفيعة اعتنوا بتسطير حياتهم ، فكتبوا مذكراتهم لقائدة معاصريهم أو الأجيال القادمة . إنَّ هذه الملاحظة لتصدق على الغرب الإسلامى أكثر منها على الشرق ؛ فإذا



وُجد في الغرب الإسلامي بعض من يترجم لنفسه من الشخصيات الهامة كمثل ابن خلدون وابن الخطيب في القرن الثامن ( الرابع عشر الميلادي ) ، فلا يعرف من هذا الصنف التاريخي إلا مصنف واحد يذكر ، وهو كتاب التبيذق صاحب المهدي ابن تومرت مؤسس الموحّدية ، وقد وقّعت منذ أكثر من ربع قرن على مخطوط له بمكتبة الأسكوريال في إسبانيا ظلّ مجهولاً إلى ذلك الحين . وإنّه لتوفيق آخر ليس أقلّ سعادة من الأول ، أن أحصل ، بعد سنين طويلة ، وجزءاً بعد جزء ، على مصنف لترجمة شخصية لا يقلّ أهميّة عن الأول ، وهو مصنف الأمير عبد الله ، الذي كانت كراريسه مبعثرة بين مجموعة كثيفة من المخطوطات المهمة منذ ستة قرون على الأقلّ في جناح تابع لمسجد القرويين بفاس .

وقد كنّا نعرف ، بفضل إشارة واردة في كتاب « الحلال الموشية » المجهول المؤلف ، أنّ الأمير عبد الله كان قد دوّن تأريخاً عن الدولة التي أسّستها أسرته في إسبانيا والتي كان هو آخر ممثليها . وعندما أصدرت في ١٩٣٤ أوّل طبعة للقسم المتعلق بالأندلس من كتاب « أعمال الأعلام » لابن الخطيب ، جلبت انتباهي الفقرة الآتية ( ص ٢٩٩ ) : « وقّعت على ديوان بخطّ عبد الله بن بلقين ألّه بعد خله بمدينة آغمات وقرّر فيه أحواله والحادثة عليه ممّا يستظرف من مثله ، أنحفني به خطيب المسجد بآغمات رحمه الله . » وبفضل إشارة أخرى وردت في نفس الكتاب ، نعرف أنّ ابن الخطيب قد زار آغمات وزار بها قبر المعتمد بن عباد في سنة ٧٩١ ( ١٣٩٠ ) ؛ فيمكننا أن نتساءل بأن المخطوط الذي استعملناه ، إذا لم يكن هو نفس هذه النسخة ، فهو على الأقلّ نسخة ثانية كُتبت

عن الأصل وقُبلت معه ، كما تثبت ذلك الإشارة المترددة : « صح » ،  
أصله » .

وأخيراً ، اكتشفت لي صدفة من صدف المطالعة العنوان التام  
لمذكّرات عبد الله : ففي قهرة من كتاب « المراقبة العليا » ( ص ٩٧ ) ،  
وهو مصنف في مراتب القضاء بالأندلس لمؤلفه المشهور ابن الحسن النباهي  
( وقد نشرته في القاهرة سنة ١٩٤٨ ) ، يتبيّن أنّ كتاب عبد الله  
كان موسوماً بـ « التّبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري  
في غرناطة » .

إنّ هذا العنوان يعلن أحسن إعلان عما يُقصد منه : فالملوّف الذي  
عُزل ونُفي قصد إلى سرد تاريخ دولته وظروف عزله .

• • •

من كان الأمير عبد الله هذا ، وأيّة قيمة يجب إعطاؤها إلى كتابه ؟  
فلأكتفِ هنا بتلخيص ما نشرته عنه أخيراً في الطبعة الجديدة لدائرة  
المعارف الإسلامية ( الطبعة الفرنسية ، ج ١ ، ص ٤٥ ) :

كان عبد الله بن مُبلّقين بن باديس بن حبّوس بن زيري الملك  
الثالث والأخير لمملكة غرناطة التي أسسها فرعٌ منحدرٌ من عائلة بني  
زيري البربريّة الصّهاجيّة ، وذلك بعد سقوط الخلافة الأمويّة بقرطبة .  
وُلِدَ في سنة ٤٤٧ ( ١٠٥٦ ) ؛ وعيّن عند وفاة أبيّة مُبلّقين سيف الدولة  
في عام ٤٥٦ ( ١٠٦٤ ) كوليّ عهد للأمير باديس بن حبّوس ؛  
ثمّ اعتلى بعده عرش غرناطة في سنة ٤٦٩ ( ١٠٧٧ ) ، بينما أصبح أخوه

تتميم المميز أميراً مستقلاً في مالقة . ولم تكن دولة الأمير عبد الله إلا سلسلة طويلة من الاضطرابات في داخل مملكته ، والمشادات المسلحة مع جيرانه من الأمراء المسلمين ، والمواطنات مع ملك قشتالة ألفونس السادس . وساهم عبد الله في وقعة الزلاقة ومحاصرة حصن لبيط عند تدخل المرابطين في إسبانيا . لكن اتفاقاته مع الملك النصراني أدت به إلى ضياع عرشه ؛ فقد جاء الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين لمحاصرته في غرناطة عام ٤٨٣ ( ١٠٩٠ ) ؛ فاضطر إلى أن يسلم نفسه إليه ؛ فعزل عن ملكه وأرسل إلى المنفى بمدينة آعمات ، في جنوب المغرب الأقصى ، حيث انتهت حياته .

أما كتابة عبد الله لمذكراته ، فقد كانت أثناء إقامته الإجبارية في آعمات . وإن هذه الترجمة الشخصية تكون أعظم مجموعة وثائق نملكها عن تأريخ ملوك الطوائف وأقلها تحويراً ، كما نستطيع أن ندرك ذلك بسهولة . وعلى الرغم من الاستطرادات الطويلة التي يحاول فيها المؤلف أن يبرز موقفه السياسي أمام الأخطار التي كانت تهدم مملكته ، فإن كتاب « البيان » يقدم لنا سرداً مفصلاً جداً لجميع الحوادث التي أدت إلى استيلاء ألفونس السادس على مدينة طليطلة عام ٤٧٨ ( ١٠٨٥ ) وإلى تدخل المرابطين في شبه جزيرة إيريا في السنة التالية .

كما أن مذكرات عبد الله هي وثيقة سيكولوجية من الطراز الأول ، يساعد بصورة أفضل من كتب التاريخ التي ألقت من بعد ، على الحكم على حالة الانحلال الاجتماعي والسياسي في الأندلس قبل معركة الزلاقة وبعدها ، وعلى التقدم الذي حققه في هذا الوقت أنصار استرجاع



إسبانيا المسلمة إلى النصرانية . ومن جهة أخرى ، إنَّ قصَّ الحوادث السابقة على حكم الأمير عبد الله نفسه هو أيضاً أمرٌ جديدٌ وهامٌ جداً . ويجب إذاً أن نعتبر مذكرات ملك غرناطة كدليل مرشد لتأريخ الطوائف الغامض ، وذلك ابتداء من العصر الذى تنتهى فيه مؤلفات ابن حيان . وإنَّ هذه الفترة التى سأصِفُها بحول الله فى الجزء الرابع من كتابى « تأريخ إسبانيا الإسلامية » ستوضِّع بصورة أوسع وتحت ضوء جديد بفضل هذا الحصول السعيد على وثيقة غنيَّة لا يرتاب فيها .

• • •

إنَّ مخطوط مذكرات عبد الله يحتوى فى مجموعه على ٨٠ ورقة من القرطاس السحيك ومن القطع الكبير ( ٢٣ × ٣١ سنتمتر ) . وهو مسجَّل فى مكتبة جامع القرويين بفاس تحت رقم ١٨٨٦ . خطُّه من الخطِّ المبسوط الأندلسى . والنسخة على العموم فى حالة جيِّدة عدا ورقتين ممزقتين جداً .

وقد أرفقنا مع النصِّ ملحقين يحتويان على فقرات غير منشورة من كتاب « البيان المغرب » لابن عذارى المراكشى ، ومن كتاب « الإحاطة فى تأريخ غرناطة » لابن الخطيب ، يتعلَّق هذا الذيل بالأمير عبد الله نفسه وبشخصيتين هامتين فى دولته . وسيجد القارئ خريطة تساعد على الوقوف على أهمِّ المناطق الجنوبية فى إسبانيا مما جرى ذكرها فى النصِّ .

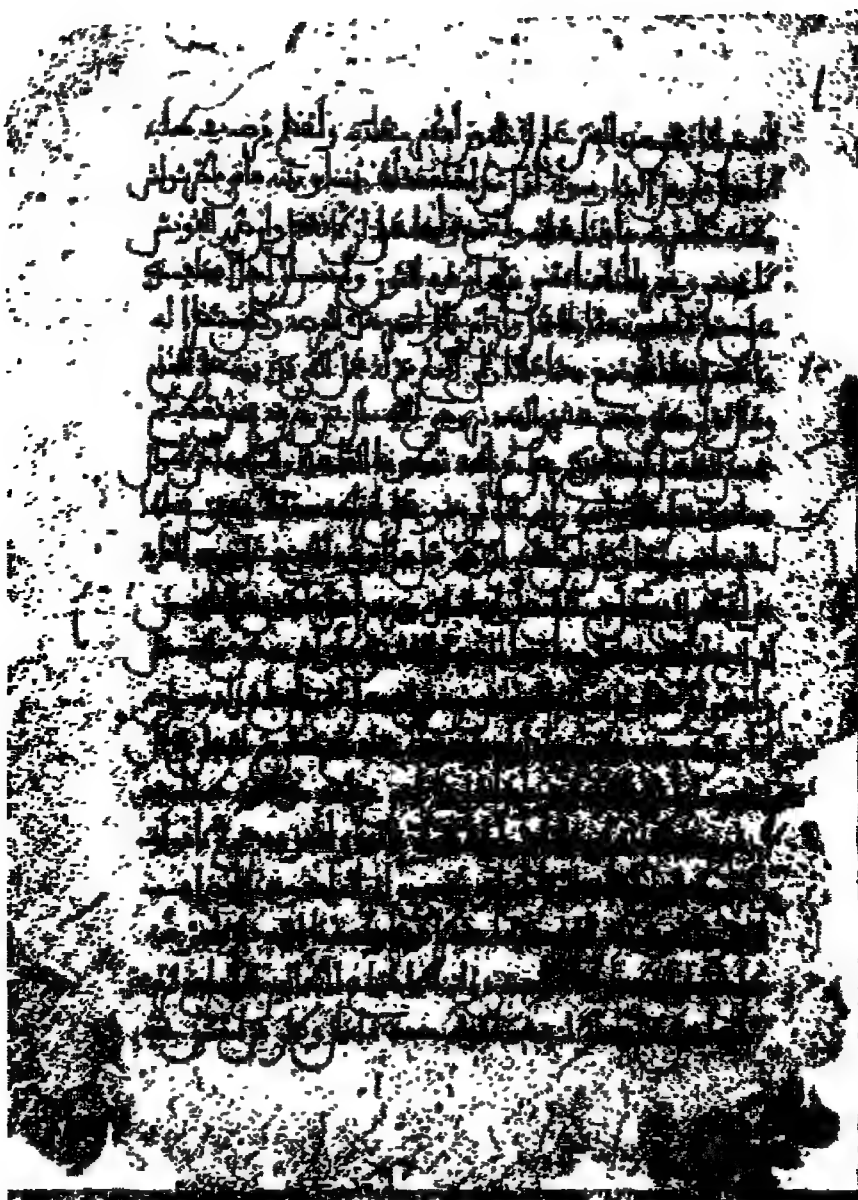
أودُّ فى الختام أن أثبِّه قرأئى الذين سيستغربون لبعض التعابير أو لبعض الصياغات فى تأليف الأمير عبد الله إلى أن لفته ، مع أنها صحيحة ، قد تأثرت إلى حدٍّ ما باللغة العامية الأندلسية ، وأتة يلزم الرجوع بصورة

خاصّة إلى « ملحق القواميس العربيّة » لنوزى لفهم بعض الألفاظ التي تبدو خاطئة .

وليس من الضروري أن أثبته القراء من جهة أخرى إلى أن العناية التي أضيفت داخل النصّ للتفريق بين محتويات الفصول لم تكن مر في النصّ الأصلي .

ا . ل . ب

پاریس ۲۶ یونیہ ۱۹۵۵



مذكرات الأمير عبد الله : صفحة من الأصل المخطوط





## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### الفصل الأول

#### نظرات عامة للمؤلف

#### ١ - القواعد التي يتعين للمؤلف اتباعها

.....<sup>(١)</sup> واستنباط الغريب الذي لا يعقله كثير من الناس ؛ فإن ذلك ١ (١)  
يولد خشونة اللفظ ، الذي تمنجه الأسماع .

والكلام ، إذا خرج من القلب ، وقع في القلب . ولا خير في رام  
ه رَعِش ، ولا متكلم هائب ؛ فإنَّ المَيِّبَةَ فرعٌ [ من ] المحافة ، والمحافة فرعٌ  
[ من ] الحذر ؛ ومن حذر ، فقد عقَّله ، ومن خاف ، تكدَّر عيشه ، ولا  
تصحُّ مع هذا قريحةٌ ينطق عنها اللسان ، ويذكر بها الجنان ؛ فالنفسُ ،  
إذا منعت ما تشتهي ، تُرى مختلطة ، وتصير كأنَّها بطوارقِ الجبل مختبئة .  
ولا يجب على الناطق والكاتب أن يتَّبِعَ هواه في أمره كله ؛ فكلُّ  
١٠ مفتون ملقنٌ حُجَّتَه ، ولا عليه أن يرفض ذلك ؛ فيكون بانيًا على غير أصل  
وعاملاً لغير نهاية . وعسى بذلك يسعى فيما يصلح غيره ويُفسد حال نفسه ،  
وهو لا يشعر ، بل يصرف نفسه على فرقتين : يسعى في بلوغ أمله وإدراك

(١) هنا يبتدئ نص المخطوط ، إذ تلفت منه الورقة الأولى .

مُراده دون أن يكون ذلك مُخِلًّا بذكره ولا غرضًا لعدوه . وكلُّ بيان ما لم يكن صوابًا ، فهدرٌ .

وليس يُحمَدُ لواضع كتابٍ أو ناظمٍ خبرٍ أكثر من جودة التأليف فقط ، لأنَّه إنَّما وضع ما قد سبقه إليه غيره ؛ وكلُّ أحدٍ ينفق مِمَّا عنده . وإنَّ الأوَّل لم يدع للآخر شيئًا . فلو كان نطقُ الناس إحالةً بعضهم على بعض ، ما سُمِعَ أحدٌ يأمر بمعروفٍ ولا ينهى عن مُنكرٍ ، ولا يتبرَّع في [شيء] . ولكنَّ الأوَّل أن يؤخذ بما نصَّ الله عليه في قوله <sup>(١)</sup> : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ .

ولست الفائدة فيما قصدنا إليه ذِكْرُ خبرٍ يوصف ويأتى عليه نادرة مستطرفة ، أو حكاية مستغربة ، أو معنى يؤدَّى إلى تأدب وانتفاع . فلعلَّك — أيُّها التأمل كتابنا — أن يكون عندك أو طرأ إليك خبرٌ من أحوال الدولة مشهور لا تجده منصوصًا هنا ، فتُعْجِزُ واضِعَه : فليس إلَّا كما قدَّمناه . اللهمَّ إلَّا أن يكون حديثًا يؤدَّى إلى القيام بحُجَّةٍ صاحبه\* والاعتذار عنه من أمرٍ قد التبس على الجاهل أو أشكل على السامع لم يهجم على حقيقة ، فنطق هذرًا ، وساعدَ عليه أقوامًا لم يخسروا في عرض غيرهم شيئًا ، وطمعوا على غائبٍ أو ميّتٍ لم يُحرِّ الجواب عن نفسه ، أو دليلًا لم ينتصر لعرضه .

أو أبان المؤلف عن نفسه حذرًا ومعرفةً تُذكر عنه وتُنشر بعده : فإنَّ ذلك من آكد ما يجب له السمتُ فيه وإعمالُ ذهنه وحواسِّه في تلخيصه ، إن أعانه على ذلك اغتباطٌ بجميل الثناء ، وأنفةٌ لسوء اللقال ، ونشاطٌ على



ترفع الذكر ، مع فتو الهمة وصبوة التريجة . وإلا ، فالأمر ناقص منه ،  
واللسان عي<sup>١</sup> عنه .

ولا نبيل إلى اجتماع أمرين مختلفين في الإنسان معاً ، ولا في غيره من  
جميع المخلوقات . فإنه ، متى ارتفع أمر<sup>٢</sup> ، نزل ضيئه<sup>٣</sup> : كالحياة ، إذا ارتفعت ،  
٥ وجب الموت ؛ وإذا ارتفعت الصحة ، وجب السقم ؛ وإذا ارتفع الكرب ،  
وجب الفرج .

هكذا نسق كل أمر : كالعامل للآخرة محضاً ، لا بُدَّ له من قصاص  
دنياه .

ألا ترى أن مؤلف الكتاب ، إن كان غرضه نظم الكلام وسجع  
١٠ اللفظ ، كان ذلك ضاراً بالمعنى ؛ وإن أتى به ، فإنما يسوقه بعد تحليق عليه ،  
وربما وضعه من غير شكله . وإذا تمَّ المعنى ، قصَّ بعضُ اللفظ ؛ كما قيل :  
« إذا تمَّ العقل ، قصَّ الكلام » .

وأرى أن مساق الحديث في التأليف بعضه لبعض أحسنُ خطأ وأفضلُ  
نظماً من تقطيعه . ولهذا نريدُ إيرادَه كالحديث « [ فالحديث ] ذو  
١٥ شُجون » ، ونضرب المثل لبعضه ببعض : فيتفق إرادُه دفعةً واحدةً ،  
ونصه على أكمل ما يمكن .

## ٢ - حقيقة الإسلام والرُّدُّ على من لا يؤمن به

ومن كان لا يعرف دنياه التي نشأ فيها ، وأدركها يبصره وجميع حواسه ،  
فهو لآخرته أجهل ، [ آخرته ] التي لا تُعرف إلا بالتفكير والاعتبار ، بعد

ما حضّ عليه الكتاب وأتى به الرسول — عليه السلام — . وقال تعالى <sup>(١)</sup> :  
 ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ . وما \* يصلح لنفسه لا يصلح لغيره . وأصل <sup>(٢)</sup> ( )  
 العلم كلّ معرفة الإنسان بدينه ، و [ يقينه ] بمعاده ، وأنه لم يخلق عبثاً . فإذا  
 صحّت معرفته بذلك ، كان أخرى أن ينفع به لدينه التي يشاهدّها معاينةً .  
 والرجال ثلاثة : رجلٌ عَمِلَ صَمِيلٌ : فذاك الذي يدعى في الملوكوت ؛  
 ورجلٌ عَمِلَ ولم يَعْمَلْ : فذاك الذي يُضَاعَفُ له العذاب ؛ ورجلٌ لم يَعْمَلْ  
 ولا عَمِلَ : فذاك ، إن مات ، يموت ميتةً جاهليّةً ، ولا تصحّ له معرفة  
 دينه إلا بأن لا يقدح فيه قول كافرٍ ولا مُعْطَلٍ . فإذا حَسُنَ تمييزُهُ عن  
 الصنف المُلْحِدِ ، عرف فَضْلَ ما هو عليه ، فَاتَّبَعَ على يقينٍ وجودةَ نَظَرٍ ،  
 لا باستهزاء ولا تقليدٍ ، فيعجز ويشكّ . ١٠

وأما من كان من الأصناف المُلْحِدَةِ ، غير أهل الكِتَابَيْنِ <sup>(٣)</sup> من المُشْرِكِينَ  
 ومن سِوَاهُمْ ، فالضلالُ منهم بَيِّنٌ ، لا يحتاج معه إلى قياس ولا تفتيش . وأما  
 ما يزعم أهل الكتاب من أنّهم على الحقّ ، ولم الدين القويم <sup>(٤)</sup> ، وأنّ قولهم  
 أخلّ [ بنيره ] ، فالردُّ عليهم في ذلك أن يُقال لهم : « إن كنتم تزعمون  
 أنه ليس بعد نبيّكم نبيٌّ ولا مُنَّةٌ ، فلا يكون هذا القياس إلاّ بأن  
 تكفروا بمن كان قبل نبيّكم من الأنبياء ! ألم تكن قبل موسى شرائعُ  
 وكتبٌ مُنزلةٌ وأنبياءٌ عدّةٌ ؟ فلو كان على مذهبكم ، لا ينسخ دينٌ ديناً ،  
 لم يجب لكم أنتم شيء ! » ١٥

وإنّ الله تعالى لا يترك الخلق سُدًى مُهْمَلِينَ ، وهو قوله تعالى <sup>(٥)</sup> :

(١) سورة الرعد : ١٨ . (٢) كذا في الأصل . (٣) أصل : « القديم » .

(٤) سورة فاطر : ٢٢ .

﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ ، وقد كانت الضلالة بيّنة في الفترات من عبادة الأوثان وتعبّدهم بعضهم لبعض ، ما لم يكن في حكمة الله ومشيتته أن يترك الردّ ودينه ، ولا يميل من يعبد سواه حتى يبعث محمّداً — صلى الله عليه وسلم — بالحقّ بشيراً ونذيراً ؛ فصدع بالقرآن ، وجاهد في الرحمن ، وسنّ السنن ، وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر . وكان في ذلك الزمان ٥

قد ضلّ أهل الكتاب ، واختلفوا ، وردّ بعضهم [ على بعض بما لا ] يمكن أن تصبح لفرقة منهم شريعة مع الأخرى ؛ وكانوا كـ \* .....<sup>(١)</sup> (ب) ٢

الله تعالى ؛ فحتم الله الرسالة بنبيّنا — عليه السلام — ليبيّن له ما فرضه عليهم ، ويظهره على الدين كاهه ! إن يقولوا : « ما جاءنا من بشير ولا نذير ! » ١٠

وقال الله تعالى<sup>(٢)</sup> : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ ، فالْحِجَّة عليهم ظاهرة على ما يبيّناه فيما يعطى العقل والقياس . وأمّا تبيين نبوته — عليه السلام — في الآيات التي جرت على يده ، فأكثر من أن توصف .

وإذا قتلت أحدهم ببعض هذه الحجج ؛ فمن ينتحل منهم قهراً في علمه وسداداً ، يرجع إلى أن يقول : « إنّما كان رسولاً إلى العرب ! » فتأمل ١٥

تناقضه ، وكيف أثبت له الرسالة ؛ ومتى وجب إثبات الرسالة ، فقد أوجب على نفسه التصديق في كلّ مقالة وما أتى به . ثمّ الله يقول<sup>(٣)</sup> : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ . وقال — عليه السلام — : « بُعِثْتُ إِلَى الْأَسْوَدِ وَالْأَبْيَضِ وَالْحَرِّ وَالْعَبْدِ » ؛ فهم لا يصحّ لهم الإنكار جلة ولا الإيمان بأمرٍ دون أمرٍ .

(١) غرم نحو سطر في الأصل .

(٢) سورة المائدة : ٤٨ .

(٣) سورة صبا : ٢٨ .

### ٣ - قصور القياس دون عون من الوحي

- وقد كانت معرفة الباري تعالى بالعقل اضطراراً لقوله <sup>(١)</sup> : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ . ولو ترك الناس في ذلك على قياسهم وما تدركه عقولهم ، لكان خوضهم في هذا المعنى قليلاً ، مستضعفين ، لا يطيقون نصر ما عهد إليهم مما يريدون من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولغلب جهالهم وعامتهم الظلم ، ولم يلتفت أحد إلى قوله وما يقيس عليه . فكانت النعمة مما أراد الله من صلاح العالم أن بعث فيهم الرسل ، ليكون ما أتوا به دواء لما في الصدور وهُدًى ورحمة ؛ فن عرف الله قبل العقل ، أتم عليه نعمته ؛ فقد عرفه نفسه باليقين ، وبشره بالثواب ، وأنذره العقاب ، ليرفع الشك ويوقن بالمعاد ولينقد إليه عامة الناس طوعاً أو كرهاً .
- ١٠ ألا ترى أن لا شيء من أمور الدنيا يصح بالظن دون اليقين ؟ فكيف الآخرة التي لا يوقن . . . . . <sup>(٢)</sup> \* الذين أبانوا عنها ؛ والظن كذب الحديث والشرع ، ومن تقلده بطل [ رأيه ] . وليس حكم الباري تعالى مما يجري على قياس : كيف ؟ وهو خالق القياس ، وهو واهب العقل الذي به أدركنا جميع الأشياء . ألا ترى أن النفس لم يقف أحد منها على حقيقة ما هي إلا اختلاف بين العلماء الشرعيين وأهل الطبيعة والذهريّة . والحق إنما يكون في طرف واحد ؛ فهم يخبطون خبط عشواء وإذا قست على الحق ، فإنما تمجده عند أهل السنة لما بأيديهم من القرآن

(١) سورة الزمر : ٨٧ .

(٢) غرم نحو نصف سطر في الأصل .

وحديث ارسول — عليه السلام — ، فهم يتكلمون على أصل ، وغيرهم  
على قياس : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾<sup>(١)</sup> .  
وترى من الملحدين كثيراً [مَنْ] لا يؤمن بالغيب ويقول : « إِنَّمَا أَعْلَمُ<sup>(٢)</sup>  
ما تُدْرِكُه حواسي من حارٍّ وباردٍ ورطبٍ وجابسٍ ، وما أدركته بعقلي مما  
كان ؛ ولا أعلم ما يكون ، وإِنَّمَا أَنَا أَنُ الْآنُ » . فالرَّدُّ عليه أن يقال  
له : « أُنَدْرِى بِمَعْرِفَتِ هَذَا كُلِّهِ ؟ » سيقول : « بالنفس . وصلتُ النفس  
بالعقل الذى هو أرفع الدرجات » . فتقول له : « إِذَا عَرَفْتَ بالعقل  
ما أنتَ فيه ، لم يكن لك شئٌ متقدِّمٌ تعرف به العقل ، ولا استطعتَ  
لنفسك ، ولا علمتها قبل ؛ فتركب فيها عقلاً وتديراً . وواهبُ العقل الذى  
١٠ خلقتك ودبرك كيف شاء ، قادرٌ على أن يميزك ولا يحطك هملاً ، ولم  
يخلقك عبثاً ؛ ولو أنك تعلم — أيها الشقي — أن العقل ، إِذَا جحدتَ  
به آيات ربك ، كلُّ عليك وحملٌ يوم القيامة ؛ وهو قوله تعالى<sup>(٣)</sup> :  
﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَتَمِّمُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا  
يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ . وقال<sup>(٤)</sup> : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ .  
١٥ وقد أنت الرسل بالآيات التى هى خارجة عن حكم الطبيعة ليكون ذلك فى  
العالم أشدَّ استغراباً ومعجزاً يؤمن به أكثرُ البشر . وقد أمر الله تعالى  
بالإيمان بما قد غاب عن العقل والقياس ؛ ولا يسجز الله فى قدرته على  
ما يشاء \* جاحِدٌ كافرٌ .

٣ (ب)

كقول أهل الطبيعة : إِنها هى تُدَبِّرُ كلَّ شئٍ ، وإِنها أعلم [من] كلِّ

(١) سورة الأنعام : ١١٦ .

(٢) أصل : « نعلم » .

(٣) سورة الأحقاف : ٢٦ .

(٤) سورة يس : ٧٨ .



عليم وأحكم [ من ] كلٌّ حكيم ؛ فنَجَّع من فعلها في الأبدان ما لا تُدرِكه  
الأطبَّاءُ بِاجتهادها . وقال غيرُهم : « الطبيعة اسمٌ واقعٌ على غير شيء لا يُدرى  
ما هو . » فَالْحُجَّةُ عليهم : أهيَ طبيعةٌ واحدةٌ ، أم طبائعٌ كثيرةٌ ؟ بل ،  
سيقولون : « لكلِّ شيءٍ طبيعةٌ ، فأرى أضداداً لا تصحُّ لأحدها إلهيةٌ ،  
وغيرُها مُناقِضٌ لها . وهي كانت حُجَّةُ إبراهيم على قومه ورَدَّه على من قال  
إنَّ الشمس هي حياة العالم دون غيرها ؛ فقال — عليه السلام — : « أرى  
الظِّلَّ يفعل ضدَّ ما تفعله الشمس ؛ والخالقُ لا يُضادُّ ! » فَأثبت الوحدايةَ  
بالحُجَّةِ القاطمة الواضحة .

وقد ذَكَر عن سُقراط ، وكان في زمن جاهليَّة ، أنه قال ، بما أوتي من  
الحكمة ، مخاطباً الباريَّ عزَّ وجلَّ : « يا أزل الأزل ! ويا أولَّ الأوائل !  
ويا قديماً ! لم يَزَلْ مِنِّي نَارُكَ لِعَلِّي أن هذه الخلوقات من آثارك ؟ »  
ولم تكن معه فِتْنَةٌ يَتَّبِعُونَهُ على قوله ، ولا يَمْتَلِون ما قال ، حتى أمروا  
بقتله .

ولهذا يرجع ما قدَّمنا ذِكْرَهُ أنَّ شرعاً لا يتمُّ بقياس العلماء وخواصِّ الناس  
دون الرسالة ، على أنه لا يشكُّ ذو عقل أن الخلوقات قد جعلها الله عِللاً بَعْضُها  
لبَعْضٍ ، ولم يخلقها عَبَثاً ؛ ولكلِّ عِلَّةٍ عِلَّةٌ إلى أن ينتهي ذلك إلى الباريَّ عزَّ  
وجلَّ ؛ فهو الذي لا فوقه شيء . وهو قول إِفْلَاطُون لموسى — عليه السلام —  
إذ قال له : « يا أخى ؟ رَسولٌ مَنْ أنت ؟ » أراد استخباره ؛ فقال له موسى :  
« أنا رسولُ العِلَّةِ » . فقال له إِفْلَاطُون : « ما العِلَّةُ ؟ » قال : « لا أدري !  
ولو كنتُ أدري ، لكنتُ أنا العِلَّةُ ! إِنَّمَا أنا مُتَّبِعٌ ! » فقال له إِفْلَاطُون :  
« اذهب وبنِّعْ ما شئتَ ! فالآن صبحٌ عندى أنك رسولٌ حقٌّ ! »

وكذلك الجزء لا يُحيط بالكل ، والكل مُحيطٌ بجميع الأشياء ؛ وهو قوله تعالى<sup>(١)</sup> : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۖ ﴾ .

وكذلك \* أهل الهندسة والعرفة بالنجوم قد علموا أنها مخلوقةٌ مصرفةٌ ؛ (١) لما ... العباد ؛ والعاقل منهم يقرُّ بذلك ، غير أنه نُهي عن النظر فيها والاجتهاد فيما نُهي عنه ، إذ ليست عقول أكثر الناس تهتدى إلى الحقيقة ؛ والفسادُ أسرعُ من البنيان ، وأقربُ إلى عقول الناس من الاهتداء . « وَدَّعَ مَا يُرِيدُكَ إِلَى مَا لَا يُرِيدُكَ » .

وَهُمْ يَقُولُونَ إِنَّ فِيهَا سَعُودًا وَمَحُوسًا ، إِنَّمَا فِي الْفَلَكَ سَعْدَانٌ وَنَحْسَانٌ ، يَمْنُونُ بِهَا الشُّتْرَى وَالزُّهْرَةَ وَرُحْلَ وَالْمَرْيَخَ ، وَيَتَرَّانَ ، وَهُمَا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ؛ وَلَا يَصْحُحُ لِعَالِمٍ أَنْ يَتَكَلَّمَ عَلَيْهَا إِلَّا بِمَزْجِ بَقْضِهَا بِنَقْضٍ ، فَكَيْفَ يَكُونُ لَهَا الْحُكْمُ ؛ وَهِيَ أَضْدَادٌ ، وَالْحَاكِمُ لَا يَضَادُّ ، وَخَالِقُ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ إِلَيْهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ؟ وَهُوَ مُصَرِّفُ الدَّهْورِ بِمَا يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝

وليس في العالم أمرٌ يثبت ؛ وعلى هذا بُنيت الدنيا ، وكذلك الدُّوَلُ وَالْمَلَلُ : كُلٌّ يَأْتِي فِي أَوَانِهِ ، وَلَا يَتَعَدَّى وَقْتَهُ ؛ وَالدِّينُ صَلَاحُ الْعَالَمِ ، وَلَا عَدْلٌ إِلَّا بِهِ ، وَالْمَلِكُ يَعْضُدُهُ وَيَحْمِيهِ ، وَهُوَ قَوَامُ الْعَالَمِ عَلَى مَارْتَبِ الْبَارِئِ عَزَّ وَجَلَّ .

## ٤ - ضرورة التعليم والتجربة

- وأَعْلَمَ أَنَّ الْعِلَّ عَتَاجٌ إِلَى التَّعْلَمِ ، وَلَا يَسْتَحْكُمُ تَعْلَمٌ إِلَّا بِتَجَرِبَةٍ ،  
 وَلَا تَتَحَكَّمُ تَجَرِبَةٌ إِلَّا مَا كَانَ فِيهَا بَعْضُ التَّكْدِ وَالْإِشْفَافِ ؛ فَالْإِنْسَانُ عَلَى  
 مَا ضَرَى عَلَيْهِ وَعَلَى أَنَّ السَّعِيدَ مَنْ أَعْطَى بغيره ؛ لَكِنْ مِنْ شَأْنِ الْإِنْسَانِ  
 ٥ التَّسْوِيفُ وَ « لَعَلَّ » وَ « عَسَى » ؛ فَإِذَا أُحْتِيجَ فِي ذَاتِهِ ، أَعْقَبَهُ ذَلِكَ  
 بِفِظَةٍ وَحِكْمَةٍ . وَكَذَلِكَ مِنْ أُحْوَجَ إِلَى نَفْسِهِ كَأَنَّمَا لَا يَتَّكِلُ عَلَى غَيْرِهِ .  
 فَيَنْبَغِي الْعَاقِلُ أَنْ يَعْمَلَ نَفْسَهُ فِي رِيَاضَةٍ ذَلِكَ ، وَاتَّمَرَّنَ فِيهِ ، إِنْ لَمْ يَحْجُوجْ  
 الدَّهْرَ ؛ وَإِلَّا : فَلْيَتَمَبَّ ذَهَنَهُ ، وَيَشْغُلْ بَالَهُ بِالْفِكْرَةِ فِيهِ ، خَوْفًا أَنْ يُضْطَرَّ  
 إِلَيْهِ ، وَإِنَّ اللَّعْمَةَ غَيْرَ دَائِمَةٍ . فَإِنْ اَحْتَجَّ إِلَى نَفْسِهِ ، وَجَدَهَا ؛ وَإِنْ اسْتَعْنَى  
 ١٠ عَنْهَا ، عَرَفَ فَضْلَ مَا هُوَ فِيهِ ، وَكَانَتْ لَدَيْتُهُ بِهِ أَشَدَّ تَمَكُّنًا : فَإِنَّهُ لَا يَعْرِفُ ؛  
 قَدَرَ الْخَيْرِ مَنْ لَا يَعْرِفُ الشَّرَّ . وَإِعْمَالُ الْفِكْرَةِ فِي هَذِهِ الْمَعَانِي كَالْتَجَرُّبِ  
 بِهَا : فَإِنَّ الْإِهْتِمَامَ بِمَا لَمْ يَكُنْ بِلَا فِي النَّفْسِ كَأَنَّ ، وَذَلِكَ الْبَلَاءُ مُؤَدَّبٌ ،  
 وَاعِظٌ ، نَافِعٌ ، مُضْهِلٌ ، خَيْرٌ مِنْ بَلَاءٍ مُوجِعٍ حَالٍ .  
 وَقِيلَ : لَيْسَ الْعِلْمُ بِكَثْرَةِ الرِّوَايَةِ ؛ إِنَّمَا هُوَ نُورٌ يَضِيءُهُ اللَّهُ فِي الْقُلُوبِ .  
 ١٥ وَلَا عَنَرٌ لِلْإِنْسَانِ فِي أَنْ يَجْهَلَ عِلْمًا يَلِيقُ بِهِ ، لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى <sup>(١)</sup> : ﴿ فَسْتَلُوا أَهْلَ  
 الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . وَمِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الرَّءِ تَرْكُهُ مَا لَا  
 يَسْنِيهِ . وَلَيْسَ كُلُّ مَا حُضِرَ عَلَيْهِ وَنَمَى عَنْهُ عَلَى الْعُومِ ، بَلْ لَئِكَ كُلُّهُ  
 حُكْمٌ يَحْسِنُهُ الْعَاقِلُ ؛ وَالْجَاهِلُ لَا يَحْسِنُهُ ، وَإِنْ جَهِدَ جَهْدَهُ .

## ٥ - التكوين السياسى للمؤلف

وقد كُنَّا — مَعَشَرَ أَهْلِ بَيْتِ الْمَلِكَةِ — نَرَى مِنْ آكَدِ مَا تَأْدُبُ بِهِ إِعْمَالَ السِّيَاسَةِ فِي طَلَبِ الرِّيَاسَةِ ، وَالسَّيِّئَ لَهَا بِكُلِّ الْوُجُوهِ ، وَإِحْضَارَ الْأُذْهَانِ ، مَا لَوْ أَنَّ الْمُفْرِطَ فِي بَعْضِ ذَلِكَ مِنَّا يَكُونُ أَهْلَهُ النَّاسُ فِي سَائِرِهَا مِنَ الْعُلُومِ ، لَكَانَ عِنْدَنَا نَاقِصًا ، لَا يَصْلِحُ لِهَذَا الشَّأْنِ ، حَتَّى وَقَعَ التَّنَاقُصُ عَلَى ذَلِكَ .

وَقَتَلْنَاهَا نَحْنُ عِلْمًا لِرِيَاسَةِ أَنْفُسِنَا لَهَا ، وَمَا أَجْرَانَا<sup>(١)</sup> عَلَيْهِ أَبَاؤُنَا ، وَبَصُرُونَا فِيهِ مِنْ أَوَّلِ نَشَاتِنَا .

١٠ وتلك صناعةٌ وجب تعلُّمُها لضرورة الحال ، كسائر الصنائع التي منها معاش الناس ، ولا بدَّ لهم من إتيانها . وَلَقَمَرَى إِنَّ الْوَالِيَّ أَكْثَرَ عِلْمًا وَأَحْسَنَ عَقْلًا : فَإِنَّ جَمِيعَ حَقُولِ النَّاسِ تَعْرِضُ لَدَيْهِ ، وَيَجْرُبُ فِي مَوْضِعِهِ مَا لَا يَجْرُبُ غَيْرُهُ فِي تَقْلُبِهِ فِي الْبِلَادِ ، وَإِلَيْهِ تَهْدَى الْأَخْبَارُ ، وَيَتَخَاصَمُ النَّاسُ ، وَعِنْدَهُ يَقَعُ الطَّلِبُ ، وَتَرْفَعُ الْحَاجَاتُ ، وَتَقَعُ الْعِنَايَاتُ ؛ فَيَرَى وَيَسْمَعُ كُلَّ يَوْمٍ جَدِيدًا لَمْ يَرَهُ أُنْسٌ . وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْعَزِيزِ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — : « تَسْتُ كُخْبَرٍ ، وَلَا الْخَبْرُ يُخْدَعُنِي ! » وَقِيلَ : « فَلَانٌ لَا يَعْرِفُ الشَّرَّ » . ١٥ قَالَ : « ذَلِكَ أَجْدَرُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ ! »

\* ولما كان الْمُظَفَّرُ جَدُّنَا — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — قَدْ أُوتِيَ مِنَ الْعِلْمِ وَالْتِمِيزِ (١) هـ

لأحوال الزمان ما لا خفاء به ، وأنه من آكَدِ مَا يَجِبُ لَهُ النَّظَرُ فِيهِ تَرْشِيحُ

أَحَدُ بَنِيهِ لِلْوَلَايَةِ بَعْدَهُ ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِتَمَرِينِهِ وَإِعْمَالِهِ فِي جَمِيعِ خِدْمَتِهِ ، كَيْ يَتَدَرَّبَ وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أُمُورِ الدَّوْلَةِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِيهِ نَفْسُهُ ، كُنْتُ مَعَهُ وَقَدْ أَهَلَّ اللَّهُ لِبِرِّهِ وَالْإِنْصِياعِ لَوْصِيَّتِهِ . فَأَمَرَ بِإِخْرَاجِي مِنَ الْمَكْتَبِ إِلَى التَّصَرُّفِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَقَالَ لِي — نَصَرَ اللَّهُ وَجْهَهُ — : « مَعَكَ مِنَ الْكِتَابَةِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ مَا يَكْفِيكَ ! وَهَذَا أَوَّلَى مَا تَعْمَلُ ! فَعَلَيْكَ بِإِحْضَارِ ذَهْنِكَ لِجَمِيعِ مَا يَكُونُ مِنِّي وَمَا يَنْقُضِي فِي دَوْلَتِي أَيَّامَ هَذِهِ الْفَتَنِ ؛ فَإِنَّ الزَّمَانَ أَشْرُّ ، وَالْأَيَّامُ أَقْصَرُ مِنْ أَنْ تُدْرِكَ تَعْلَمَ كُلِّ شَيْءٍ بِعَيْنِي بِهِ الْمُلُوكُ لِأَبْنَائِهِمْ ! »

فَامْتَلَأْتُ حَزَنًا . وَأَخَذْتُ نَفْسِي أَوَّلًا بِالتَّوَضُّعِ لَهُ وَابْتِغَاءِ كُلِّ شَيْءٍ يَقَعُ مِنْهُ فِي نَفْسِهِ أَنِّي أَشْرُهُ بِهِ إِلَى تَعْجِيلِ الْوَلَايَةِ أَوْ الْحِرْصِ عَلَى الرِّيَاسَةِ ؛ بَلْ كُنْتُ أَتَأَنَّى لَهُ عَنْ ذَلِكَ ، وَلَا أَخْكُمُ بَيْنَ اثْنَيْنِ إِلَّا عَنْ مَشُورَتِهِ وَمُشَارَكَةِ أَهْلِ السَّنِّ وَالْعَمَلِ مِنْ وَزَرَاتِهِ ، وَأَنْزِلُ نَفْسِي لَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْإِبْنِ ، حَتَّى وَقَعَ ذَلِكَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ مَوْقِعًا ارْتَضَوْنِي بِهِ لِلْخِلَافَةِ مِنْ بَعْدِهِ . وَاتَّفَقَ فِي ذَلِكَ رَأْيُهُمْ مَعَ رَأْيِ الْجَدِّ — رَحِمَهُ اللَّهُ .

وَلَمْ يَكُنْ مِنْهَا نَهَارٌ إِلَّا وَأَسْتَفِيدُ فِيهِ فَائِدَةً مِنْ تَجَرِبَةِ وَحُكْمَةِ .  
وَمَا كُنْتُ أَجْهَلُ مِنَ الْأَشْيَاءِ ، أَجِدُ لَهُ أَعْوَانًا مِنَ الْوُزَرَاءِ ، يَعْلَمُونَني بِالصَّوَابِ فِيهِ لِقَلَّةِ خِلَافِي عَلَيْهِمْ وَبِرِّي بِهِمْ .

كُلُّ ذَلِكَ [ مِنْ ] الْأَسْبَابِ الَّتِي أَدْنَى اللَّهُ مِنْ أَجْلِهَا وَلَا يَتِي مِنْ بَعْدِهِ .  
وَقَدْ كَانَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ الْمَمْلُوكَةِ مَنْ يَصْلَحُ لَهَا قَبْلِي ، وَمَعِيَ مِنْ آخِرِ كَبِيرٍ وَعَمٍّ وَقَرَابَةٍ أَتَوَقَّعُ اسْتِهَاذَهُمْ إِلَيَّ وَتَغْلِبَهُمْ عَلَيَّ ، مَا لَوْ أَنْفَقْتُ مِثْلَ الْأَرْضِ عَلَى كِفَايَةِ شَرِّهِ ، مَا اسْتَطَعْتُ لَهُ . فَكَفَانِي اللَّهُ تَعَالَى مَا كُنْتُ \* ه ( ب )

أَتَوْقِعُ ، وَأُرَانِي الْخَيْرَ فِي عَاقِبَةِ كُلِّ أَمْرٍ كُنْتُ فِيهِ أَكْرَهُهُ . فَحَنُّ  
جُودِئِهِ بِتَعْدَادِ رَحْمَةِ اللَّهِ وَالْإِنْصَافِ فِي شُكْرِهِ ، كَمَا حَضَّ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي  
قَوْلِهِ <sup>(١)</sup> لَنَبِيِّهِ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ .  
وَقَدْ كَانَ أَبُوْنَا سَيِّفُ الدَّوْلَةِ — رَحِمَهُ اللَّهُ — مُرَشَّحًا لِلْمُلْكَةِ ، كَثِيرًا  
حُبُّ أَبِيهِ لَهُ ، وَجَمْعُهُ الْأَمْوَالِ مِنْ أَجْلِهِ ، وَتَدْرِيبُهُ عَلَيْهِ بِكُلِّ وَجْهِ .  
وَكَانَ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — مِنَ الْعَقْلِ وَالْكَرَمِ وَحُسْنِ الْخُلُقِ وَالْحِلْمِ مَاشُورًا بِهِ  
فِي الْبِلَادِ ، وَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ مَحَبَّةُ الْعِبَادِ . وَلَمْ يَكُنْ لِلْمُظَلَّفِ جَدًّا غَيْرُهُ ؛ فَتَوَقَّيْ  
— رَحِمَهُ اللَّهُ — ابْنَ خَمْسَةِ وَعَشْرِينَ عَامًا . وَسَنَذْكُرُ مِنْ أَحْوَالِهِ مَعَ سَائِرِ  
أُمُورِ الدَّوْلَةِ مَا يَرِدُ بَعْدَ هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

## ٦ — صعوبة الإنصاف التاريخي

وَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي تَقْدِيمُهُ ذِكْرُ دُخُولِنَا الْأَنْدَلُسَ ، وَكَيْفِيَّةِ وَلَايَتِنَا إِيَّاهَا ،  
إِلَى هَلُمَّ جَرًّا .

فَإِنَّهُ ، مَتَى أَتَيْنَا عَلَى خَيْرِ طَیِّبِ ذِكْرِهِ فِي هَذَا التَّأْلِيفِ ، لِلْمُتَرَضِّ  
أَنْ يَقُولَ : « هَذَا أَحْسَنُ لَوْ كَانَ عَلَى أَصْلِ مُحَمَّدٍ ، وَعَنْ وَلايَةِ تَرْتَفَعِي ! »  
فَيَنْطِقَ هَذَرًا دُونَ اخْتِبَارٍ وَلَا إِنْصَافٍ ، عَلَى أَنَّ الثَّنَاءَ الْحَسَنَ لَا يَقَعُ عَلَى الدَّوْلَةِ  
إِلَّا فِي مُدَّتِهَا وَأَيَّامِ سَعَادَتِهَا ، وَلَوْ كَانَتْ ظَالِمَةً ؛ فَلَا يَقَعُ فِيهَا الذَّمُّ إِلَّا بَعْدَ  
تَوَلَّيْهَا ، وَلَوْ كَانَتْ عَادِلَةً . وَالنَّاسُ مَعَ مَنْ سَبَقَ إِلَّا مَنْ نَظَرَ بَعَيْنَ الْعَدْلِ ،  
لَا بَعَيْنَ الْهَوَى ؛ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ !

(١) سورة الضحى : ١١ .



ولتَرَى أن لاشيء في العالم يسعد وينحس إلا وكان أحد الأمرين لا يشوبه غيره . ولا يتعلّق بالسعادة إلا كل مستحسن من غير تكدير ، كما أنه لا تشوب المنحة ما فيه أدنى مرور . وليس مع الإقبال إقبال إلا تمام المدة .

- ٥ ولا يتفق الناس أجمع على مدح أحده ولا على ذمه : فإن رضى العامة أمر لا يدرك ، ولا بدّ للوالى أن يقضى عند حكمه لأحد الخصمين على الآخر ضرورة ؛ فالتقضى عليه انقلب سخطاً ، والتقضى له انقلب راضياً ، وكلاهما يتكلم على شهوة نفسه . فكيف يتفق إجماع العامة على خير واحد ؟  
٦ أو مدحه ؟ وإن الله تعالى كان قادراً على أن يسوى بين [ أمور خلقه ، وجديراً ، وإن ] كيّفت ، أن يرفع بعضهم فوق بعض درجات .

## ٧ - المصادفة وأثرها في التاريخ

### مثل المنصور

- وإذا اعتبرت أحوال هذا العالم على شيء من أمر الدنيا ، فإنما تجد كائناً بأرق سبب : فمن بين جاهل مسعود أو حاذق مُمخرق . وإذا بَعَثْتَ على ما هو فيه أعين استحقاق تصير إليه ، لم تختبر من فضله ومقاله شيئاً يشذ عن العالم ، ولا يشف على رأى من تزدره عينك ، ولأنّ الجهل في العامة أغلب ، والباطل إلى عقولها أسرع : استعظمت ما هو عند اللبيب حقير ، وتكلمت على ما ظهر إليها ، ولم تنس عليه بمقولها ؛ والله

ما بَطَّنَ ، وللتناس ما ظهرَ . ولهذا ترى صاحب التاموس أَرْفَعَ ذِكْرًا وَأَطْيَبَ نِئَاءً ، وإن كان يُرَأَى .

وقد كان المنصورُ بن أبي عامر ، على دَقَّةِ شأنه قَبْلُ ، ولأنه لم يكن من أهل بيت الملكة ، فيستحقُّها من الآباء ، ولا كانت به قدرةٌ على الدنيا ، قد حَصَلَ على عِظَائِمِ بدهائه ومَخَرَّجَتِهِ على العامة ، مع ما هيأت السعادةُ له ( وكان أقوى الأسباب في سلطانه ) . وقد ذكر بعض أهل العلم بالتنجيم أنه مَنْ كان طالِمُهُ من البروج الحوت والقوس كان أعظم الأسباب في سلطانه أو عقاره .

ولولا قيامه بدعوة الخليفة ، وإظهاره الانخضاع له [ في جميع ] ما يَأْتِي وَيَذَرُ إلى طاعته وإقامة أودِه ، وتوليته الحجابة والوزارة ، وإخماله لأهل الدولة الحَكَمِيَّة<sup>(١)</sup> ، وتقصيهم بالقتل ، متأولاً في ذلك أن دولته تصفو<sup>(٢)</sup> به ويقوى سلطانه ، وأن في بقائهم كثرة الخلاف وإيثار الفتن وهلاك المسلمين ، حتى اتَّسَقَ له ما أَمَلَ ، وبلغ من ذلك كَلَّةُ النجاة القصوى — ولو أن أحداً اشتهر ببعض ما أتى هو به دون تعلق بسبب أو إظهار طاعة ، [ لكان قُتِلَ ] من ساعته ، ولو كان من أهل بيت الخلافة — إلى أن ورث الأمر ابنه من [ بعده ، فسار للنصور ] \* بأحسن سيرة وأحمد طريقة ؛ وكانت له في بلاد (ب) العدو فتكات ، نال الإسلام في أيامه عزاً ما كان بالأندلس [ مثله ] ، وأذل ما كان النصراني عليه .

(١) في الأصل : « الحاكِية » .

(٢) أصل : « أن به تصفى دولته » .

## لفصل الثاني

الأحداث الممهدة لقيام دولة بني زيري  
وأوليات هذه الدولة . أيام زاوي بن زيري  
وحبوس بن ماكسن

---

٨ — الإصلاح العسكري الذي أدخله المنصور .

قدوم بني زيري إلى الأندلس وقيام دول الطوائف

وتوقع [ المنصور ] من أجناده الاتفاق على بعض ما يخل بدولته ، إذ كانوا صنفًا واحدًا ، وتألّهم على معصية أمره ، متى أمر بما أحبوا أو كرهوا ؛ فنظر من ذلك بين اليقظة ، وسؤل له رأيه أن تكون أجناده قبائل مختلفة وأشتاتًا متفرقة : إن هم أحد الطوائف بخروج عن الطاعة ، غابها بسائر الفئات ، مع احتياجه إلى تقوية عسكره ، والزيادة فيه بمن يستطيع على تحلل بلاد العدو وتدوينها متى شاء . فاستجلب من رؤساء البربر وحماة وأبجاده من بلغه فروسيته وشدته . وتسامع الناس بالجهاد ؛ فبادر إليه من شرق المدوة من كان لهم من الآثار والكارم والبأس على النصاري ١٠ ما لا خفاء به . وبهم كان يصول ابن أبي عامر على العدو ؛ وهم كانوا

العِدَّة في الجيش واللوثوق بهم عند اللقاء ومعتك الوغاء . وكان من أذهام رأيًا وأبندهم همة زَاوَى بن زِيرَى عُمَا ، وبعده حَبُوسُ بن مَاكْسَن ابنُ أخيه — رضى الله عنهما — ؛ فإلهما كان الرأى وللشورة في الأمر ، والحكم على من دونهم من الأجناد .

فرتب ابنُ أبى عامر الرُّتَب ، وأظهر هيئة الخلافة ، وقع الشُّرك ، وحضَّ المسلمين عامَّة على الغزو ؛ فعبز عن ذلك رعيَّة الأندلس ، وشكوا إليه ضعفهم عن المُلَاقاة وشغلهم بالغرَوات عن عِمارة أرضهم ؛ ولم يكن القومُ أهلَ حَرْبٍ . فقاطعتهم على أن يشتغلوا بعمارة أرضهم ، ويعطوا من أموالهم كلَّ عام ما يقيم به من الأجناد مَنْ يكفيهم ذلك ، على اتفاق ورضى منهم . ففُضِرَ عليهم الأقطاع ، وحصل في الدواوين جميع أموال الناس ، وكسرها \* عليهم <sup>(١)</sup> [ وفرض ] بينهم ما لا [ يرتزق ] منه الجيش . فبقيت تلك ٧ (١) الأقطاع عليهم إلى [ أن عمت الأندلس ] عدَّة الثَّوَار و[ اتبعوا ] هم على تلك الآثار . [ ودأبوا ] في ذلك إنما كان على ما وصَّناه .

وكان الناس مؤتمنين على ما يعطونه من زكاة أموالهم في الناض والطعام واللواشي ، يقسمون ذلك على الساكنين بكلِّ بلدة ؛ ولم يكن الوالى يقرب من ذلك إلَّا ما يقيم به الجيش والدولة التى هى قيام العالم ؛ ولولا حناية السلاطين للرعيَّة ، وعزُّ دَوْلهم ، وذَبَّهم عنهم ، ما طاب لهم عيشٌ ولا عزٌّ بهم قرارٌ . فكان ذلك كله عن سداد وصلاح وتأوُّل الخير . ولم تزل الأندلسُ قديمًا وحديثًا [ عامرة ] بالعلماء والفقهاء وأهل الدين ، وإليهم كانت الأمور مصروفة ، إلَّا ما يلزم الملك من خاصَّته وعبيده وأجناده من الأخذ من واحدٍ

(١) وقع هنا وفيما يلى خرم وبعض محو في الأصل . وأكثناه بما يتفق والمعنى .

وَدَفَعَهُ لآخر ، لينخل بذلك عسكره ويختير أفضله . . . . . فيه للمسلمين  
كفاية وعدة ، إذ كانت الأموال التي يعطونها من غير أصولهم ، ولا اكتسابهم ؛  
إنما كان ذلك من وجه النظر للمسلمين . وأما ما كان بينهم من مظلمة  
أو قضية وكل حكم يرجع للسنة ، فإنما كان لقاضي البلدة .

٥ فلما تمت الدولة العائرية ، وبقي الناس لا إمام لهم ، ثار كل قائد  
بمدينته ، وتحصن في حصنه بعد تقديمه النظر لنفسه ، واتخاذ المسكر ،  
واذخاره الأموال ؛ فتنافسوا على الدنيا ، وطمع كل واحد في الآخر .  
وكذلك لا يصح أمر بين نفسين ؛ فكيف سلاطين كثيرة وأهواء  
مختلفة ؟ . . . . . إلا الله . . . . . من كان ظالماً منهم يتعدى . . .  
١٠ للقدر\* التي شاء ربنا لا شريك له .

٧

#### ٩ — استقرار بني زيري في البيرة بناء على طلب أهلها

فلما رأى سلاطين صنهاجة وبنو زيري اقتطاع كل أمير في بلد نفسه ،  
وذهاب ما كانوا عليه من عز وأثر ، عزموا بالرحيل عن الأندلس والجواز  
إلى العدة ، ليرجعوا إلى مستقرهم . فاتفقوا على ذلك بعد أمور يطول  
١٥ ذكرها ، وظهور فساد كثير أضربنا عن إirاده كله ، إذ كان مقصدنا  
وصف دولتنا خاصة . ولا بد من ذكر لمع من غيرها عند الاحتياج إليه .  
وكان أهل البيرة في بساط من الأرض ، وكان بهم من الفس بعضهم  
لبعض ما إن الرجل منهم ليتخذ بإزاء داره مسجداً وحماماً فراراً من جاره ،  
ولا يرجون إلى طاعة ولا حكم والي . وكانوا مع هذا من أجبن الناس

وأخوفهم على مدينتهم ، لا يستطيعون على قتال أحد ، ولو كان الذئباب ،  
إلا بمن يحميهم وينبئ عنهم . فلما بصروا باختلاف سلاطين الأندلس ،  
وأنها أضمرت ناراً ، وتوقعوا أن يتخططهم الناس ، وجَّهوا إلى زاوى المذكور ،  
شاكين مما هم فيه ، ويقولون : « إن كنتم جاهدتم قبل اليوم ، فهذا  
الجهاد آكد عليكم : أنفسكم تحيونها ، ودياركم تحمونها ، وعزة تأوون إليها  
ونحن شاركوكم بأموالنا وأنفسنا : لكم مئة الأموال والشكوى ، ولنا  
منكم الحاية والذب عنا ! » .

قبل القوم قوتهم . واغبطوا بمكانهم ، واستبشروا باستفتاح البلدة  
لغيرها ، و . . . أنفسهم من الغدر لتشتتهم ورجوع أمرهم كله إليهم دون  
فتنة [ تحميمهم ] ، ولا جماعة يتوقع غضبها . فأتوهم محتشدين منالقين ،  
قد انقطع إليهم كل من انتهى من البربر وتعلق بهم . ونزلوا ساحتهم ،  
وحبَّوهم بالثخف والأموال ، وتاركوهم أحسن مشاركة ، راضين بهم  
لا ساخطين . واستجابت لهم عند ذلك معاقلة كثيرة ، منها جيان وأنظارها ،  
وحصن آشر\* من القرب .

(١)٨

فلما طاعت لهم البلاد ، اجتمع رأيهم على أن يتقارعوا عليها ؛ وكانت  
عادة في البربر ، كنى لا يأنف أحدكم مما يصير إلى أخيه . فرجعت  
إلىبرة في قرعة زاوى ، وحصن آشر مع جيان في قرعة حبوس ابن أخيه  
جدنا — رجة الله عليهم — . وتماقد جميعهم على أنه ، إن طرق العدو  
جهة صاحبه ، يكون الآخر يحميها بنفسه ورجاله .

١٥

## ١٠ — ردّ الفعل الذي أحدثه في الأندلس قيام دولة بنى زيري

## اختطاط غرناطة

فلما بصر بفعالهم ثوار الأندلس ، جزعوا منهم ، وحذروا أن تقوى شوكتهم ، فيطرقهم ويحصّلوا على بلادهم ، لما اختبروا من شدّتهم ورأيهم .  
 ٥ فاجتمعوا على منازلهم وقصدهم إليهم بأحشادهم ، كراهية توطيدهم بذلك المكان ويُفَضِّهم لأنفسهم . وقدموا على أنفسهم إنساناً سمّوه بالمرتضى ، زعموا أنه قرشي ، كنى يستهلّوا بخلافته عامة الناس ، ويرجع أمرهم إليه . ونزل الجمع على مقربة منهم .

وكان قبل ذلك ، لما بلغهم احتشادهم وتألّبهم ، جمعوا أهل البيرة للذكورة وقالوا لهم : « نحن لم نأت لفساد دياركم ، ولا قهرناكم على استيطانها ؛ وإنما كان ذلك على اختياركم لنا . وهذه القِثات مُقبلة لطلبنا : فإن استوتقنا منكم ، دافعنا عنكم ؛ وإن كانت الأخرى ، فأعلمونا : نمض عنكم على أجل وجّه . فلن نعلم الخير بسيوفنا ! » فأجابهم القوم : « اثبتوا في قتال عدوكم والدفاع عنا وعن أنفسكم ! فنحن رعييتكم الطائفة وأسيافكم القاطمة ! » فقال لهم زاوي بن زيري : « إذا كان هذا رأيكم ، فأرى من الصواب أن نرحل عن هذه المدينة ، ونختار لأنفسنا فيما يقرب منها مَقْلاً نأوى إليه بأهالينا وأموالنا \* . . . . . والحربُ ٨ (ب) سبّال . . . (١) يصيب عندها ولا يصاب ؛ فقد يُظنُّ عجزاً ! وقد أمر

(١) عزم في الأصل .

النبيؑ — عليه السلام — عند احتشاد المشركين على المدينة أن يُخَنِّدُوا حَوَالَيْهَا ، وسنَّ الحَزْمَ ، مع مَدِّ الْوَحْيِ لَهُ ؛ فَكَيْفَ نَحْنُ ؟ »

وقالوا لأهل الْبَيْرَةِ : « لَسْنَا نَكْلِفُكُمْ<sup>(١)</sup> من الأموال ما نَسْرَعُغَم بِهِ ، إِلَّا أَنْ تَنْفِقُوا فِيهَا بِمِثْلِ مَا يُخْصُصُكُمْ مِنْ تَقْوِيَةِ مَدِينَتِكُمْ بِمَحْشُودِ رِجَالٍ مِنْكُمْ ، تَنْفِقُونَ عَلَيْهِمْ لِيَكُونُوا بَهَا لَكُمْ أَعْوَانًا : تَصْرَفُونَهُمْ حَرَسًا وَجَوَاسِيسَ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ، وَنَحْمِلُونَ مِنْ تَعْرِفُونَهُ أَنَّهُ يَسْتَطِيعُ عَلَى الْجُنْدِيَّةِ ، أَوْ تَبْنُونَ لَأَنْفُسِكُمْ سُورًا يَتَوَقَّعُ بَرَزَكَ ثَلَاثَةٌ تَدْخُلُ بِهَا الدَّخَالَةُ عَلَيْكُمْ . وَأَمَّا سِوَى ذَلِكَ مِمَّا يُخْصَصُنَا نَحْنُ ، فَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَمْ نَأْتِ الْأَنْدَلُسَ إِلَّا وَأَجْلَبْنَا مَعَ أَنْفُسِنَا مِنَ الْأَمْوَالِ مَا لَا نَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى أَحَدٍ ، بَانِينَ عَلَى الْإِقَامَةِ إِنْ اضْطَرَّرْنَا إِلَيْهَا ؛ وَلَمْ نَأْتِهَا مِنْ فَاقَةٍ وَلَا سَعَايَةٍ ؛ إِنَّمَا جُئْنَا بِهَا رَغْبَةً فِي الْجِهَادِ ، وَأَنْ تَكُونَ كِفَايَتُنَا الَّتِي شَهَرْنَا بِهَا عَلَى الْعَدُوِّ دُونَ سَائِرِهِمْ ، وَأَنْ تَقْنَى بَاقِي أَعْمَارِنَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ ، إِلَى أَنْ دَفَعْنَا الْأَقْدَارَ إِلَى مَا تَرَوْنَ . وَنَحْنُ لَمْ نَطْلُبْ أَحَدًا ، وَلَا تَعْدِيْنَا عَلَى بَشَرٍ ! وَهَؤُلَاءِ بَاغُونَ مَتَطَاوِلُونَ . وَمَنْ ؟ » مُبْنِيٌّ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ<sup>(٢)</sup> ؛ وَمَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ وَأَهْلِهِ ، فَهُوَ شَهِيدٌ ! »

١٥ فرضى القوم من قولهم ، وزاد ذلك فيهم رغبةً . وَاتَّفَقَ رَأْيُ الْجَمِيعِ أَنْ يُخَيَّرُوا لَأَنْفُسِهِمْ جَبَلًا مُنِيفًا وَمَعْقِلًا شَاخِحًا ، يَبْنُونَ فِيهِ دِيَارَهُمْ ، وَيَرْحَلُونَ إِلَيْهِ بِقُلُوبِهِمْ وَكَثَرَتِهِمْ ، وَيَحْمِلُونَهُ الْقَاعِدَةَ ، وَيَخْرِبُونَ لَهُ الْبَيْرَةَ الْمَذْكُورَةَ . . . . .  
.....<sup>(٣)</sup> فَوَقَعَتْ أَعْيُنُهُمْ عَلَى بَسِيطٍ جَمِيلٍ ، قَدْ جَمَعَ الْأَنْهَارُ وَالْأَشْجَارُ ؛ ٩ (١)

وَجَمِيعٌ مَا يَلِيهِ مِنَ الْبَلَدِ كُلِّهِ يَنْسِقِي مِنْ وَادِي<sup>(٤)</sup> شَلِيلٍ لِلنَّحْدِرِ مِنْ جَبَلٍ

(١) أصل : « نَكْلِفُوكُمْ » . (٢) سورة الحج : ٦٠ . (٣) غرم نحو

سطين في الأصل . (٤) أصل : « واد » .



شَلْتَر . وبصروا بالجليل الذي فيه الآن مدينةُ غَرْنَاطَة مَوْسَطَة لِلْبَلَد كُلِّهِ :  
 الْقَحْصَ أَمَانَهُ ، وَجِهَتِي الزَّائِيَةَ وَالسَّطْحَ بِجَنْبَتِي ، وَنَظَرَ الْجَبَلِ وَرَاءَهُ .  
 فَأَفْتَنَهُمُ الْمَكَانَ ، وَعَمَلُوا عَلَيْهِ كُلَّ حَسَابٍ ، وَرَأَوْا أَنَّهُ فِي وَسْطِ النَّعْمِ وَجُوهُورِ  
 الرِّعَايَا ، وَأَنَّ الْعَدُوَّ ، مَتَى نَازَلَهُ ، لَمْ يُطَقْ لَهُ إِحْصَارًا ، وَلَا مَنَعَهُ دَاخِلًا  
 ٥ وَلَا خَارِجًا الْبَتَّةَ ، فِي كُلِّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ النَّاسُ مِنَ الْمُرَاقَبَةِ . فَشَرَعُوا فِي  
 بُنْيَانِهِ . وَتَوَلَّى كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ إِقَامَةَ دَارِهِ مِنْ أُنْدَلُسٍ وَبَرْبَرٍ . وَخَرَبَتْ  
 عِنْدَ ذَلِكَ الْبِيرَةُ .

### ١١ - خروج المرتضى لحرب بنى زيري وهزيمته

فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا مَدَّةً يَسِيرَةً قَبْلَ أَنْ يَسْتَكْمَلَ الثُّبَيَّانَ ، فَإِذَا بِالطَّوَانِفِ  
 ١٠ الْبَاغِيَةِ قَدْ أَقْبَلَتْ طَامِعَةً مُتَأَلِّفَةً ، يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ ، عِنْدَ وَصُولِهِمْ ، لَا تَرْتَفِدُ  
 لَهُمْ سَاعَةً . وَقَدَّمُوا كِتَابًا إِلَى زَاوِي لِلذِّكْرِ ، يَأْمُرُونَهُمْ - بِزَعْمِهِمْ -  
 بِالْخُرُوجِ أَمَانَهُمْ عَلَى الْأَمَانِ ، وَأَنْ لَا سَبِيلَ إِلَى الْبَقَاءِ ، وَلَا يَتْرَكُونَهُمْ بِذَلِكَ  
 الْمَوْضِعَ : يُتَبَلَّوْنَ بِذَلِكَ الْعَذْرَ عِنْدَهُمْ ، إِذَا ظَفَرُوا بِعَدُوِّ هَذَا ، أَنْ لَا يَقْبَلُوا  
 لَهُمْ عَثْرَةً .

١٥ فَلَمَّا قُرِئَ عَلَى زَاوِي كِتَابُ الْمُرْتَضَى الْمَقَامَ لِهَذَا النَّاسُوسِ ، جَمَعَ  
 رِجَالَهُ ، وَخَاطَبَ ابْنَ أَخِيهِ حَبُوسًا ، يَأْمُرُهُ بِالْقُدُومِ عَلَيْهِ ؛ فَأَتَى فِي جَمِيعِ  
 صُكْرِهِ ، وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى أَعْيُنِهِمْ ، غَيْرَ مُجَانِبٍ لَهُمْ ، وَلَا مُتَكَاثِرٍ مِنْهُمْ .  
 وَاجْتَمَعَ بَغَرْنَاطَةَ مِنْ صُنْهَاجَةٍ دُونَ الْأَلْفِ مِنْ خَيْرَةِ الْخَلِيفَةِ ؛ وَكَانَتْ الطَّوَانِفُ  
 الْبَاغِيَةُ فِي نَحْوِ مِنْ أَرْبَعَةِ أَلْفِ فَارِسٍ .

٢٠ فَأَمَرَ زَاوِي لِلذِّكْرِ [ بِكَتْبِ الْجَوَابِ مِنْ ] إِمْلَائِهِ ، وَقَالَ لِلْكَاتِبِ :

« لَا تَزِدْ شَيْئًا عَلَى مَا أَنبِئِي عَلَيْكَ \* اكْتُبْ : ﴿ أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ ، حَتَّى ٩ (ب) زُرْتُمْ الْمَقَابِرَ . كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ١٠ ﴾ » .

فلما ورد الجواب عليهم ، عجبوا من دهائه ، وقالوا : « إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ لَمْ يَأْبَ الطَّاعَةَ لَنَا ، إِلَّا أَنَّهُ وَائِقٌ بِنَجْدَتِهِ وَبَيْنَ مَعَهُ ، أَوْ مُوَطَّنٌ عَلَى اللُّوتِ ، أَوْ مُعْجَبٌ بِحَيِّ ! » فَرَحُّوا إِلَيْهِ .

وَهَشَّ الْقَوْمُ إِلَى مُلَاقَاتِهِمْ . فَأَمَرَهُمْ زَاوِي بِالثَّبُوتِ وَتَرْكِ الطَّيْشِ ، حَتَّى يَبْدُو لَهُ مَا هُمْ فِيهِ . فَقَالُوا بِأَجْمَعِهِمْ : « لَا خَيْرَ لَنَا فِي غَيْرِ مُلَاقَاتِهِمْ ، إِذْ قَدْ أَيقَنَّا بِأَنَّهُمْ لَا يَنْفَعُنَا مَعَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا الظُّفْرُ بِهِمْ أَوْ اللُّوتُ عَلَى أَيْدِيهِمْ . وَلَا مَهْرَبَ لَنَا فِي الْأَرْضِ دُونَ قِتَالِهِمْ ! إِنْ بَقِينَا ، لَمْ يَبَارِحُونَا ، وَأَحْصَرُونَا ١٠ مَعَ رَعَايَانَا إِنْ لَمْ يَرَوْا مِنَّا دِفَاعًا عَنْهُمْ ! فَلَيْتَا هَلَكْتُ وَإِنَّمَا مُلْكُ ! وَإِنْ مَوْتَنَا فِي مُلَاقَاتِهِمْ ، بَعْدَ إِبْلَاءِ السُّدْرِ ، أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ تَطْلُبِهِمْ عَلَى مَدِينَتِنَا ! »

فَخَرَجُوا إِلَيْهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ جَرِيئَةً وَعَلَى اللُّوتِ مُوَطَّنَةً ، وَقُلُوبٌ حَنِيقَةٌ وَاللُّوتُ طَالِبَةٌ . فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا كَصَفْقَةٍ بِالْكَفِّ عَلَى الْكَفِّ حَتَّى وَلَّوْهُمُ الْأَدْبَارَ ، وَانْهَزَمُوا أَمَامَهُمْ مَذْعُورِينَ ، يَطْلُبُونَ النِّجَاةَ بِحِشَاةِ أَنْفُسِهِمْ ، لَا يَلْوِي مِنْهُمْ أَحَدٌ عَلَى صَاحِبِهِ . وَاتَّبَعْتَهُمْ صِنْهَاجَةٌ ، وَانْبَسَطَتْ عَلَيْهِمْ أَيْدَى الْبَرَبَرِ ، ١٥ يَقْتُلُونَ مِنْهُمْ نَهْمَةً أَنْفُسَهُمْ ، وَيَأْخُذُونَ أَمْوَالَهُمْ وَمَا تَرَكَوهُ مِنْ أَسْلِحَتِهِمْ ، حَتَّى امْتَلَأَتْ مِنْ ذَلِكَ أَيْدِيهِمْ .

وَكَانَتْ تِلْكَ الْوَقْعَةُ أَوَّلَ ظَفَرِ ثَبْتُوا بِهِ فِي أَوْطَانِهِمْ . وَهَابَهُمُ النَّاسُ ، وَانْقَادَتْ لَهُمُ الرِّعَايَا . وَتَوَطَّدَ مُلْكُهُمْ بِفَرْطَانَاةٍ ، وَطَاعَتْ لَهُمْ أَكْثَرُ بِلَادِ ٢٠ أَعْدَائِهِمُ الْمُهْزَمِينَ .

## ١٢ — رحيل زاوي بن زيري إلى إفريقية وموته هناك مسموماً

وإنَّ زاوي بن زيري ، لما بصر بهذه الحال ، ورأى تأليبَ أهل الأندلس عليهم وبُغْضهم لهم ، عمل بذلك فِكْرته وقال : « قد علمتُ وأيقنتُ أنَّ هذا يكون \* دأبهم أبداً ، وإن كُنَّا قد مُتَحْنَا الظفر في أول صفة ، لم نَأْمَنَّهُمْ على أنفسنا وديارنا كلَّ حين ! وهُمْ ، إن قُتِلَ منهم واحدٌ ، خَلَفَهُ أَلْفٌ ، مع مِثْلِ جنسِيَّتهم من الرعايا إليهم ؛ فَكُونُ الزيادة فيهم والنقصانُ مِنَّا ! ولا يموت لنا نَحْنُ أَحَدٌ ونُخْلَفُهُ أَبَدًا ! » فنظر من المكان بعين الحقيقة ، وزَهَدَ فيه ، مع ما عَلِمَهُ من وفاة باديس بن للنصور ، والِدِ المِعْزِ ، مَلِكِ القَيْرَوَانِ ، وأنَّ ابنه وَلِيَّ طِفْلاً صغيراً ؛ فشرعت نفسه إلى تلك الولاية ، وعزم على النهوض إليها ، لَلْقَدَرِ الذي قَدَرَهُ اللهُ من إزالته عنها وولاية ابن أخيه مكانه .

وكان لزاوي بَنُونَ ، يعدل كلُّ واحد منهم بيَدَه مائة فارس في نجدة وقوَّة بأَسِه ورأيه : منهم بُلْقَيْن بن زاوي . فأعاب هذا الرأي على أبيه ، وقال له « بَنَيْتَ لَمِيرِكَ ، فَكُونْ لَهُ بِمَنْزِلَةِ الخادم أو الأجير ! لا تترك حاضراً لغائب ! واثبتْ بمكانك الذي لم تحصل عليه إلا بعد مشقة وإشرافٍ من نفسك على الملاك ! » فقال زاوي : « نستخلف على المدينة من شيوخ تلكَ الكَافَّةِ الموثوق بهم في المِهْمَاتِ مَنْ يَثْقُفُهَا ، وينوب منابى فيها ، حتَّى أباشِرَ بنفسى حال القَيْرَوَانِ وكيفية دَوْلَتِهَا . فإنَّما أن يتهيأ عَرَضُنَا ، وإلا انصرفنا إلى مَرَكَزِنَا » .

٢٠ قهياً للسير على سبيل المشاركة للمِعْزِ ، وأن يكون له بالأندلس عُدَّةٌ

وعبدًا ، وما أشبه ذلك مما يُستعمل في المِشَارَكَاتِ واتِّصَالِ الأَيْدَى عَلَى  
الْمِهْمَاتِ . وَاسْتَحْلَفَ مِنْ اسْتَحْلَافِهِ مِنَ الشَّيْخِ أَلَّا يَدْخُلُوا<sup>(١)</sup> عَلَيْهِ دَاخِلَةً  
وَلَا يُسْلَمُوا<sup>(٢)</sup> مِنْ أَحْوَالِهِ شَيْئًا لِابْنِ أَخِيهِ وَلِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ ، \* يُرِيهِمْ<sup>(٣)</sup> ١٠ (ب)  
فِي مَسِيرِهِ<sup>(٤)</sup> النَّظَرَ لَمْ وَالسَّعَى فِيمَا هُوَ خَيْرٌ مِنْ مَوْطِنِهِمْ ذَلِكَ .

ثمَّ خَرَجَ عَنِ الْبَلَدِ كَأَنَّهُ يُقَادُ قَوْدًا ؛ فَلَمْ يَخْرُجْ مِنْهَا بِمَرْحَلَةٍ إِلَّا وَكُتِبَ  
مُسْتَحْلَفِيهِ سَائِرَةً إِلَى حَبُوسَ بْنِ مَأْكَسَنَ ، يَسْفَهُونَ رَأْيَ زَاوَى وَيَقُولُونَ  
لَهُ أَنْ يُجَبَّلَ بِالْقُدُومِ إِلَى الْبَلَدِ ، وَأَنَّهُ أَحَقُّ بِوَلَايَتِهِ مِنْ غَيْرِهِ ، قِيلَ أَنْ  
يَطْمَعُ فِيهِ مَنْ لَا يَرْضُونَهُ ، أَوْ يَشْرَةَ إِلَيْهِ مِنْ فَتْرَ فَأُهِ إِلَيْهِ بِزَوَالِ زَاوَى  
عَنْهُ . فَلَمْ يَتَأَخَّرْ عَنْهُ إِقْبَالُ حَبُوسَ . وَتَلَقَّيْتَهُ<sup>(٥)</sup> صِنْهَاجَةَ بِالطَّاعَةِ وَالْإِقْبَادِ  
لِمُلْكِهِ . ١٠ وَصَمَعَ بِخَبَرِهِ زَاوَى ، وَهُوَ فِي طَرِيقِهِ عَلَى مَقَرَّةٍ مِنْ غَرْنَاطَةِ ؛  
وَنَدِمَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ . وَلَآمَهُ وَلَدَهُ عَلَى ذَلِكَ .

وَيَذْكُرُ أَنَّهُ ، لَمَّا وَصَلَ إِلَى الْقَيْرُوانِ ، وَأَحْسَنَ بِمَذَقِهِ بَعْضُ وَزَرَاءِ الْمُعَرِّ  
تَكَرَّرَ وَخَافُوا دَوَاخِلَهُ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْ يَكْدُرَ مَا صَفَا . وَرَأَوْا أَنَّ وَلَايَةَ الْمُعَرِّ  
عَلَى طُفُولِيَّتِهِ ، وَعَيْشَتِهِمْ مَعَهُ ، وَتَحْكُمَتِهِمْ عَلَيْهِ ، أَخَفَّ عَلَيْهِمْ مِنْ تَوَلِّيَةِ دَاهِيَةٍ  
١٥ مِثْلَ زَاوَى ، لَا يَمْلِكُونَ مَعَهُ مِنْ قِطْعِيرٍ . فَدُسَّ إِلَيْهِ مَنْ سَقَاهُ الشَّمَّ . وَمَاتَ  
بِتِلْكَ الْبِلَادِ .

### ١٣ — إِمَارَةُ حَبُوسَ بْنِ مَأْكَسَنَ

وَصَفَا الْأَمْرُ لِحَبُوسَ بْنِ مَأْكَسَنَ ، وَسَارَ بِأَجْمَلِ سِيرَةٍ وَأَعْدَلَ طَرِيقَةٍ .  
وَصَرَفَ أَحْكَامَهُ أَجْمَعَ إِلَى قُضَاةِ الْبِلَادِ ، وَتَعَفَّى عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ؛ وَجَعَلَتْ

(١) أَسْلَ : « يَدْخُلُونَ » . (٢) أَسْلَ : « يَسْلَمُونَ » . (٣) أَسْلَ : « يَرِيهِمْ » .

(٤) أَسْلَ : « وَتَلَقَّيْتَهُ » .

يَدُّهُ عَلَى الْحَرَامِ وَالْأَمْوَالِ . فَأَحْبَبَهُ النَّاسُ ، وَأَمِنَتْ مَعَهُ الشُّبُلُ ، وَقَلَّ  
الْقِسَادُ ، وَارْتَفَعَ الْجَوْرُ .

وكان الرجلُ مُحِبًّا فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ ، لَمْ يَسْتَأْثِرْ عَلَيْهِمْ بِشَيْءٍ .  
وَقَسَمَ عَلَيْهِمُ الْبِلَادَ . وَأَمَرَ كُلَّ قَائِدٍ أَنْ يَنْتَخِبَ مِنَ الرِّجَالِ عِدَدًا يَلِيقُ بِهِ  
وَمَا يَكُونُ عَلَى قَدْرِ مَا أُعْطَاهُ مِنَ الْجِهَاتِ ، وَأَنْهَى إِلَيْهِمْ : « إِلَّا قَائِدَةً  
تَفِيدُونِي بِهَا تُنْفَقُ عِنْدِي مِنْ مَالٍ أَوْ تَحْفَظُ غَيْرَ الْاسْتِكْنَانِ مِنَ الْأَجْنَادِ ؛ فَمَتَى  
دَعَوْتُ \* أَحَدَكُمْ لِمِهْمَةٍ ، وَبَصُرْتُ عَسْكَرَهُ أَكْثَرَ عِدَدًا وَأَجُودَ خَبِيرَةً ، ١١ (١)  
فَذَلِكَ الْأَثِيرُ عِنْدَنَا ، وَالْحَظِيُّ لَدَيْنَا ! » فَسَارَعَ الْأَجْنَادُ إِلَى الْإِثْقَةِ ، وَزَادَ  
الْجَيْشُ فِي أَيْتَامِهِ ؛ وَقَامَتْ هِمَمُ الرِّجَالِ عَلَى سَاقٍ ، وَتَنَافَسُوا عَلَى خِصَالِ  
الْحُرُوبِ وَمَقَاطِعِ الشُّجْعَانِ . ١٠

وكان بنو عَمِّهِ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ سُلْطَانًا فِي نَاحِيَّتِهِ ، قَدْ حَازَ جِهَتَهُ  
وَإِنْفَرَدَ بِعَسْكَرِهِ . وَكَانَ حَبُوسٌ — رَحِمَهُ اللَّهُ — لَا يَنْفَرِدُ بِرَأْيِ دُونِهِمْ ،  
وَلَا يَقْطَعُ مَقْطَعًا إِلَّا بِمَشُورَتِهِمْ ، حَتَّى إِنْهُمْ لِيَجْتَمِعُونَ مَعَهُ لِلْحُكْمِ فِي مَوْضِعٍ  
خَارِجٍ قَصْرَهُ دُونَ السَّيْرِ إِلَيْهِ ؛ وَذَلِكَ اسْتِحْسَانًا مِنْهُ ، كَيْ لَا يَحْصِلَ عَلَيْهِمْ  
مَا يَفِيقُ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْهُ ذِلَّةٌ وَلَا مَا يَنْقُمُونَ عَلَيْهِ . وَكَانَ رَفِيقًا بِهِمْ ، مُحْسِنًا  
إِلَيْهِمْ ، مُؤَلِّفًا لِكَلِمَتِهِمْ . وَكَانَ مِنْ قَوْلِهِ : « إِنْ صِنْهَاجَةٌ عِنْدِي مِثْلُ  
الْأَسْنَانِ فِي الْفَمِ : إِنْ عَدِمْتُ مِنْهُمْ وَاحِدًا ، لَا تَخْلُفُهُ أَبَدًا ! » فَكَانَتْ  
لَهُ بِهِمُ الصُّوْلَةُ عَلَى النَّاسِ وَالْإِسْطَالَةُ عَلَى الْعَدُوِّ . وَمَا كَانَ كُلُّ أَحَدٍ يَرَى  
تَرْكَهُ غَنِيمَةً وَالسَّلَامَةَ مِنْهُ مِنْ أَعْظَمِ الْقَائِدَةِ ، فَضْلًا أَنْ يَطْمَعَ فِي شَيْءٍ  
٢٠ مِنْ جِهَاتِهِ ، أَوْ تُحْدِثَهُ نَفْسُهُ بِتَرْوِ بَعْضِ بِلَادِهِ .

## ١٤ — المؤامرات التي دُبِّرت لإسناد الإمارة

إلى يَدَيَّر بن حُباسة .

## موت حُبوس

وكان لِحُبُوس بن مأكسن — رحمه الله — ابنٌ آخر يُعرَف يَدَيَّر  
 ٥ ابن حُباسة . وكان عنده آثرٌ من ولده ، للذي كان يرى من نباهته ،  
 وإقباله على قراءة الكتب ومجالسة الفقهاء ؛ وهو الذي كان يلقي به  
 الرُّسل ، ويصرفه في المهمات . وكان باراً بحُبُوس وبجميع أهل المملكة .  
 وكان من أحبِّ الناس فيه كاتبُ حُبُوس للعروف بأبي العباس ، لِيَا يَرَى  
 من تواضعه وحُسن مُشاركته فيما عَنَّ له من سَبَب . وطار له بذلك نامُوسٌ  
 ١٠ كبيرٌ عند\* صِنهاجة حتى آثَرُوهُ على غيره .

(ب) ١١

وكان باديس بن حُبُوس جدُّنا — رحمه الله — كبير النفس ، عالى المهمة ،  
 حادِّ المزاج ، لا يستطيع أحدٌ [ أن ] يَمْخَرِقَ عليه في أمر من الأمور ، ولا يَنْكسر  
 لأحدٍ من بني عمِّه ، رِقَّةً منه بسعادته ؛ وإنَّ الانخضاع والتريض في القول  
 لا يَغْنِيهِ ذلك ولا يزيد في أَيْامِهِ . وكان ذلك كُلُّهُ منه في حزم وروية ،  
 ١٥ لا يفسد جانباً حتى يصلح آخر ، ويضرب بعضهم ببعض . فوجست أنفُسُ  
 البعض منه ، وأشرَبوا هَيْبَتَهُ وخافته ، وتوقَّعوا ، إن صار الأمر إليه ، أن  
 يجرِّبهم على خلاف ما عهدوه من أيِّهِ . فأَضْمَرَ أَكْثَرُهُم له التوائِل ، وآثَرُوا  
 عليه يَدَيَّر المذكور ، وتمنَّوا بولايته : كلُّ ذلك لشغائهم وتعام أَيْامِ سعادتهم !  
 وسمَّعتُ المظفَّر باديس — رحمه الله — يَصِفُ بعض ذلك في مجلسه

ويقول : « كنتُ واقفاً بين يدي حَبُوس أبي — رحمه الله — حتى انتدبَ إليه من شيوخ صِنهاجة من قال له : « إنَّ من آكَدِ ما تنظر فيه أن تولَّى على أمرِكَ مَنْ يَخلفك مَنْ تُرَجِّى بَرَكَتُهُ للمسلمين ولبنى عمِّكَ ! فإنَّ الموت يضلُّو ويروح ! » قال أبو العباس كَاتِبُهُ : « ليس يصلح لهذا الأمر إلا يَدَّيْر ، لطهارته ، وعفافه ، ومحَبَّتِه في الناس ! » وكان في الجُمْلَةِ من شيوخهم صديقٌ لى اسمُهُ فِرْقَان ، قد اصطنَعْتُهُ واستمَلْتُهُ ؛ فسمعتُ رَدَّهُ على أبي العباس ، وهو يقول له : « ما ينبغي لك أن تتكلَّم بهذا ! كيف يُقدِّم للأمر غَيْرُ ابنه ، وهو مستطلعٌ بجميع الأمور ؛ وقولُكَ أنتَ وقولُ غَيْرِكَ باطلٌ أكثَرُ ، والله ، أَرى موتَ حَبُوس وولايةَ باديس من بعده ، وإنَّ يَدَّيْرَ سيتحاطق على باديس ، ويظفر به ، ويقتله ! » قال باديس : « فسرَّني \* كلامُهُ ، وأعطيتُهُ عليها ألف دينار . »

وكان الأمر بعد ذلك على ما وصف فِرْقَان . ثمَّ إِنَّهُ اطَّيَّبَ من وجوه صِنهاجة أقواماً ، ووعدهم بالإحسان ، وسعى بجهدِهِ على حلِّ تلك الصَّفقة ، إلى أن كلَّموا أباه في توليته . فرضى ذلك ، وأمر الناس بانصياعهم له . ١٥ وزجر يَدَّيْرَ في ملاٍّ من الناس ، وقال له : « لا تشره ما ليس لك ، يا ابن حُباسة ! » يُخاطِبُهُ بهذا اللفظ .

فوقع من ذلك في نفس يَدَّيْرَ عدواةٌ مجددةٌ لباديس ؛ وعمل من ذلك الوقت على خلافه ومُكابرتِهِ وإجماع الجماعات عليه ، وشَتَّت أقواماً من صِنهاجة ، حتى صاروا معه . ووَالَى بُلْقَيْن شقيقَ باديس — رحمهما الله — ؛ وكان من أهل البأس والنجلة ، غير أَنَّهُ لم يكن له معرفةٌ بسياسة المُلُك . ٢٠ ولما رأى بعضُ أصحابه موالاتَهُ لِبُلْقَيْن وسَمَّيَهُ له في ظاهر الأمر ، لامَهُ على

ذلك ، وقال له : « إن كنت لا تسعى لنفسك ، ويكون من سعيك لغيرك ما نرى »<sup>(١)</sup> ؛ فباديسُ أحقُّ بذلك ، الذى هو الأكبر والأسعد ، وله الرياسة ! « فكان جوابه لقائل ذلك : « ليس سعى لبُلُقَيْنِ إشاراً منى له على نفسى ، غَيْرَ أَنَّهُ صَحِيحُ النِّيَّةِ ، غَيْرُ حَازِقٍ بِمَكَائِدِ الْمَلِكَةِ ؛ وَهُوَ شَقِيقُ الَّذِي أُطْلُبُ ، وَلَنْ أُجِدَ لَطَلَبِهِ أَقْدَرُ عَلَى ضَرِّهِ مِنْ أَخِيهِ ! فَإِنَّمَا أَنَا أَصِيدُ بِهِ ! فلو اتسقت لى الأمور ، ونهياً قتلُ باديس على يدى أخيه ، كان أمرُ بُلُقَيْنِ من بعده هيناً ، وخلعه مُمَكِّناً ! »

فكان أبداً يحضه على قتل أخيه ، ويريه السعى له . وكان الأخُ فى ذلك مُتَعَبِّباً فى أمره مُشَفِّقاً على أخيه ، إلى أن توفى حَبُوس بن ١٠ ما كَسَن - رحمه الله .

(١) أصل : « نرى » .



## الفصل الثالث

إمارة باديس بن حبوس

(١) من أوَّلَيْهَا إلى موت ابن نَعْرَالَة

١٥ — أوَّلِيَّة إمارة باديس بن حَبُوس  
وتعاظُم الوزير اليهودي أبي إبراهيم

وولى الأمر من بعده جدُّنا باديس — نصر الله وجهه — فحاول  
أموراً كباراً ، وشقَّى\* مع كلِّ أمةٍ : صِنْهاجة يطلبون مكانه مع يدَّير ، ١٢ (بنا)  
وسلاطينُ الأندلس يرمون بلاده ؛ وهو فى ذلك كلِّه حسنُ السياسة ، صبورٌ  
على الأذية .

وكان أبو إبراهيم اليهوديُّ كاتباً بين يدى أبي العباس كاتب حَبُوس .  
ولما توفَّى أبو العباس المذكور ، وتركَ يَنينَ ، أقام حَبُوس — رحمه الله —  
أكبرَهم عِوضاً من أبيه ، واستعمله مكانه . وكان فى الابن صبوةٌ لا يرتبط  
مهما إلى خدمة الرئاسة ؛ ففكر به أبو إبراهيم اليهوديُّ ، ولزم خدمة الرئيس ،  
١٠ وصار ، متى طاب وَلَدُ أبي العباس ، يحضر أبو إبراهيم ؛ فيسأل عنه حَبُوس ؛  
فيقول ، معتذراً فى الظاهر ومطالباً له فى لُحْن القول : « وَلَدُ أبي العباس ،

كما ترى ، صبيٌّ يُؤثِّر الراحة ؛ وأنت جديرٌ بالإغضاء عليه وإقامةِ  
عنده . وأنا عبْدُه ، أنوبُ منابه ؛ فمرّني بما شئتُ : يَهَيِّأُ ذلك ! »  
فلم يزل على هذا أبداً حتى تمكَّن ، وظهرت خلمته وسعفه في  
ضمِّ الأموال .

٥ وكان مع هذا قد ميَّز عن باديس سعادته ودهاءه ؛ فافترض السَّقيَ  
له والتَّخْدُمَ لإرادته ما دَامَ أَمْكَنُهُ ذلك ، في وقت اللّوايِنَ له والقائمين  
عليه ، للذي قدَّر من أيتامه معه .

فلما اتَّفَقَ أعداؤه مع يَدَّير عليه ، شاركوا في ذلك أبا إبراهيم ،  
واجتمعوا في منزله ، يرومون قتلَ باديس وإقامة يَدَّير ، وَعَدَمَ على الاجتماع  
عنده . ١٠ وتقدَّم إلى باديس ، وأخبره الخبر ، وأتى معه إلى المنزل ، وقال  
له : « ليس الخبر كالبيان ! اسمع بأذنك وَعِ بقلبك ! » وهو بموضع مرتفع  
على البيت الذي يرومون فيه عمَلَهُمْ ؛ وأبو إبراهيم في ذلك كَلَّه يقول عند  
محاورتهم كالمُخاطِب للباري : « يا مَنْ يَرَى ولا يَرَى ! » وهو يعنى بذلك  
باديس جدًّا الذي يَرَاهُم ولا يَرَوْنَهُ . فشكر ذلك باديس\* لأبي إبراهيم ، ١٣ (١)  
وأيقن بِنِقْمته وأمانته . وصار له خادماً من ذلك النّهار ؛ وشاوره في أكثر  
رأيه مع بني عمِّه .

وكان في اليهوديِّ من الكيس والمُدَاراة للناس ما طابَقَ الزمانَ الذي  
كانوا فيه والقوم الذين يرومونهم . فاستعمله لذلك استيحاءاً من غيره ، ولَمَّا  
كان يَرَى من طَلَبِ بني عمِّه له ، ولأنَّ هذا يهوديٌّ ذِمِّيٌّ ، لا تُشرُهُ  
٢٠ نفسه إلى ولاية ، ولا هو أُنْدَلُسِيٌّ ، فَيَتَّقِي منه إدخالَ داخلٍ مع غير جنسه  
من السلاطين ، ولاحتياجه إلى الأموال التي يطَّيُّ بها بني عمِّه ، ويحاول بها

أَمَرَ الْمَلِكُ ، لَمْ يَكُنْ لَهُ بُدٌّ مِنْ مِثْلِهِ أَنْ يَجْمَعَ لَهُ مِنَ الْأَمْوَالِ مَا يُدْرِكُ  
مَعَهَا الْأَمْالَ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ تَسَلُّطٌ عَلَى مُسْلِمٍ فِي حَقٍّ وَلَا بَاطِلٍ ، وَلَئِنْ  
الرَّطَابُ أَكْثَرُهُمْ بِتِلْكَ الْبَلَدَةِ ، وَالْعَمَالُ إِنَّمَا كَانُوا يَهُودًا ؛ فَكَانَ يَجِبِي مِنْهُمْ  
الْأَمْوَالُ وَيَسْطِيهِ ؛ فَيَلْقَى ظُلْمًا مِنْهُمْ إِلَى ظُلْمٍ ، يَأْخُذُ مِنْهُمْ مَا [ يَمْلَأُ بِهِ ]  
بَيْتَ الْمَالِ ؛ وَإِقَامَةُ أَوْدِ الْمَلِكَةِ أَوْلَى بِهِ مِنْهُمْ .

## ١٦ - فشل المؤامرة التي دبرها يَدِيرُ بْنُ حُبَّاسَةَ

ضدَّ باديس

فلما ولى باديس ، كَثُرَ عَلَيْهِ الْخِلَافُ وَالْهَرَجُ ، وَاتَّفَقَ رَأْيُهُمْ عَلَى  
مَا قَدَّمْنَا عَلَى قَتْلِهِ وَتَوَلَّيَ يَدِيرُ . وَأَعْطَى عَلَى ذَلِكَ أَقْوَامًا الْمُتَاقِيلَ وَالصَّكُوكَ  
١٠ بِالْإِنْزَالَاتِ الْقَوِيَّةِ .

وَكَانَتْ عَادَةُ السُّلْطَانِ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى مَوْضِعٍ يُعْرَفُ بِالرَّمْلَةِ ، وَيَلْزِمُهَا مُنِيَّةً  
كَانَ يَحْكُمُ بِهَا حُبُوسُ أَبِيهِ ؛ وَكَانَ لَهَا بَابَانِ ، [ فَاتَّفَقُوا ] عَلَى أَنْ يَقِيمُوا  
الْمُلْقَبَ ، وَيَقْتُلُوهُ عِنْدَ خُرُوجِهِ مِنْ تِلْكَ الْمُنِيَّةِ ، وَهُمْ قَدْ تَسَلَّحُوا بِاللُّدُوعِ  
مِنْ تَحْتِ الثِّيَابِ ، عَازِمِينَ عَلَى الشَّرِّ .

١٥ وَكَانَ مِمَّنْ ارْتَشَى عَلَى ذَلِكَ شَيْخٌ مِنْ صِنْهَاجَةٍ يُعْرَفُ بِفِرْقَانَ ،  
أَعْطِيَ خَمْسَمِائَةَ مِثْقَالٍ وَصَكًّا بِقَرْيَةِ قَوْلَجَرٍ مِنْ عَمَلِ السَّطْحِ . فَقَالَ فِي  
نَفْسِهِ : « لَمْ أَجِدْ فُرْصَةً نَحْطِي بِهَا عِنْدَ بَادِيسَ أَمْكَنَ\* مِنْ هَذِهِ ا » ٣  
فَجَعَلَ أَنْ الْقَرَسَ زَادَ بِهِ فِي جَرِيدِهِ ، كَأَنَّهُ جَمَحَ ، حَتَّى دَخَلَ الْمُنِيَّةَ ،  
وَأَلْقَى بَادِيسَ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْ ذَلِكَ الْبَابِ ؛ فَقَالَ لَهُ مَخْتَلِسًا : « انْجُ بِنَفْسِكَ  
٢٠ وَأَخْرُجْ مِنَ الْبَابِ الْآخَرِ ا فَإِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ا » وَأَرَاهُ الدَّانَايِرَ

التي أعطى على ذلك . فخرج باديس من الباب الآخر ، يحد في السير إلى قَصَبَتِهِ ؛ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ، يَنْتَظِرُونَهُ .

فبينما هُمْ عَلَى ذَلِكَ ، إِذَا بِعَلِيِّ بْنِ الْقَرَوِيِّ وَأَصْحَابِهِ مِنْ وَزَرَاءِ بَادِيسَ وَثِقَاتِهِ قَدْ أَقْبَلُوا إِلَيْهِمْ ؛ قَالُوا لَمْ : « إِنَّ السُّلْطَانَ وَرَدَ عَلَيْهِ مِنْ بَعْضِ أَنْظَارِهِ خَبَرٌ مُثْقِلٌ وَجِبَ الْإِنْصِرَافُ لَهُ ؛ فَأَعْلَنُوهُ فِي مُخْلَفِهِ عَنْكُمْ أَوْ مَعَ هَذَا ، فَإِنَّهُ لَمْ يَخَفْ عَلَيْهِ شَيْءٌ » . ظَلَمَ سَمِعَ الْقَوْمُ بِذَلِكَ ، فَكُلُّ مَنْ كَانَ فِي نَفْسِهِ خَبَرٌ هَرَبَ عَلَى الْمَقَامِ ، وَهَرَبَ يَذِيرُ بْنُ حُبَّاسَةَ ، لَا يَلْتَفِتُونَ عَلَى شَيْءٍ ، يَطْلُبُونَ النِّجَاةَ بِمُهْجِهِمْ .

ثُمَّ انْتَضَحَتْ الْقَضَايَا كُلُّهَا لِبادِيسَ مِنْ بَعْدِ هُرُوبِهِ ؛ وَمَشَى إِلَيْهِ بِالنَّصَاحِ ١٠ كَثِيرٍ مِمَّنْ بَنَاهُ قَبْلَ ذَلِكَ . وَطَلَعَ إِلَيْهِ أَخُوهُ بُلْقَيْنُ ، وَبَكَى بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَسَأَلَهُ الْعَفْوَ عَمَّا أَدْخَلَهُ فِيهِ الْفَاسِقُ ابْنُ عَمِّهِ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَزَلْ بِهِ أَبَدًا يَوْمَ ذَلِكَ مِنْهُ لَوْلَا تَلَبُّهُ وَشَفَقَتُهُ عَلَيْهِ . وَإِنَّ يَذِيرَ خَرَجَ عَنِ الْبَلَدَةِ ، وَصَارَ فِي حَيْزِ الْأَعْدَاءِ ؛ وَكُلُّ رَئِيسٍ قَدْ انْتَدَبَ إِلَى فِتْنَةٍ جَدُّنَا — رَحِمَهُ اللَّهُ — يَنْحَازُ هُوَ إِلَيْهِ ، وَيَصِيرُ مِنْ أَعْوَانِهِ وَعَلَى أَعْنَادِهِ ، يَدُلُّ بِهِمُ الْبَلَدَ ، وَيُزِيلُهُمُ ١٥ الْمَخَادِعَ ، وَيَكْشِفُ لَهُمْ مِنْ عَوْرَاتِ الْجِهَةِ مَا خَفِيَ عَنْهُمْ ، لَا يَفْتَرُ بِالضَرْبِ عَلَيْهِ وَتَهْتِكُ بِلَادَهُ ؛ وَجَدُّنَا فِي هَذَا لَا يَأْوِي مَعَهُ إِلَى رَاحَةٍ ، وَلَا يَقْرُءُ بِهِ قَرَارًا .

وَصِنْهَاجَةٌ مَعَ هَذَا يَخَاطِبُونَهُ ، حَتَّى إِذَا وَقَعَتْ يَدُ السُّلْطَانِ بَادِيسَ — رَحِمَهُ اللَّهُ — كُتِبَ كَثِيرَةٌ مِنْ عِنْدِ صِنْهَاجَةَ إِلَى يَذِيرَ ، تَضَمَّتْ أَزِيدَ مِنْ

٢٠ مَائَتِي رَجُلٍ\* مِنَ الْأَكْبَرِ . فَغَضِبَ لَذَلِكَ ، وَهُمْ يَقْتُلُهُمْ . وَشَاوَرَا أَبَا إِبْرَاهِيمَ (١) ١٤ فِي الْأَمْرِ ؛ فَقَالَ لَهُ : « أَرَى مِنْ الرَّأْيِ إِلَّا تَوَنَّبَ أَحَدًا عَلَى هَذِهِ

الكتب ، ولا تعلمهم أنها صارت إليك ، وأن تأمر الآن بنار تحرقها بها وتطفى أثرها ؛ ورأس العقل مُدارةُ الناس . فإن عاقبت ، كم عسى [ أن ] تُعاقب ، وهم أجنادك وأجنحتك ! فاحتلّ للأمر بغير هذا الوجه ! « قبل نصيحته ، واستعان ببعضهم على بعض ، وأفشى فيهم العطايا ؛ وضرب الابن بأبيه والأخ بأخيه .

فكان دأبُ يذير هكذا أبداً ، لا يقرُّ عن الضرب على بلاده ومعاودة ذلك بلا سامة ولا فترة ، إلى أن أظفره الله به وصار في ثقافته . وذَكَرَ أنه مات مقروماً حتف أنفه . وتأتت الأمور لباديس من بعده ، وصفا له الجوّ .

#### ١٧ — انتصار باديس على زهير صاحب المرية

وأولُ فتح أفاء الله عليه هزيمته لزهير الخصي والى المرية . وكان له كاتبٌ ، يُعرف بولد عباس ، من أشدّ الناس حماقةً واستخفافاً ، مُبيراً للشر ، مؤرّشاً بين الملوك ؛ وكان الغالب على أمر زهير ، إذ لم يكن زهير يصلح لشئ من لعباته وجهله . وكان قد جمع كلَّ خصي بالأندلس واحتفل ؛ فبالغ . وأدركه الطمع في غرناطة ، لِمَا بلغه من موت حبّوس بن ماكنس . فأتى حتى نزل على مقربة منها ، بموضع يُعرف بالقنوت ، محتراً لمن ولي غرناطة ، يزعم أنهم أصاغرٌ وأمرهم مختلٌ بعد حبّوس ، لِمَا أراد الله من هلاكه وهلاك جنسيته الخصيان .

وكان جدُّنا باديس — رحمه الله — قد رأى عند ذلك رؤيا أن الحوَر بفرنطة قد سقط إلى الأرض جميعه ؛ فقال له ذلك ، وخشى أن تكون الوقعة عليه ؛ فأرسل في المُعَبَّر وقصَّ عليه . فقال له المُعَبَّر : « أبشر بهذه

الرُّوْيَا ! إِنَّ الْحَوْرَ شَبِيهٌ بِالْخَصِيَانِ ، الَّتِي \* لَا طَعْمَ لَهُ ، وَلَا أَصْلَ يَتَوَرَّكُ ١٤ (ب)  
عليه ؛ وَهُمْ بِهِنَا الْمَرْتَبَةِ . وَلَا شَكَّ فِي سَقُوطِهِمْ وَبَوَارِهِمْ عَلَى يَدَيْكَ !  
فَكَانَ ذَلِكَ .

وَقَدَّمَ عَلَى السَّاكِرِ أَخَاهُ بُلْقَيْنَ ؛ وَكَانَ مِنْ أَشْجَعِ النَّاسِ ؛ وَكَانَ  
٥ باديس ، عِنْدَ مَوْتِ أَبِيهِ ، قَدْ اخْتَصَّهَ بِكُلِّ مَا شَاءَ وَفَضَّلَهُ فِي الْمِيرَاثِ عَلَى  
نَفْسِهِ إِلَّا النَّاضِ الَّذِي تَحْتَاجُهُ الْمَمْلُوكَةُ . فَلَقِيَ الْعَسْكَرَ الْمُرْذُولَ ؛ فَلَمْ تَكُنْ  
إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ حَتَّى انْهَزَمَ وَقُتِلَ جَمِيعُ مَنْ كَانَ فِيهِ مِنَ الْخَصِيَانِ ،  
وَنَخِيَ زُهَيْرٌ عَنِ الْعَسْكَرِ ؛ فَلَمْ يَوْجَدْ حَيًّا وَلَا مَيِّتًا . وَكَانَتْ تِلْكَ أَوَّلَ  
سَعَادَةِ باديس ، كَمَا كَانَتْ هَزِيمَةُ الْمُرْتَضَى أَوَّلَ سَعَادَةِ أَبِيهِ ، ثُمَّ افْتَتَحَ  
١٠ الْبِلَادَ ، وَصَارَتْ إِلَيْهِ الْأَنْظَارُ الَّتِي تَلِي الْمَرْيَةَ . وَظَفَرَ بَعْدُوهُ كَاتِبَ زُهَيْرَ ،  
وَأَمَرَ بِقَتْلِهِ مَتَأَوَّلًا لِإِثَارَتِهِ الْفِتْنَةَ ، وَفَهَّمْ عَلَيْهِ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً قَبْلَ ذَلِكَ ، مِنْ  
أَقَاوِيلَ خَشِنَةٍ وَمُعَامَلَاتٍ قَبِيحَةٍ عَرَفَهُ بِهَا .

وَقَرَّ مُلْكُ باديس جَدًّا قَرَارَهُ ، وَطَارَ لَهُ الذِّكْرُ . وَكَانَتْ لَهُ مِنَ الْهَيْبَةِ  
فِي النَّاسِ أَنْ لَمْ يَجْتَزِيَ عَلَيْهِ أَحَدٌ بَعْدَ تِلْكَ الْقَضِيَّةِ .

١٥ ثُمَّ إِنَّ بُلْقَيْنَ أَخَاهُ لَمْ يَلْبَثْ بَعْدَ تِلْكَ الْوَقِيعَةِ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى مَاتَ  
— رَحِمَهُ اللَّهُ — . وَكَبُرَتْ سَنُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ فِي حَالِ الْخِلَافَةِ ، وَهُوَ أَبُو نَا .  
وَتَرَكَ عَنْهُ بُلْقَيْنَ ابْنًا كَانَ يَنَافِئُهُ وَيَخْشَى مِنْهُ ضَرًّا كَثِيرًا ، وَيَتَوَقَّعُ عَلَى نَفْسِهِ  
مِنَ الْمَطَالِبَاتِ بِتِلْكَ الْأَخْبَارِ ؛ فَخَرَجَ عَنِ الْبَلَدِ بِجَمِيعِ مَالِهِ وَتَرَكَ أَبِيهِ ،  
لَمْ يَعْتَرِضْ لَهُ شَيْءٌ .

### ١٨ — شخصية الأمير بُلقين سيف الدولة والد المؤلف

ولم يكن للمظفر جدًّا غير بُلقين أبينا — رحمهم الله — . وكان رفيقًا به ، مشفقًا عليه ، حذرًا من أعدائه وبنى عمه أن يُبَايَعَهُ من بعده بما يُؤَلِّغُ هو به بعد وفاة أبيه ؛ فكان لا يحسُّ من أحدٍ داخلَةً ولا نفاقًا إلا ونظر فيه بما يوافق أمره من إخالٍ أو نقيٍّ أو أخذٍ مالٍ ، ثلًّا يَبْقَى لابنه مَنْ يُناوُهُ وَيُذِلُّهُ .

وكان سيف الدولة حليماً\* رَفِيقًا ، ضدَّ أبيه في كلِّ حال ؛ فَإِنَّهُ لم يَجْرُبْ ١٥ من الأمر ، ولا ابْتَلَى بما ابْتَلَى هو به . وكان يَعِدُّ النَّاسَ بِالْجَلِيلِ ، ويقول لهم : « أنا أنسيكم طريقة أبي ا » ومن استوجب من أبيه القتل أو أذنى ضَرَرٍ ، كان هو الذي يعنى بأمره ، ويتشفع فيه عند الأب ، حتَّى يتخلَّصه . ١٠ فأجمع الناس على محبته خاصَّةً وعامةً للذي يرون من مكارمه ، مع تمكين أبيه له وتسطُّ يده على الأموال .

### ١٩ — نشاط يوسف بن نَعْرَالَةَ اليهودي ومؤامراته

وكان في زمانه للمظفر أبيه وَزِيرَانِ ابنا القروى\* : أَحَدُهُما على\* ، والآخر ١٥ عبدالله ، مَنَّ نَشَأَ معه ؛ وكانا حَصِيرِيَّةً في المكتب ؛ وكانا قائدَي السَّكْرِ ؛ واليهما كان يرجع الرأى في أمور القن<sup>(١)</sup> . وكان أبو إبراهيم الشيخ مؤذِنًا لهما ، مستعينًا بهما .

(١) أصل : « القنن » .

- فلما توفي أبو إبراهيم، وترك ابنه وزيراً جدُّنا، ورث لآبيه أموالاً كثيرة، ووصاهُ بأن يسعى في طلب الوزراء عند استقامة الدولة للرئيس، وعرض عليه الأبواب التي منها يكون حَتَفٌ كلِّ واحد منهم، لِمَا كان بأيديهم من البلاد واستثمارهم بالجبليات. فجعل الخنزير نفسه لذلك. وكان المُظفَّر — رحمه الله — لا يقبل منه مُطالبةٌ لمُسَلِّمٍ، ولا عَرْضُهُ لذلك، غير أَنَّهُ كَانَ يَتَلَطَّفُ بِالْأَمْوَالِ، وَيُعْطِي لِنِقَاتِهِ وَصِيدَهُ مَا يَجْعَلُهُمْ فِي الْمُطَالَبَةِ عَلَى هَوَاهُ، وَهُوَ سَاكِتٌ، لَا يَشْكُمُ شَيْءٌ مِثْلَ أَنْ يَكْدُسَ فِي طَلَبِ أَحَدٍ عَلَى يَدَيْ مُوَقِّقِ الْحَصَى صَاحِبِ الدِّينَةِ مِنْ ثِقَاتِ بَادِيسٍ؛ وَكَانَ مُتَنَصِّباً لِهَذِهِ الشَّيْءِ؛ فَيَأْتِي مُوَقِّقُ الذِّكْرِ بِنَصِيحَةٍ إِلَى السُّلْطَانِ مِمَّنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الشَّرِّ؛ فَيُرْسَلُ فِي الْيَهُودِيَّةِ وَيُقَالُ لَهُ: «بَلِّغْنِي أَمْرٌ كَذَا وَكَذَا». فَيُرِيهِ الْيَهُودِيَّةَ التَّبَرُّؤَ<sup>(١)</sup> مِنْ ذَلِكَ بِأَنْ يَقُولَ لَهُ: «كُلُّ مَا قُلْتُ إِلَيْكَ كَذِبٌ» فَتَثْبُتُ<sup>(٢)</sup> أَيْ يَقُولُ لَهُ الرَّئِيسُ: ١٥ (ب) «أَخْبَرْنِي مَنْ لَا شَكَّ عِنْدِي فِي نَصِيحَتِهِ أَيْ فَكَانَ آخِرُ مَا يَقُولُ لَهُ: «مَا قَطَعُ الشَّرَّ إِلَّا سِيَاسَةً أَيْ وَكَانَ لِمُبَاهَاةِ وَمُتَحَرِّقِهِ، يُرَى النَّاسُ أَنَّهُ يَقْدِرُ؛ وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْهُ، إِلَّا عَنْ تَحْيِيلٍ وَمَكْرِ.
- ١٥ فلما توفي أبو إبراهيم الشيخ، وكان ابنه في سنِّ الصِّبَا، كَرِهَ تَوَلِيَّتَهُ جَدُّنَا، وَقَالَ لِعَلَى الْمَذْكُورِ: «الزِّمْ خِدْمَةَ الْمَلِكَةِ؛ فَأَنْتَ أَحَقُّ بِهَا أَيْ فَأَبَى ذَلِكَ عَلَى. وَاطْبَاهُ وَلَدُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ بِالْأَمْوَالِ الْجَسِيَةِ، وَقَالَ: «لَيْسَ أَرْغَبُ إِلَّا أَنْ أَكُونَ عَبْدَكَ وَتَرْبِيتَكَ؛ وَلَكِ الْأَمْرُ؛ وَأَنَا كَاتِبٌ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَأَقُومُ بِنَفَقَتِكَ كُلِّهَا، وَلَوْ كَانَ أَهْلُكَ عَدَدَ الْحَصَى أَيْ فَطَمَعَ ٢٠ عَلَى فِي قَوْلِهِ، وَكَلَّمَ السُّلْطَانِ فِي ذَلِكَ، وَقَالَ لَهُ: «إِنْ أَقْبَيْتَ عَلَيَّ وَلَدَ

(١) أصل: «التبرؤ».



أبى إبراهيم ناصحك ، فأنا أرجو ذلك لو لَدَى من بعدى ؛ وأنا المُشْرِفُ عليه . « ففعل السلطان ما قال ، وقَدَّمه على العُمَال والجبايات . وكان يعطى لعلَى صدرًا من دولته إلى أن كَبُرَتْ سنُهُ .

وأظهر [ ولدَ أبى إبراهيم ] للسلطان نصائحَ كثيرةَ حِطَى بها عنده ؛ وَتَبَرَّكَ عَلَى عَلَى وغيره ، واستوثق من جانب الرئيس ما لم يَسْأَلْ به عن عَلَى ولا عن أحدٍ من خلق الله . وكان فيما قال له : « إِنَّ الذى يأخذ عَلَى أَنْتَ أُوذِىَ به ؛ والرجلُ كثيرُ الأولاد والضنَف ، ويذهب مالكُ إن لم تَحْمِنِ وتعضدنى . وهو متى تَمَلَّأ ، طَمِعَ فى مُلْكِكَ ! وأنا رجلٌ ذِمِّىْ لاهِمَةٌ لى إِلَّا خِدْمَتَكَ وَجَمَعَ الدرامَ لبيت مالك ! » فوثقَ الرئيس بقوله ، وقاس عليه بقله ، ومنع منه عليًا وجميعَ الناس . ولما رأى عَلَى تَأْخُرَهُ وتَقَدُّمَ اليهودى\* ، ندم على ما كان منه أَوَّلًا ، وفاته من الأمر ما لم يقدر معه على حيلة عند السلطان ؛ وَغَاظَهُ ذَلِكَ وَأَكْرَبَهُ .

وكانت مَدِينَةُ وادى آش\* بِيَدِهِ ، قد قَدَّمَ عليها أخاه عبدَ الله ؛ وكان (١) ١٦  
يَأْكُلُهَا طَعْمَةً ، ولا يعطى منها فوق خمسة عشر ألف دينار دَرَاهِمَ ، وهى ١٥  
تُسَاوِى أَرْبَعًا من مائة ألف دينار ثُلُثِيَّة . فدخل عليه اليهودى\* بهذه المَطَالِبَةِ وقال للسلطان : « اقْبِضْ وادى آش من عنده ، ولك مَنَى فيها أَرْبَعًا من مائة ألف ! » فقال له : « لستُ أَقْدِرُ على أَخْذِهَا منه بهذا الوجه ؛ فَتَكُونُ مَفَاسِدَةً ، وهم متصرفون فى خِدْمَتِهَا . فوجد اليهودى\* السبيلَ إلى حيلة فى نزعها باسمِ سيف الدولة أَيْنَا ، وقال : « لَأَخْذَنَّ الْبَلَدَ من يد عدوِّ ، فَأَضْمُهَا فى يد سلطان يشكرنى عليها ، ويرى لى ذلك عن تَخْذُمٍ ونصيحة ! » ٢٠  
فقال لأبى : « إِنَّهُ يَلْزِمُنِي طَاعَتُكَ وَنَصِيحَتُكَ لَأَكُونَ لك كالنبي أنا لأبيك ؛

وأراك كثير الذُّرِّيَّة ، تازمك ففقات وتجمثل الرياسة ؛ ومن النهن أن يكون وزراه والديك أغنى منك ! وهذه وادي آش ، بنتُ غرناطة ، لا تجمل إلا لك ، وأنا أُمَرُّها وأجعلك تأخذ فيها مائة ألف ! « ففرح لقوله والدي — رحمه الله — ، وشكر له رأيه ، ووعدته بالزيادة في مرتبته إن صار الأمرُ إليه .

٥ ثم مضى إلى الوالد ؛ فأخبره الخبر ، وقصَّ عليه أمرَ ابنه ؛ فقال له المُظفَّر : « الآن وجب أخذها من أولاد القروى . » فأرسل على اللقلم في عليّ وقال له : « إن ابني محتاجٌ إلى المال ، وطلب مني وادي آش . ولو كنت آخذها منك ومُعطيها لقرينك ، لعزَّ عليك ! ولكن يجب لك أن تتسرع بها لابني . » فلم يكن جواب عليّ إلا أن قال له : « ما صلح للموتى على العبيد حرامٌ ! » فضمَّها اليهوديُّ خادماً لأبي فيها ، وشرط عليه أن يعطيه رمتها في أنجم العام ؛ واتفقا على ذلك\* . وصارت اللوذة متمكنة بين الابن ١٦ (ب) والوزير مُدَّةً طويلةً .

## ٢٠ — موت الأمير بُلُقَيْن مسموماً

فلما رأى وزراء الدولة وعليُّ وأخوه تَمَكَّن اليهوديُّ عند السلطان وعند الابن ، أغاظهم ذلك وأقلقهم ، وبلغ منهم كلُّ مبلغ . وأجمع رأيهم على الدخول بينه وبين أينا . وكان أولاد عليٍّ وعبد الله وزراء لسيِّف الدولة ونُدُماء ، لا يُفارقونه . فصاوا عليه من كلِّ وجه بأنفسهم ومع بنهم ، وقالوا لسيِّف الدولة : « إن الأموال التي ينم اليهوديُّ ويستأثر بها ، أنت أحقُّ بها وأولى . وقد آتَمَّاك وأتَمَّل الدولة أجمع ! ولو أنك قتلتَه ، لم يقل : ٢٠ لك أبوك في ذلك شيئاً ! وما عسى أن يصنع بابنه ؟ » أرادوا — الفسقة —

قَتَلَ عدوهم على يدي ابن الرئيس ، ليخرجوا أيديهم من المسألة : فإن عاقبَ ، عاقبَ ابنه ، إن شاء ، وحصلوا على الدولة دون ملامة من السلطان . فلم يزالوا به أبداً ، ينمون باليهودية ، ويكذبون عليه ، ويمضون<sup>(١)</sup> إلى اليهودي بالكذب على لسانه ، حتى تغير أبونا عليه وتغيرت له نفس اليهودي ، مع قلة تجارب سيف الدولة لمكايد الناس . فعمل على قتله ؛ وكان يتحدث بذلك ، وينشى سره إلى الوزراء الرافضين إليه ؛ فلا هو يزم على قتله ، ولا هو يتكلم بالأمر ، إلى أن صحَّ ذلك عند اليهودي ، واعتزم رأيه على أن يسبقه بالأمر ، ورأى عياناً تغيره عليه . وكان أبونا ، لما هم بقتله ، وأعدَّ لذلك عبيده ، ففكر في سطوة أبيه ؛ فكفَّ .

- ١٠ وكان لسيف الدولة أخٌ صغيرٌ اسمه ماكسن ، عُثنا الشهيد في وقعة بطليوس . فعمل الخنزير رأيه مع مشيخة اليهود ، \* وأخبرهم بتغير سيف الدولة عليه ؛ فقال له أحدُهم وأدَّهائمُ رأياً : « لا تطمع في الفلاح بعد الشيخ ، ولا في سيف الدولة ! ولكن انظرْ لنفسك فيمن يُقيمُ إن مات رئيسك : أوجدته ؟ وتحيل في متى سيف الدولة . وهذا ما كسن أخوه مخول ؛ فإن قتلت أنت هذا ، ووليت هذا ، قدَّمتَ عنده يداً لا ينسأك عليها ! »
- ١٥ فسوَّكت له نفسه سعيه . وكان متمكناً بذلك ، لأن أبانا كان كثير الشرب معه والتكرارِ عليه في منزله . فشرب يوماً عنده على عادته ؛ فلم يخرج عنه حتى قذف ما كان في جوفه ، واستلقى على الأرض ؛ فلم يستطع المشي إلى منزله إلا عن مشقة ؛ ولبت يومين يمجد بنفسه ، حتى مات — رحمة الله عليه .
- ٢٠

(١) أصل : « ويمضوا » .

ولقد سمعتُ كبيراً من خِصيان باديس يقول : « أُرْسِلَ في سَيْفِ الدولة يوماً وقال لي : « انهضْ إلى أُمَّهَاتِي وَقُلْ لَهُنَّ<sup>(١)</sup> إِنِّي اعْتَزَمْتُ عَلَى قَتْلِ الْيَهُودِيِّ ». يقول الْخَصِيُّ : « قُلْتُ لَهُ : « أنا لا أَمْضِي بهذه الرسالة ! فَإِنَّ الْخَبَرَ لَا تَحَالَةَ عِنْدَهُ ! لَوْ أَنَّكَ تَرِيدُ قَتْلَهُ ، مَا كَانَ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تُسَمِّعَنِي ذَلِكَ وَلَا أَحَدًا مِنْ خَلْقِ اللَّهِ ! » فَعَلْتُ أَنْ حَالَهُ تَوَوَّلُ إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ . »

ومما أَطَانَ عَلَى الْفَسَادِ قَبْلَ ذَلِكَ أَنَّ أَبَانَا كَانَ مَعَ أُمَّهَاتِهِ ، اللَّائِي رَبَّيْنَّ وَلَدَهُ الْمُعِزَّ أَخَانَا ، عَلَى ضِدِّهِ مِنَ الْأَمْنِ ، لِإِفْرَاقِهِنَّ لِلْمَالِ عَلَى ابْنِهِ طِفْلاً صَغِيراً وَمُنْعِدٍ هُوَ مِنْهُ . فَاحْتِاجَ إِلَى الْيَهُودِيِّ عَنْ الْمَالِ . وَكَانَ أُمَّهَاتُهُ يُطَالِبْنَهُ وَيَمْنَعْنَهُ عَنْ حَبَّةِ الْيَهُودِيِّ ، حَتَّى شَعَرَا بِذَلِكَ ؛ وَاتَّفَقَ رَأْيُهُمَا عَلَى مُطَالِبَةِ النِّسَاءِ عِنْدَ الرَّئِيسِ ، وَتَجَرَّيْحِهِنَّ بِسُرْقَةِ الْمَالِ وَإِرْسَالِهِ إِلَى الْبِلَادِ . فَلَمَّا وَقَفَ جَدُّنَا عَلَى الْمَقَالَةِ ، وَقَدْ وَقَعَتْ لِلْفَاسِدَةِ بَيْنَهُنَّ وَبَيْنَ ابْنِهِنَّ ، صَارَ مَكْلُومًا\* مِنَ الْأَبِّ وَالنِّسَاءِ . وَتَحَيَّلَ النِّسَاءُ عَلَى أَنْ يَرَّأْنَ<sup>(٢)</sup> أَنْفُسَهُنَّ مَآقُذِفِينَ<sup>١٧</sup> (ب) بِهِ ؛ وَدَعَتِ الْضُرُورَةُ سَيْفَ الدَّوْلَةِ أَنْ يَتَصَالَحَ مَعَ النِّسَاءِ لِرَجُوعِ أَبِيهِ مَعَهُنَّ ؛ وَرُدَّتِ الْقِصَّةُ فِي رَأْسِ الْيَهُودِيِّ . فَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا زَادَهُ غَائِلَةً وَفُورًا ، وَجَرَى عَلَى يَدَيْهِ مَا قَدَّرَ اللَّهُ بِهِ لِنِهَايَةِ الْمُدَّةِ .

وَكَانَ فِي أَوَّلِ الْمَافَسِدَةِ قَدْ احْتَبَسَ لَهُ بِكَثِيرٍ مِنْ جَبَايَةِ وَادِي آش ؛ وَشَكَاهُ سَيْفُ الدَّوْلَةِ لِأَبِيهِ . فَتَحَيَّلَ الْخِزْيَرُ عَلَى أَنْ دَعَا أَبَانَا إِلَى مَنْزِلِهِ لِشُرَابٍ ، حَتَّى سَكَرَ ؛ وَأَمَرَ بِخُرُوجِ بَنِيهِ وَعِيَالِهِ فِي ثِيَابِ الْحَزَنِ . فَهَلَالَ<sup>٢٠</sup> ذَلِكَ أَبَانَا لِمَا رَأَى مِنْ حَالِهِمْ وَبِكَاثِهِمْ ، إِلَى أَنْ قَالَ لَهُ : « هَلْ مَاتَ عِنْدَكَ

(١) أصل : « ولم » . (٢) أصل : « برين » .

أَحَدٌ ؟ » قَالَ لَهُ : « مَاتَ عِنْدِي مَالٌ كَبِيرٌ لَا يَمْتَسِكُ عِنْدَكَ إِلَّا بِمُطْلَرِ  
الرَّعِيَّةِ ! وَهَذَا يَوْمٌ طَيِّبٌ : فَأَنْسَ أَهْلِي بِكَتَبِ بَرَاءَةٍ تَدْرِيثُنِي بِهَا إِلَى أَنْ  
يَرِدَكَ مَالُكَ ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ وَجَسَتْ نَفُوسُهُمْ وَفَزَعُوا . فَأَتَيْمُ إِحْسَانَكَ بِكَتَبِ  
الْبَرَاءَةِ ! » فَافْتَرَصَهُ فِيهَا ، وَكَتَبَهَا ؛ ثُمَّ ذَهَبَ بِهَا إِلَى أَبِيهِ وَقَالَ لَهُ :  
« إِنَّمَا يَنْفَقُ مَالُهُ عَلَى الْوُزَرَاءِ وَالشَّرَابِ الْمَذْمُونِ ! وَهَذَا إِبْرَؤُهُ لِي :  
فَأَيْنَ شَكْوَاهُ ؟ » فَرَجَعَ مُلُومًا مِنَ الْأَبِ زَائِدًا ، وَصَارَ فِي خُسَارَةٍ مَعَ  
الْوَزِيرِ وَالنِّسَاءِ ، لِأَنَّهُ أَرَادَ اللَّهُ مِنْ تِمَامِ الْمَدَّةِ . وَاللَّهُ يَنْفَعُهُ بِجَمِيلِ نَيْتِهِ وَصَفَاةِ  
مَذْهَبِهِ لِلْخَاصَّةِ وَالسَّامَةِ !

### ٢١ — مَا بَلَغَ ابْنُ نَعْرَالَةَ مِنَ الْمَكَانِ الْأَرْفَعِ

- ١٠ فلما تَوَفَّى أَبُونَا ، وَكَانَتْ مِنْ أَكْبَرِ الرِّزَايَا لِلنَّاسِ ، لَمَّا كَانُوا يَرْجُونَهُ  
مِنَ الْعَدْلِ عَلَى يَدَيْهِ ، هَاجَ النَّاسُ بِأَمْرِهِ ، وَهَمُّوا بِقَتْلِ الْيَهُودِيِّ . وَكَانَتْ  
تِلْكَ مَقْدَمَاتٌ لِهَلَاكِهِ ، غَيْرَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَوَقَّعُونَ مَعَاذَةَ الرَّئِيسِ . وَزَادَ فِي  
طَلْبِهِ لِأَوْلَادِ الْقَرَوِيِّ ، وَصَوَّرَ عِنْدَ الْمُظَفَّرِ أَنَّ بَنِيهِ زَيْنُوا لِابْنِهِ الْإِمَامَانَ  
عَلَى الْحَرْ حَتَّى هَلَكَ . وَأَدْرَكَتْ لِتِلْكَ أَوْلَادَ الْقَرَوِيِّ مَنَحَةُ عَظِيمَةٌ مِنْ  
١٥ نَفْسِهِمْ عَنْ أَوْطَانِهِمْ ، وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ ، وَقَتَلَ بَعْضَ الْوُزَرَاءِ\* الَّذِينَ كَانُوا ١٨ (١).  
حَوَالِي أَيْنَا لَمَّا أَتَاهُمَا بِهِ ؛ وَجَانِيَ الْقَضِيَّةَ لَا يُوبَهُ لَهُ . وَتَبَرَّمَكَ الْيَهُودِيُّ  
بَعْدَ سِتْفِ الدَّوْلَةِ ، وَسَعَى فِي إِقَامَةِ مَا كُنَّ عَمَّا .  
وَكَبُرَتْ عِنْدَ ذَلِكَ سَنٌ جَدُّنَا ، وَأَخْلَدَ إِلَى الرَّاحَةِ ، وَزَهَدَ فِي طَلَبِ  
الْبِلَادِ لِكِبَرِ سَنِهِ وَمَوْتَ ابْنِهِ ، وَأَلْقَى بِمَقَالِيدِهِ إِلَى الْيَهُودِيِّ فِي الْخِدْمَةِ عَنْهُ ؛  
٢٠ فَتَصَكَّنَ بِمَا شَاءَ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّفْيِ .

## ٢٢ - استيلاء باديس على مالقة

وإِذَا كَانَ طَلَبُ جَدِّنا أَكْثَرَهُ وَسَعْيُهُ عَلَى أَخْذِ مَالِقَةٍ ؛ فَإِنَّهُ ، مَتَى كَانَ يَأْخُذُ شَيْئًا مِنْ مَعَاوِلِ الْأَنْدَلُسِ ، يَبْلُغُهُ مِنَ الْمُعِزِّ بْنِ بَادِيسٍ أَنَّهُ يَقُولُ : « يَخَاطِبُنِي صَاحِبُ غِرْنَاطَةَ بِأَخْذِ الْكُورِ وَالْقُرَى ! أَمَا أَنَّهُ لَوْ أَخَذَ مِثْلَ قُرْطُبَةٍ وَمَالِقَةٍ وَمَا أَشْبَهَهُمَا مِنَ الْقَوَاعِدِ ، كُنَّا نَبِيعُ لَهُ فِي ذَلِكَ ! »<sup>٥</sup> فَعَلَهُ كَلَامُهُ يَجِدُّ فِي خَيْرِ مَالِقَةٍ ، وَلِلَّذِي كَانَ يَرَى مِنْ انْدِبَارِ سُلَاطِينِهَا ، وَتَوَقُّعِهِ عَلَى أَنْ يَأْخُذَ الْبَلَدَ مَنْ يَدْخُلُ عَلَيْهِ الْخَاطِلَةُ مِنْهَا . فَلَمْ يَزَلْ يَمَاقِدُهَا سِنِينَ<sup>(١)</sup> بِلَا سَآمَةٍ وَلَا فِتْرَةٍ ، حَتَّى حَصَلَ عَلَيْهَا .

وَبَنَى قَصَبَتَهَا بِنْيَانًا لَمْ يَقْدِرْ عَلَى مِثْلِهِ أَحَدٌ فِي زَمَانِهِ ، وَأَعَدَّهَا عُدَّةً لِلْمُهَيَّمَاتِ ، وَجَعَلَ فِيهَا جَمِيعَ مَا وَرِثَ لَابَنُهُ ، وَزَادَ عَلَيْهِ ؛ وَكَانَ الَّذِي يَتَوَقَّعُ<sup>١٠</sup> مِنْ كَلْبِ سُلَاطِينِ الْأَنْدَلُسِ وَاتِّفَاقِهِمْ عَلَيْهِ لَنَالِكَ أَنْ يَتَحَصَّنَ فِيهَا مَا اسْتَطَاعَ ، وَإِلَّا ، فَيَجُوزُ مِنْهَا إِلَى عِدْوَةِ بَنِي عَمِّهِ بِأَهْلِهِ وَذَخَائِرِهِ وَمُذًا أَخَذَهَا ، حُلًّا عَنْ نَفْسِهِ .

وَنَازَعَهُ عَلَيْهَا ابْنُ عُبَّادٍ ، وَأَطَاعَهُ أَهْلُهَا دُونَ الْقَصَبَةِ ؛ فَوَجَّهَ إِلَيْهَا عَسَاكِرَهُ ، وَهَزَمَهُ عَلَيْهَا . وَرَجَعَتْ إِلَيْهِ بَعْدَ الْيَأْسِ مِنْهَا . وَلَمْ يُبْلَقِ سُلْطَانٌ عَلَى مَدِينَةٍ مَالِاقِيٍّ هُوَ عَلَى مَالِقَةٍ مِنْ طُولِ الْفِتَنِ وَنَفَقَةِ الْأَمْوَالِ . فَلَمَّا بَلَغَ مِنْهَا الْغَايَةَ مِنْ آمَالِهِ ، حُلًّا عَلَى نَفْسِهِ ، وَتَمَتَّعَ بِمُلْكِهِ . وَمِنْ ذَلِكَ دَخَلَتْ عَلَيْهِ الدَّوَائِلُ بِاسْتِنَامَتِهِ إِلَى الْوُزَرَاءِ وَوِلَاةِ الْبِلَادِ ، عَلَى حَسَبِ مَا قُصِّصَتْ بِهِ هَذَا .

(١) أصل : « سنين » .

ولولا ما كان غَرَضُنَا وَصَفَ دولتنا خاصَّةً ، لَذَكَّرْنَا لَمَّا من دَوْلِ بَنِي  
 كُحُودٍ فِي مَالِكَةٍ ، وَاخْتِلَالِ أَمْرِهِمْ\* وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ ، حَتَّى تَصِيرَ الْأُمُورُ إِلَى جَدِّنَا ١٨ (ب)  
 — رَحِمَهُ اللَّهُ — ؛ لَكِنْ نَقْتَصِرُ عَلَى ذِكْرِ مَا نَحْتَاجُ إِلَى إِرَادِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .  
 قَهْدَنْتُ الْحَالُ ، وَتَأْتَتِ السَّعَادَاتُ ، وَامْتَلَأَتْ بُيُوتُ الْأَمْوَالِ سِينِينَ<sup>(١)</sup>  
 ٥ لَا يُسْمَعُ فِيهَا بَغِيَّةٌ ، وَلَا يُرَى مَعَهَا تَشْيِيبٌ ، إِلَى أَنْ اخْتَلَّتِ الْأَحْوَالُ  
 بَعْدَ ذَلِكَ بِمَا كَانَ مِنْ نِفَاقِ الْيَهُودِيِّ — لَعْنَهُ اللَّهُ — ، وَتَضْيِيرِ وَادِي آشٍ  
 وَجَمِيعِ أَنْظَارِهَا لِابْنِ صُمَادِحَ ، وَاسْتِنْسَادِ الرُّؤَسَاءِ عَلَى الْبِلَادِ ، حَتَّى إِنَّهُ  
 لَمْ يَبْقَ لَنَا أَكْثَرُ مِنْ غَرْنَاطَةِ وَالْمَنْكَبِ وَبَاغِهِ وَقَبْرَةٍ . وَلَمَّا شَاعَ عِنْدَ  
 الرِّعَايَا خَبَرُ مَوْتِ الرَّيِّسِ الْأَجَلِّ — فَإِنَّهُ كَانَ مُحْتَجِبًا أَبَدًا — خَلَّتِ الْمَعَاقِلُ  
 ١٠ مِنَ الرِّجَالِ ، وَافْتَرَصَتْهَا الرِّعَايَا بِأَسْبَابٍ تَحْنُ نَذْرُهَا<sup>(٢)</sup> إِنْ شَاءَ اللَّهُ بَعْدَ هَذَا .

### ٣٣ — عِلَاقَاتُ بَادِيسِ بَنِي صُمَادِحَ أَصْحَابِ الْمَرِيَّةِ

وَالْأَوَّلَى أَنْ تَقْدِّمَ وَصَفَ وَلايَةِ ابْنِ صُمَادِحَ الْمَرِيَّةِ ، وَعَضَدَ جَدِّنَا —  
 رَحِمَهُ اللَّهُ — لِرِيَاسَتِهِ ، وَإِثْبَاتِهِ لَهُ فِي مُلْكِهِ عِنْدَ قِيَامِ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ عَلَيْهِ ،  
 طَالِبًا لَهُ خِلَافَتِهِ عَلَيْهِ ، وَأَيَادِي كَرِيمَةٍ سَلَفَتْ مِنَ الْمُظْفَرِّ قَبْلَهُ ، لَمْ يَسْبِقْهُ  
 ١٥ إِلَيْهَا أَحَدٌ مِنْ جَنْسِهِ ، وَلَمْ تَكُنْ مَكَافَأَتُهُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا أَنْ افْتَرَصَ بِلَادَهُ  
 وَقَبِلَ دَوَاخِلَ إِلَى الْإِفْرَنْجِ ، يَمْدُمُ بِالْمَالِ الْكَثِيرِ . وَأُجَابَةُ مُجَاهِدٍ لِمَا  
 أَشَارَ بِهِ عَلَيْهِ ؛ وَعَمِلَتْ الْكَلِمَةُ فِي نَفْسِهِ ؛ فَلَمَّا مَرَّ ابْنُ أَبِي عَامِرٍ بِالرَّجُوعِ  
 عَنْ لُرُقَةِ يُرِيدُ الْمَرِيَّةَ ، تَأَخَّرَ عَنْهُ مُجَاهِدٌ ، وَتَبَيَّنَ لِلنَّصُورِ قَعُودُهُ عَنْهُ  
 وَخِذْلَانُهُ إِيَّاهُ ؛ وَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ . فَقَالَ مُجَاهِدٌ مُخَاطِبًا لَهُ وَلِأَعْلَامِ قَوَّادِهِ :

(٢) أصل : « ذَاكِرَهَا » .

(١) أصل : « سِينِينَ » .

« يا قوم ، إن كنتم لا تعرفون البرّير ، ولا جرّبتُم حُرُوبَهُمْ ، فأنا ، والله ، أعلمُ بها أفيناكم أن يكون بوارُكم على أيديهم . وأنتم [ستمعون] أنّ فِخْنةَ عشرين سنة خيرٌ من مُلافاة ساعةٍ واحِدةٍ ؛ فإنّ فيها تلتف الدُّوَل ، ويتقل المُلْك ، ويستأصل الجمع . فليكنم بالتأني ! » قال له ابن أبي عامر : « جَبُنْتَ ! ارجعْ إلى دانيّة ولا تفسد على الجيش ! » فأقلع على القيام مضطرباً من قذفه .

وجزع الناس بنوال مُجاهِدٍ عنهم ؛ وأدرك\* الإفرنج الطمع ، وطلبوا ١٩ (١) منه ما لا قدرة له به . وانصرف خاسئاً .

وجمع المظفرُ رجاله وقال لهم : « كيف ترون هزيمة هذا السّكر من غير قتال ؟ » فأجابوه أن : « قد وُقِّت ! وأنتم ، متشَرّ للوك ، لم تُعْطُوا الولاية على الناس حتى اختاركم الله لها ، وجعل عقولكم أجَلْ وأقْسَ من عقول الناس ؛ وبذلك فضّلتم من دونكم ! » ورجع المظفرُ غالباً منصوراً . وصار أبو الأخوص [ بن صُمّاح ] طاعةً له ؛ لا يروم شيئاً من كلِّ ما بالترية إلّا وصار إليه ، ولا يأمر فيها بأمرٍ إلّا وكان مِلْكٌ يَدِيهِ . وبقي الأمرُ على ذلك سنين . ١٥

وكانت قُرْطُبة في ذلك الزمان بمنزلة المريّة ، إذ كان فيها ابنُ السّقاء ، لا يتمتع على المظفر من رغباته فيها شيء ؛ إلى أن توفّي أبو الأخوص ، وترك ابنه هذا للتوفّي بالمريّة — رحمه الله — عند ظهور الرابطين عليها ، وهو إذ ذاك صغير السنّ . فأرسل إلى المظفر يرغب إليه أن يكون له في المضد والحماية بالمنزلة التي كان عليها لأبيه ، وأنه أحسن طاعة وأشدّ اقياداً ٢٠ من أبيه ؛ وسأله تجديد العهد معه والاجتماع به . فأجابه المظفر إلى كلِّ



ما سأل ، ووعدَه بالقبْ عنه على أتمِّ ما كان عليه لأبيه ، واجتمع به .  
وجدد معه عقدًا . وثبتتْ رياسته ، وقرَّ حاله قراره ، ودأبًا على ذلك  
دَهْرًا طويلاً ، لا يُسمع فيها بفتنة ، ولا يكابد معها تشييبٌ .

- وكان في ذلك [ الوقت ] خدامُ دَوْلَتنا مُتَفَتِّين مع اليهوديُّ ، إذ
- كان وزيرُ السلطان وصاحبُ سرِّه : فَنَهِم صَنِيعَهُ له قد استغنى معه ،  
ومنهم عدوٌّ له ، مُؤازِرٌ في الظاهرِ استدفاعاً لشرِّه . فَاتَّسَقَتِ الأمورُ بذلك ،  
وأعان بعضهم بعضاً على خدمة السلطان ، وأنشؤا إلى يَمَنِّه بهم وعَضِدِ  
بعضهم لبعض . ولما تَهَيَّأت له الأمور ، وتوطَّأت الدولة ، بعد كلِّ ما ذكرنا  
من تلك العِثَنِ<sup>(١)</sup> وغيرها ، وحصل على مدينة مالقة بعد المكابدة واليأس\* ١٩ ( )  
١٠ منها ، حلَّ عن نفسه ، ومال إلى الراحة التي يستريح إليها للوك ،  
وفوض أمرَه إلى الوزيرِ والخَلِمة .

## ٢٤ — وصول النَّايَة إلى غرناطة .

### حظوته ومنافسته لليهوديِّ

- وفي أَمَكَنٍ ما كانت الدولة وأبْهَجِها ، قصده النَّايَة ، عبدُ كان المُعْتَصِدِ
- ١٥ ابن عباد — رحمه الله — ؛ وكان من جُملة من اتَّفَق على غلده مع ابنه  
للشهورِ خَبَرُهُ ؛ فَأَتَى الْقَدَرُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ عَنْهُ مَحِصٌ . واعتنى به جماعةٌ  
من كبار العبيد ، وطلبوا له من السلطان العطايا ؛ فَأَجابهم إلى ذلك تَعَمُّناً  
لسرورهم<sup>(٢)</sup> ، كَتَبَ يَزِيدُوا في خِدْمَتِهِ ونَصِيحَتِهِ ؛ وقالوا له : « قَصْدُكَ هذا  
الإنسان عن مفاستةٍ لَنَيْتِكَ وتمويلٍ عليك ؛ وقد أَمْلَكَ ؛ فما تصنع فيه

(١) أصل : « العِثَنِ » . (٢) أصل : « لسارم » .

إِنَّمَا تُسْلِيهِ إِلَيْنَا . » ودخل غرناطة في أَسْعَدٍ وقت له ، وأَشْغِيهِ عَلَى الدَّوْلَةِ .  
وسار في أَوَّلِ أَمْرِهِ مع الْخِدْمَةِ بِأَجَلِ سِيرَةٍ وتَوَاضَعُ لَهُمْ ، حتى حُدُّوا  
طَرِيقَتَهُ ، ونَقَعُوهُ عِنْدَ السُّلْطَانِ ، إِلَى أَنْ اسْتَعْمَلَهُ فِي بَعْضِ خِدْمَتِهِ وَصَرَّفَهُ فِي  
وَلَايَةِ بَعْضِ عَسْكَرِهِ . وَكَانَ لَطَلَبِيهِ النَّارُ مِنْ بَنِي عَبَّادَ ، قَدْ اكْتَفَى فِي فِتْنَةِ  
مَالِقَةَ وَاسْتَهَالَ أَقْوَامًا مِنَ الْجُنْدِ ؛ وَكَانَ فِيهَا مُتَّصِرًا بَيْنَ يَدَيْ مُقَاتِلِ بْنِ ٥  
يَحْيَى قَائِدِهَا . وَلَمْ يَزَلْ مُقَاتِلُ الْمَذْكُورُ ، مَتَى خَرَجَتْ مُغِيرَةٌ إِلَى بَلَدِ ابْنِ  
عَبَّادَ ، يُعَلِّمُ الْمُظَفَّرَ بِكِفَايَةِ النَّايَةِ الْمَذْكُورِ فِيهَا ، حَتَّى كَادَ يَحْمِلُ لَهُ الْحَصَّ  
كُلَّهُ ، إِلَى أَنْ وَرَدَهُ كِتَابُ السُّلْطَانِ مُشْتَرَكًا بَيْنَهُمَا ، وَصَارَ قَائِدًا مَعَهُ فِي  
الْبَلَدَةِ . وَزَادَ جِدُّهُ ، وَنَمَا خَبَرُهُ ، وَتَضَاعَفَ إِحْسَانُ الْمُظَفَّرِ إِلَيْهِ . وَكَانَ ،  
مَتَى مَا أَتَى مَالِقَةَ ، نَزَلَ السُّلْطَانُ فِي دَارِهِ ، وَشَرِبَ مَعَهُ ، مَعَ تَتَوِيهِهِ بِهِ ١٠  
وَالزَّيْدُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ مَعَ الْأَيَّامِ .

وَكَانَ ، مَعَ تَقَرُّبِ السُّلْطَانِ لَهُ مَتَى انْفَرَدَ بِهِ أَوْ افْتَرَصَهُ عَلَى الْخَمْرِ ،  
يَجْرُحُ عِنْدَهُ الْيَهُودِيَّ ، وَيَقُولُ لَهُ : « قَدْ أَكَلْتُ مَالَكَ ، وَتَمَلَّكَ بِأَعْظَمِ  
مِنْ مَالِكَ ، وَبَنَيْتُ خَيْرًا مِنْ قَصْرِكَ ! فَاقْبَلْهُ اللَّهُ فِي إِزَاحَتِهِ وَالتَّجَبُّبِ إِلَى  
الْمُسْلِمِينَ بِفَقْدِهِ ! » وَالْمُظَفَّرُ فِي هَذَا كُلِّهِ يَمْدُهُ وَيَقُولُ لَهُ : « لَا بُدَّ لِي ١٥  
مِنْ ذَلِكَ ؛ وَأَوْكُلُكَ \* عَلَى قَتْلِهِ ! » قَرُبًا لَفْظِ ذَلِكَ بِمَسْمَعٍ مِنْ لَا يُؤْبَهُ (١) ٢٠  
لَهُ مِنْ صَبِيهِهِ وَالْمُتَّصِرِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ ؛ فَيَنْتَقِلُونَ ذَلِكَ عَلَى الْقَامِ إِلَى الْيَهُودِيِّ  
لِيَصِلَهُمْ عَلَيْهَا . فَلَا تَزْدَادُ نَفْسُ الْخَنْزِيرِ إِلَّا حِمَاقَةً وَمُنَافَرَةً ، وَيَكَادُ أَنْ  
يَمُوتَ هُمَا وَحَقًّا ، مَعَ حَسَدِهِ لَهُ عَلَى الْمَنْزِلَةِ الَّتِي خُصَّ بِهَا دُونَهُ ؛ وَرَامَ  
مَطَالِبَتَهُ عِنْدَ السُّلْطَانِ بِكُلِّ مَرَامٍ ؛ فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ . فَلَمَّا رَأَى أَنَّ مَنْزِلَتَهُ ٢٠  
لَا تَزْدَادُ إِلَّا تَرْفِيحًا ، وَخَافَ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَحْمِلَ السُّلْطَانُ عَلَى هَلَكَتِهِ ،

انقطع رجاؤه من كلِّ وجهٍ وقال : « إِنَّمَا اسْتَهِزَّأُوا بِالنَّاسِ مِنْ أَجْلِ عِزِّ  
السلطان ! وَأَمِنَّا عَلَى أَنْفُسِنَا بِحِمَايَتِهِ وَعِثَابِهِ . وَأَمَّا الْآنَ ، فَقَدْ انْقَطَعَ  
الرجاء : لَا سُلْطَانَ نَأْمُنُهُ <sup>(١)</sup> ، وَفَرِينَ سُوءَ يَطْلُبُنَا عِنْدَهُ ، وَعَامَّةً تَرِيدُ  
هَلَاكَنَا ، وَنَحْنُ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ ! »

### ٢٥ - إجلاء الأمير ماكسن بن باديس

وكان [ اليهوديُّ ] قد أُلْقِيَ يَدَهُ فِي عَمَّا مَّاكْسَنَ ، رَجَاءُ مِنْهُ أَنْ  
يُسَدَّ إِلَيْهِ ؛ فَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَلَيْهِ ، وَلَمْ يَكُنْ حَوَالِيَهُ رَجُلٌ رَشِيدٌ  
يُسَدِّدُهُ وَيَأْمُرُهُ بِالْمُدَارَاةِ ، إِلَى أَنْ قَالَ لَهُ مُوَاجَهَةً : « أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا  
قَتَلْتَ أَخِي ؟ » فَعَمَلَتْ فِي نَفْسِ الْيَهُودِيِّ . وَكَانَ مَّاكْسَنُ مَعَ هَذَا كُفَّةً  
١٠ سَيِّئَةِ الطَّرِيقَةِ ، قَلِيلَ الْبِرِّ ، خَشِنَ الْكَلَامِ ، يَبْغِي النَّاسَ بِالشَّرِّ ، حَتَّى  
كَرِهَهُ أَهْلُ دَوْلَةِ أَبِيهِ وَأَبْغَضُوهُ . وَكَثُرَ عَلَيْهِ الطَّلَبُ عِنْدَ أَبِيهِ .  
وكَانَتْ أُمُّهُ تَتْرَكَ مَعَامَلَةَ الْوَزِيرِ الَّذِي أُلْقِيَ يَدُهُ فِيهِ ، وَتَمِيلُ إِلَى خَالِهِ :  
يَهُودِيٍّ يُعْرَفُ بِأَبِي الرِّيعِ بْنِ الْمَاطُونِيِّ ، وَكَانَ قَابِضَ الْوَجِيهَةِ ؛ فَتَخَاطَبُهُ  
أَبَدًا ، وَتَطْلُبُ مِنْهُ مَالًا بِاسْمِ السَّلَفِ . فَتَارَ الْوَزِيرُ لِنَظَرِهَا ، وَعَمِلَ عَلَى طَلْبِهِ  
١٥ وَطَلْبِ أُمِّهِ وَحَاشِيَتِهِ ، وَافْتَرَى عَلَيْهِمْ عِنْدَ السُّلْطَانِ . وَشَهِدَ لَهُ عَلَى ذَلِكَ  
جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الدَّوْلَةِ ، مِمَّنْ نَقَمُوا عَلَى مَّاكْسَنَ قَبْلَ ذَلِكَ مَا قَدْ مَنَّا  
ذِكْرَهُ . وَأَغْرَى بِهِمْ حَتَّى جَعَلَتْهُ الْأَثَنَةُ مِنْ مَكْرِهِ مَا نُقِلَ إِلَيْهِ أَنْ يَأْمُرَ  
بِقَتْلِ أُمِّهِ وَدَائِيَّتِهِ وَبَعْضِ مَنْ اسْتَمَى . وَقَتَلَ الْوَزِيرُ خَالَهُ غُلْرَاءَ\* فِي مَنْزِلِهِ ٢٠ (د)  
عَلَى الشَّرَابِ خِلَافِهِ عَلَيْهِ فِي هَذَا وَغَيْرِهِ ؛ وَاتَّقَى مِنْهُ نَصِيحَةَ السُّلْطَانِ ،

(١) أصل : « نَأْمِنُوهُ » .

- وأعطاه على ذلك مالا جسيما ، لئلا يثرب عليه قتله . فقبل السلطان ذلك منه ، وودَّ أن لو قتلَ كلَّ يومٍ يهوديًا ، فيُغَرِّمَ عليه مالا .
- ثمَّ أمر بعد ذلك بنفَرٍ ولَّيه . وكان من آكِدِ الأسباب في تَفْيِهِ أن خرج السلطان يوما لمرَضِ الأجناد ، وقتَ الفِتْنَةِ مع ابن صُادِح ؛ فالتدب إليه من شيوخهم من قال له : « ما ينبغي لك أن تُقدِّمَ علينا العبيد وغيرهم ، وتتركَ مثل هذا الابنِ ! أرسله معنا ، وتقبَّعه في كلِّ مُلْكَةٍ ! » يعني ما كُنْ . فمزَّ ذلك على أبيه ، مع سَخَطه عليه لما كان يرى منه وقيل إليه عنه ، وخاف أن يكون وراء هذا الكلام فلَّ بأن يخلوه ويقدموا ابنه . وجزع اليهودى لذلك جزعا شديداً وقال : « ما حسبتُ نفسى في ذلك اليوم إلا مقتولا ! » فأعلمَ السلطان بهذه الوجوه ؛ وأمر على المقام بنفْيِهِ عن البلدِ ، ووجهَ معه من عبيده من يُخرِجه عن نظره كُلِّهِ . ووصَّى اليهودى — لعنه الله — ذلك <sup>(١)</sup> العبد أن يصلَّ معه إلى موضع سمَّاهُ بِمَيْثُ يخفى أمرُهُ ، فيضرب فيه عنقه .
- وكان أخونا المَعِزُّ قد ربَّاه جدُّه ، ونال معه الكرائم ، وأحبُّوه في حرمة أبيه . واتفق رأىُ الجميع مع اليهودى على قتل ما كُنْ وتولية المَعِزِّ ، حذرا على أنفسهم من ما كُنْ أن يثور عليهم ويماقبهم بمَحَبَّتِهِمْ في [ ابن ] أخيه وتربيتهم له . فكان من ذلك ما أملَّوه .
- وخرج سمنا على أسوارِ حال ، مذعورا ، خائفا ، بفضهم يُشير بقتله ، وبفضهم يابى إلا إزاحته عن النظر كُلِّهِ ، حتَّى صار ببعض الطريق .
٢٠. وانحلَّ عن عُموه بهلاك اليهودى ، على ما نذكره بعد هذا .

(١) أصل : « ذلك » .

## الفصل الرابع

إمارة باديس بن حبّوس

(٢) من موت ابن نغالة إلى نهايتها

٢٦ — مؤامرة الوزير اليهودي ابن نغالة

ثورة صنهاجة عليه وقتله

وإنّ الخنزير — لعنه الله — لما رأى طغيان النساء ، وكلّ فرقة منهنّ  
تريد ولاية من تربيته من أبناء السلطان ، ورأى تغير مولا\* عليه وإيمان ١٢١  
الناية في مطالبة والازدياد في جاهه ، لم يجد في الأرض مهزباً ، ولا  
وجد إلى التخلص سبيلاً ، وشاور في ذلك مشيخته من ذوى الرأي ؛ فقال  
بعضهم : « انج بنفسك ، وقدم جُلّ مالك إلى أىّ البلاد أحببت ،  
تستوطنها غنياً أمناً » قال : « ذلك ممكنٌ لولا أن الرئيس الأجل ، إن  
أرسل فيّ إلى صاحب تلك الجهة ، يقول : « ذهب وزيرى بأموالى : إما أن  
تصرفه علىّ ، وإما أن أفاتنك ! » أترى أنه يبيع الرئيس عني ؟ هذا  
١٠ ما لا يجوز إلاّ أن أصير إليه من البلاد بحيث تقع الفتنة بينهما ، ونأمن  
على نفسى عند الذى نصير إليه ولا يمكنه إسلاعى . وأنا قد وضعتُ في

يده بلادًا ومجدًا كبيرًا ! » فأتفق رأيهم على مخاطبة ابن صمادح ، وأنه الأولى لجيرته وقربه من كلٍّ أمرٍ يحتاج إليه فيه .

وأخبرني رسولُ ابن صمادح ابنُ أرقم ، وكان قد تخيَّروه للرسالة <sup>(١)</sup> حينئذ ، قال : حضرتُ يوماً مع المظفر — رحمه الله — وقد خرج إلى بعض متنزّهاته والنايةُ معه ، واليهوديُّ وراءه ، حتى بصر النايةَ بحكيم كان للوزير ، يهوديٌّ ؛ فأمر ياهاته وإرجاله عن دابته بحضرة الرئيس ، وتوقَّح في ذلك ، وأبلغ في شتم اليهوديِّ ؛ فاستعظم اليهوديُّ ذلك وقال لابن أرقم : « حسبك هذه الإهانة ، ولا صبر عليها ! فإن كنتم تستطيعون لي على شيء ، وإلا فلا بدَّ من الترامى على غيركم ! » فقال له ابن أرقم : « أنت جديرٌ بالتثبُّت في هذا الأمر ! وأتى ضرورة دفعتك إلينا ويديك الرعايا ، وإليك تُجبي الأموال ؟ والسلطانُ لم يغيّر عليك شيئاً أكثر من همزات هذا المطالب ! فاحتلَّ بأن تُصايرَ الأمور إلى أن يموت الشيخُ ، لاسيَّما أنه قد أسنَّ ؛ وتلقَى يدك في حفيده المُنزَّ ، وتبقى حالُك معه حسب ما كانت مع جدِّه ؛ وهو أقربُ إلى السلامة ! » فقال له اليهوديُّ : « كنتُ أفعلُ ذلك لولا أن المُنزَّ صغيرُ

السنُّ \* ، وله أمّهات وطبقات جمّة من النساء والحاشية . فكيف نرجو معهم ٢١ (ب)

الفلاح ؟ والحالُ إذ ذاك تكون على أشدَّ لاختلاف أهوائهم . وقد صحَّ عندي أن الصبيَّ يحقد على ما قاله الناس من سقَى أبيه . وقد أدّرتُ هذه الوجوه ؛ فلم يتَّجه لي منها أمثلٌ من الترامى على المُنصِّم ! » قال ابن أرقم : « دخلتُ على المظفر ، وألقيتُ إليه من الكلام رُموزاً ، وقلتُ له : « أيدك الله ! تيقِّظ ! فإنك لم تَطعن في السنُّ ، ولا بلغت فيه مبلغاً يولد عليك النفلة ٢٠

عن دَوْلَتِكَ ! » رجاء مَنِ أَنْ يَسْتَفْهِمَنِي عَنْ الْكَلَامِ وَأَقْصَ عَلَيْهِ بَعْضَهُ .  
 فَعَدَا الْيَهُودِيَّ وَقَالَ لَهُ : « انْهَضْ إِلَى ابْنِ أَرْقَمَ وَقُلْ لَهُ : « لَأَيُّ وَجْهِ  
 قَالَ لِي الْآنَ : تَبْقَظْ ! » وَاسْتَفْهِمَهُ عَنْ ذَلِكَ ! » فَجَاءَنِي الْيَهُودِيَّ وَأَخْبَرَنِي  
 بِالْقِصَّةِ . فَدَهَشْتُ لَهَا وَمِتُّ ، وَلَمْ أَجِدْ جَوَابًا . فَاتَّهَنَى الْخِزِيرُ ، وَخَاطَبَ  
 ٥ بِأَمْرِي الْمُعْتَصِمَ وَأَشَارَ عَلَيْهِ أَنْ يُعْمِدَنِي عَنِ الرِّسَالَةِ وَيُوجِّهَ فِيهَا مِنْ يَتَقَهُ ؛ فَسَفَرُ  
 فِيهَا رَضِيْعَةً وَأَمَرَهُ بِسَجِّ الْأَمْرِ مَعَهُ ، وَكَيْفَ الْحِيلَةُ فِي تَصِيرِ الدَّوْلَةِ إِلَيْهِ ،  
 وَغَرْنَاظَةِ مَعْدَنِ الْجَيْشِ ، وَفِيهَا مِنْ صِنَاهِجَةٍ مِنْ لَا يَجُوزُ هَذَا الْأَمْرُ عَلَيْهِمْ ؟ وَقَالَ  
 لَهُ : « لَا تُدْخِلْ نَفْسَكَ وَالْمُعْتَصِمَ فِيمَا لَا يَتِمُّ وَتَفْتَضِحُ فِيهِ مَعَ الْمَظْفَرِ ،  
 وَهُوَ صَاحِبُ الْأَمْوَالِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى الْفِتْنَةِ ! وَتَخْزَى مَعَهُ ، وَتَكُونُ سَبِيًّا إِلَى  
 ١٠ هَلَاكِ نَفْسِكَ وَالْقَصَادِ عَلَيْهِ ! » فَرَأَى الْخِزِيرُ مِنْ رَأْيِهِ أَنْ يُخْرِجَ مِنَ الْبِلَادِ  
 كُلَّ مَنْ يَتَوَقَّعُ قِيَامَهُ .

وَتَخَيَّرَ مِنْ كِبَارِ صِنَاهِجَةٍ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْعَبِيدِ ، الَّذِينَ يَخْشَى مَعْرِفَتَهُمْ ،  
 أَقْوَامًا ، وَأَشَارَ عَلَى السُّلْطَانِ بِإِرْسَالِهِمْ إِلَى الْمَعَاوِلِ الْأَهْمِيَّةِ ، وَصَلَّكَ لَهُمْ بِهَا ،  
 وَقَالَ لَهُمْ فِي سِرِّ الْأَمْرِ : « أَنْتُمْ إِخْوَتِي ، وَقَدْ أَخْلَيْتُمْ مَعِي ، وَرَأَيْتُمُونِي !  
 ١٥ وَأَرَى مِنْ دَوْلَةِ هَذَا السُّلْطَانِ مَا يَنْبَغِي لَكُمْ لِإِنْكَارِهِ بِأَنْ يَقْدُمَ عَلَيْكُمْ مِنْ  
 لَيْسَ مِنْكُمْ وَلَا شَأْنُهُ شَأْنُكُمْ ، وَتَبْقَى وَلَايَتُهُ عَارًا عَلَيْكُمْ وَشَنَارًا مَا بَقِيَ الدَّهْرُ ؛  
 وَقَدْ\* نَصَحْتُ السُّلْطَانَ فِي أَمْرِهِ ؛ فَلَمْ يَقْبَلْ مَعِيَ ، وَلَا يُقَدَّرُ عَلَى مُضَادَّتِهِ ؛ ٢٢ )  
 وَالْآنَ أَتَوَقَّعُ عَلَى هَذِهِ الْبِلَادِ الشَّرِيفَةِ وَالْمَعَاوِلِ الْفَارِهَا أَنْ يَلِيَهَا مِنْ قَبْلِ النَّايَةِ  
 مَنْ يَشْقَى بِهِ الْجَمِيعُ ، وَلَا تَقْدِرُ مَعَهُمْ عَلَى إِسْكَاتِ الدَّوْلَةِ ، وَتَكُونُ لَهُمُ الصَّوْلَةُ  
 ٢٠ عَلَيْنَا ، ثُمَّ لَا مَهْرَبَ إِلَّا إِلَى يَدَيْهِ ، فَإِذَا أَمْسَكْنَا مَعَاوِلَنَا وَكَانَ بَنُو عَمِّكُمْ  
 بِالْخِزْرَةِ ، يَتَجَسَّرُ عَلَى تَبْدِيدِكُمْ ، وَكَانَ أَمْرُهُ بَعْدَ ذَلِكَ هَيْئًا ، مَتَى أَرَادَ التَّغْيِيرَ ،

قتلناه ، ومتى ما سخط السلطانُ على أحدنا وأمر بتنقيهِ على يديه ، لَجَأُ  
إلى مَعْقِلِ صاحِبِهِ .»

فقبل القومُ قَوْلَهُ ، مع شَرهِهِمْ إلى ولاية البلاد ، وبادروا إلى ذلك .  
فأخرج يحيى بن يِفْران إلى مدينة المُنكَب ، ومُسكَن بن حَبُوس المُنْرَالِيَّ  
إلى جَبَّان ، وَمَنْ سِوَاهُمْ إلى غيرها من القواعد . وزَيَّن للسلطان أن ذلك من  
وجه النظر له ، وأنه لا يحى القواعد إِلَّا كبار الرجال ، وأن للمزولين قد  
صَحَّ عنده غفلتهم وتضييعهم ، إذ كان لا يسمع من أحد إلا قوله في هذه  
المشابهة ، لِثِقَتِهِ بِهِ .

وكتب [ اليهوديُّ ] إلى ابن صُمَادِح يُخبره بخروج القومِ الفَوْغَاء من  
المدينة ، وأنه لم يَبْقَ فيها إلا من لا يُوبَهُ له ، ويحصدُم سَيِّفُهُ إذا دَخَلَهَا ،  
وأنه مَهَيَّيٌّ لِفَتْحِ أبوابها متى جسر وطرقها ؛ وضيَعَ النَّظَرَ في سائر  
الحصون غير القواعد ، وأَهْمَلَ ما يَرْتَقِبُونَ به من الرجال والعُدَد على وجه  
الفغلة ، حتى خَلَّتْ .

والمُظَفَّر ، في هذا كُلِّهِ ، لا خَبَرَ عنده إِلَّا الإقبال على الشرب والدَّعة .  
فلما خَلَّتِ المعاقِل ، وصَحَّ عند أهلها ، بإِعمالهم واحتجابِ السلطان عنهم ،  
أنه قد مات لا حَالَةَ ، تصايَحَتْ بعضُها لبعض ، وخَلَّتْ بأقطارها ؛  
وافْتَرَصَهَا رجالُ ابن صُمَادِح ، وصاروا فيها حتى لم يَبْقَ منها إِلَّا حِصْن  
قَبْرِيَّة ، على مقربة من غرناطة في طريق وادي آش .

وأرسل اليهوديُّ على المقام لابن صُمَادِح ، يلحُّ\* عليه في الإقبال إلى ٢٢(ب)

٢٠ المدينة ، وأن لا مانِعَ يمنعه . فالتوى عن ذلك ابن صُمَادِح ، وجزع من  
الجسر على مثل غرناطة ، إلى أن اتَّسَعَ اتَّخَرَقُ وتَمَادَى التفاق ؛ وصار



اليهودي مُنْقَلَبًا من داره إلى القَصْبَةِ حِذْرًا من العامة ، حتى يَتَمَّ ما أُمِّلَ ؛  
فأنكر ذلك الناسُ ، مع بُنْيَانِهِ لِحِصْنِ الخُمراءِ على أَنَّهُ ، إذا دخل ابن  
صُمَادِحِ البَلَدِ ، صار هو بأَهْلِهِ إليها ، إلى أن تتوطَّدَ الحالُ . فأنتفت العامة  
والخاصَّةُ لمكر اليهود وما اشتهروا به من تغيير الأحوال ، ورأوا من الرُتَبِ  
٥ خلافَ ما عهدوه .

وللَّذِي أَرَادَهُ اللهُ مِنْ هَلَاكِهِمْ فِي يَوْمِ السَّبْتِ لَعِشْرَ خَلَوْنٍ مِنْ صَفَرٍ  
[ من سنة ٤٥٩ ] ، استعمل اليهوديُّ الشَّرَابَ تلكَ اللَّيْلَةَ مع أَقْوَامٍ مِنْ  
عَبِيدِ الْمُظَفَّرِ ، كَانُوا قَدْ عَاقَدُوهُ وَاتَّفَقُوا مَعَهُ ، وَبَعْضُهُمْ فِي السَّرِّ يَشْنَأُهُ ؛  
فَأَعْلَمَهُمْ بِأَمْرِ ابْنِ صُمَادِحِ ، وَأَنَّهُ وَارِدٌ عَلَيْهِمْ وَمَسْوَغٌ لَهُمْ مِنَ الْقُرَى فَلَانَةَ  
١٠ وَفَلَانَةَ مِنْ فَخْصِ غِرْنَاطَةِ ؛ فَاتَّجَبَ إِلَيْهِ أَحَدُهُمْ مِمَّنْ كَانَ يَكْمُنُ بِغَضِهِ ،  
وَقَالَ لَهُ : « قَدْ عَلِمْنَا هَذَا ! فَأَخْبِرْنَا عَنْ تَسْوِيكَ هَذِهِ الْإِنِّزَالَاتِ ،  
أَهْوَى مَوْلَانَا حَتَّى أَوْ مَيِّتٌ ؟ » فَرَدَّ عَلَيْهِ بَعْضُ حَاشِيَةِ الْيَهُودِيِّ ، وَوَجَّهَهُ عَلَى  
قَوْلِهِ ؛ فَأَنْفَ ذَلِكَ الْعَبْدُ وَخَرَجَ فَارًّا عَلَى وَجْهِهِ [وَهُوَ] سَكْرَانٌ ، يَصِيحُ بِالنَّاسِ  
وَيَقُولُ : « يَا مَعْشَرَ مَنْ سَمِعَ بِالْمُظَفَّرِ قَدْ غَدَرَهُ الْيَهُودِيُّ ! وَهَذَا ابْنُ صُمَادِحِ  
١٥ دَاخِلٌ فِي الْبَلَدَةِ ! » فَسَمِعَ لَذَلِكَ النَّاسُ أَجْمَعَ خَاصَّتُهُمْ وَعَامَّتُهُمْ ، وَأَتَوْا  
عَازِمِينَ عَلَى قَتْلِ الْيَهُودِيِّ . فَتَحِيلَ عَلَى الْمُظَفَّرِ حَتَّى أَخْرَجَهُ إِلَيْهِمْ ، وَقَالَ :  
« هَذَا سُلْطَانُكُمْ حَتَّى ! » وَرَامَ الرَّئِيسُ تَسْكِينَهُمْ ؛ فَلَمْ يَقْدِرْ ؛ وَاتَّسَعَ انْتِرَاقُ  
عَلَى الرَّاقِعِ . وَهَرَبَ الْيَهُودِيُّ بِنَفْسِهِ إِلَى دَاخِلِ الْقَصْرِ ، وَاتَّبَعَتْهُ الْعَامَّةُ حَتَّى  
ظَفَرُوا بِهِ وَقَتَلُوهُ . وَأَحَالُوا السِّيفَ عَلَى كُلِّ يَهُودِيٍّ بِالْبَلَدَةِ ، وَحَصَلُوا عَلَى  
٢٠ عِظَامِهِمْ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ .

وَاسْتَأْذِنَتْ إِذْ ذَلِكَ صِنْتَاجَةٌ ، وَطَفَرُوا بِمَا صَنَعُوهُ عَلَى الرَّئِيسِ ، مَعَ الْفِتْنَةِ

المُظَفَّرُ\* عليه من كل قطر . وكانوا هم الوزراء ومُدَبِّرِي<sup>(١)</sup> الدولة ؛ ٢٣ (١)  
والمُظَفَّرُ من هذا كله تحت خوفٍ وذلٍّ ، قد حقد عليهم ما صنعوه  
بوزيره ، من غير أن يَعْلَمَ بشيء من دواخله ، ولا صدق قولهم عليه ،  
وسائر أمره معهم بالمدارة والصبر ، إلى أن تفتحت له البلاد ، ورجعت  
طاعته إليه بما نَحْنُ نذكره<sup>(٢)</sup> بعد هذا إن شاء الله .

ولما مضى مُسْكِنٌ إلى جَيَّان ، على ما قدّمنا ذِكْرَهُ ، أَلْقَى في طريقه  
عَمْنًا ما كُنْ ، يحمله الصَّقْلِيُّ ؛ فاستنقذه ، ومشى به إلى جَيَّان ، وقال :  
« لا فائدة أكبر من هذا : ابن الرئيس يكون معي حُجَّةً على ما أريدُه  
من مُلْكٍ جَيَّانٍ أو غيرها ؟ وسينقاد إليه الناس ، ونحصل على عظامهم ! »  
١٠ كاللّى كان . فَوَلَّى جَيَّانَ بِاسْمِهِ ، وصار حاكمها مع بنى عمّه . وحصل  
إذ ذاك من أموال اليهود فيها على ما لا يتحصّل . وبقي نثارًا على أفضل حال .

## ٢٧ — الحركة الموقفة التي قام بها باديس لانتزاع وادي آش

من أيدي ابن صُمَادِح

وإنَّ المُظَفَّرَ ، لما رأى ما نزل به من كَلْبِ العدوِّ وطَمَعِ الناس فيه ،  
وما حلَّ به من كلِّ وَجْهٍ ، جمع الناس وقال لهم : « ما تَرَوْنَ في أمرِ  
١٥ وادي آش ، وتصيرها إلى ابن صُمَادِح ، واستحواذِهِ على أنظارنا ؟ »  
فأجابه قوّاده وجملةُ رجاله أن : « لا دواء لهذا ، إلّا أن تبذل الأموال ،  
وتترك الدّعة ، وتبشير الأمر بنفسك ! » فقال لهم : « مثلى ومثلُ ابن  
صُمَادِح كمثلِ القُبعة التي كان يلزأها عشُّ إوزة ؛ فأعجبها بيضها ، فقالت :

(١) أصل : « مدبرين » . (٢) أصل : « ذاكره » .

« لأحضنّ هذا البيض ، يكون خيراً من متاعى ا » فلما رامت ذلك ،  
 هَجَزَتْ وقصُرَتْ جَنَاحَاهَا عن التحضين ؛ فلما رجعت إلى متاعها ، وَجَدَتْهَا  
 قد فَسَدَتْ . وكذلك ابن صَادِح : تَمَدَّى على بلدى ، وسيخرج عنه  
 وعن كثير مما كان قديماً بيده ا « قَوِيَتْ قُوسُ الناس ، وادَّرَعَ الحَزْمُ  
 ٥ والعَزْمُ ؛ وتَأَهَّبَ للمسير ، واجتمعت إليه الأجناد ، [ وفرَّق ] فيهم العطايا .  
 ونازَلَ وادى آش حتى حاصَرَهَا .

وكان في أوّل الفتنه ، للذى\* رأى من قيام رعيته وخشى خلاف ٢٣ (ر)  
 الجميع ، قد وَجَّهَ لابن ذى النون ، صَاحِبَ طَلَيْطَلَّةَ ، يملئه بما دهمه من  
 الأمر ، ويسأله صِلَّةَ يده به ، وأَنَّهُ ما انصرف إليه من البلاد أعطاهُ  
 ١٠ منها ما أَحَبَّ واختار ؛ فسارَعَ ابن ذى النون إلى ذلك ، ولحق به ،  
 وهو على وادى آش قد حاصَرَهَا وَقَرَّبَ مَرَامُهَا ؛ واجتمع معه إلى أَجَلٍ  
 هيئة وأنتم رتبة . وفي قَصَبَةِ وادى آش ذلك الوقت وزراء صاحبِ التَّريَّةِ  
 وأكابرُ رجاله . فاشتدَّ عليها الحربُ ، وكَثُرَ الإِفْلاقُ ، حتى إنَّه انتهت  
 النفقة عليها ، على ما رأيته مكتوباً بخطِّ يد جدِّى — رحمه الله — سِتَّةَ  
 ١٥ بيوت من اللال دَرَاهِمَ ثُلُثِيَّةَ ، البيتُ منها ألفُ ألفِ دينارٍ ثُلُثِيَّةَ .  
 وصار ذلك مَثَلًا فى الناس لصبره وكثرة إيفاقه .

فلما رأى مَنْ بالقَصَبَةِ من أكابر أهل التَّريَّةِ ما دهمهم ، وأَنَّهُ لا مَلْجَأَ  
 لهم إلَّا الحرب أو السَّيف ، ولم يجدوا إلى ذلك سبيلاً ، تَحَيَّلُوا وأرسلوا إلى  
 ابن ذى النون ، وهَمُّوا على الملكة ، يملونه بما هم فيه وقطع رجائهم عن إمداد  
 ٢٠ صاحبهم ، ويسألونه أن يتوسَّطَ أمرهم مع المُظَفَّر ، ويأخذ لهم القُفُورَ ،  
 ويخرجون على سلامة ؛ ووعدوه على ذلك ، إن هو استغذم ، أن يُصَيِّرُوا

العرية مُلكه . وكان ابن ذى النون من الطمع في غاية لم يفتد إليها ملك ؛ فطمع في قولم ذلك ، وتراعى على جدنا ، ورغب إليه ؛ فأسعفه ، حتى خرجوا وأخلوا له القصة . وثقفها بحجة رجاله .

واستنجز ابن ذى النون وعده ، وقال : « إن الذى أريد من هذه البلاد بسطة . » فلم يكن بُدَّ للمظفر من إنجاز وعده ، وأمر بإخلاصها له . وتفتحت للحاجب بلاد كثيرة أربت على التى انصرفت إليه .

وأرسل إليه ابن صُدارح بعد ذلك ، يسأله القوم والإغضاء على ما كان منه ، وأنه لا يتعرض من ذلك شيء لولا اليهودى ، وخوفاً ، إن \* أهل (٢٤) (١) البلد ، أن يتعدى عليه من يخشى داخلته . وتراعى على جدنا وأتامه بنفسه ليجتمع معه على ذلك ، ويمجد عقداً . ففعل وقبل اعتذاره . ويحكى أنه ، عند اجتماعه به ، كان أول ما خاطبه به : ﴿ يا أبانا ! استغفر لنا ذُنُوبَنَا ! إنا كُنَّا حَاطِثِينَ ﴾ (١) فأجابه المظفر على البديه : ﴿ لَا تَتْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ! يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ (٢) .

## ٢٨ - الحركة الموقفة التى قام بها باديس لانتزاع مالقة

من يد ابن عبّاد

١٥

ولما صار إلى المظفر جميعُ بلاده ، وتوطدت له الدولة ، وكان قبل أخذِهِ لوادى آش قد أخذَ مالقة ، وقدمها قبل شتله كله ؛ وكان قائدُ عسكره إليها تلك السفرة يحيى بن يفران ؛ وكان الرجلُ من أكابر تلكاتة

(١) سورة يوسف : ٩٧ .

(٢) سورة يوسف : ٩٢ .

وكان مُطاعاً في قومه ، قد شقى جدُّنا به طول مُدَّة الفتنة . ولما استأَسَدَ صِنْهاجَة ، على ما قدَّمنا ذكره بعد قتل اليهوديِّ ، ترأَّسَ فيهم يحيى المذكور ، ونال من الرئيس كثيراً في ماله وعرضه ؛ ففقد ذلك عليه ؛ وكان عازماً على آتِه ، إذا انصرف من فتح مالقة ، أن ينظر في خلمه ، ويشور عليه مع بني عمِّه . وكان الخبر قد طرأ إلى جدِّنا . قضى الله تعالى أن مات يحيى المذكور في تلك السفرة مقتولاً في الواقعة . قال عند ذلك المظفرُّ : « أتتُّنا في يوم واحد فرحتان : أولهما موتُ يحيى ، والأخرى فَتَحُ مالقة ! » ثمَّ نهض على اللقَام إلى وادي آس ؛ فعمل عليها ما وصَّفه . وكان ابن عباد قد دخل مدينة مالقة المذكورة قبل هذا الفتح ، وامتنعت له القَصبة لِمَا كان فيها من كفاة المتَّارِبَةِ ، وقائدها ذلك الوقت مَخْلُوفُ ابن مَلُول ، شيخٌ كبيرٌ من ثِقَاتِه ؛ وانتظروا قوَّةَ الرئيس صبراً منهم ، وكثرةَ بَقِيَّا ، وأتفةً من كشفٍ لحرمة الذين كانوا بالقَصبة المذكورة ، إلى أن ورد العسكرُ . وخرج إلى مُلَاقَتِهِم من فيها من عسكر ابن عباد ؛ فَمَنَحُوا عليهم الظفر ، ودخلوها غنوةً .

- ١٥ وكان حصول ابن عباد عليها لِدَاخِلَةِ\* أهلها ومَنِيْلِهِم إليه ، اختياراً له (٢٤) بـ علينا ، على إحسان المظفرِّ — رحمه الله — إليهم ، وأنه وجدَّهم على أسوأ حالٍ ؛ فأصلح من أحوالهم كثيراً ، وحل قضاهاها ومقرَّيها على المطايا ، وأنزلهم على أفضل التراتب ، ما كان مشهوراً عنه في الأقطار ، إذ كانوا قَبْلُ في حال قِلَّةٍ وعلى غير رتبة . ثمَّ كافأوه بما فعلوا . وسد ظفره بهم ، عفا عن ذلك كُلِّه ، وزاد في مَرَاتِبِهِم . ولقد اختطَّبَ لابن عباد مُدَّةً كونه فيها ؛ وحكى أَنَّهُ قيل في الخطبة : « اليومَ أَكْمَلْتُ
- ٢٠

لَكُمْ دِينَكُمْ، وَأَنْتُمْ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۖ  
فَلَمْ تَعْطِ السِّيَاسَةَ مُعَاقِبَةً أَحَدٍ مِنْهُمْ، إِذْ كَانُوا فِيهِ سَوَاءً، وَلَا يَصْطَحُّ إِسْكَ  
بِلَدٍ إِلَّا بِأَهْلِهَا .

قَرَّرَ مُلْكُ جَدِّنا قَرَارَهُ ، وَجَبَرَ الْأَمْوَالَ ، وَزَادَتْ الْجَبَايَاتُ .

## ٢٩ - الكشف عن أمر فنيانة وفتنتها

ولما انصرف من فنيانة<sup>(١)</sup>، غزوته تلك الوادي أشيية<sup>(٢)</sup>، دعا بقائديه [ الناية  
وعبد الله بن القروى\* ]، وكانا على المسكر مدة فتنة وادي آش ؛ وامتنح  
على أموالهم أين أنفقت : أكانت في واجب أم زيفت ، لِمَا استعظم من  
النفقة ؛ وجمع القائدين والكتبة ، وكشف على ذلك غاية الكشف .  
وكان الناية من أهل التجربة والفكرة في العاقبة ، قد عمل هذا الحساب ،  
وأخرج منه نفسه : فمضى وردت أموال من غرناطة للعتقاء ، يتحرى عنها ،  
ولا يقبض منها شيئاً ، ويقول للذي يأتي بها : « احملها إلى خياه الشيخ  
عبد الله بن القروى\* ؛ فهو أعلم بما يصنع ، وهو أسن وأدرب » ۖ فاحتجج  
الناية بهذا الفعل عند المظفر ، وأتى على ذلك بالبزهان ، وتبرأ منها .

- ١٥ وغضب الحاجب على عبد الله ساعثه ، وأمر بنفيه .  
وكان أكثر الجند يشنأ الناية على ما وصفناه ، ويؤثر عبد الله لتر بيته<sup>(٣)</sup>  
مهم ؛ فشق ذلك عليهم ، وأدركهم من الأثرة أن خرجوا كلهم حرمة  
في عبد الله ، وأخلوا\* عليه للحلة . وزال عنهم أكابر صنهاجة أجمع ؛ ٢٥ (١)

(١) أصل : « فنيانه » ، وهو تصحيف .

(٢) أصل : « الوادشية » .

(٣) أصل : « لترتيبه » .

فلم يصبح الحاجب فِتْيَانَةً منهم معه أَحَدٌ ؛ وَرَجَوْا أَنْ يَكُونَ يَرْغَبُ إِلَيْهِمْ ، وَيَفْرَعُونَهُ بِتِلْكَ الْفَعْلَةِ . فَأَتَى إِلَيْهِ النَّائِيَةُ بِرَعْدٍ قَرَقًا ، وَأَخْبَرَهُ بِالْقِصَّةِ . قَالَ الْمُظَفَّرُ فِي نَفْسِهِ : « لَا خَيْرَ لِي فِي رَدِّ هَؤُلَاءِ ! فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَزِيدُهُمْ طَغْيَانًا ، وَتَجَرُّهُمْ الْعَادَةَ ، مَتَى أَحْبَبُوا الْخِلَافَ ، عَلَى أَنْ يَمْتَثِلُوا هَذِهِ الطَّرِيقَةَ . وَلَا حَاجَةَ بِي إِلَى إِسْكَانِهِمْ ، وَفِي مُضِيِّهِمْ الْغَنِيمَةُ وَالرَّاحَةُ ! » فَسَكَتَ عَنْهُمْ وَتَرَكَهُمْ عَلَى أَهْوَائِهِمْ ؛ فَصَارُوا قَرَقًا وَأَشْتَاتًا ، مِنْهُمْ مَنْ مَضَى إِلَى جَبَّانٍ يَرِيدُ مُسْكِنًا ابْنَ عَمِّهِمْ ، وَمِنْهُمْ مَنْ انْقَطَعَ إِلَى شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ رَجَعَ إِلَى غَرْنَاطَةَ عَلَى خِفَاءٍ ، يُرَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الْجَلَّةِ .

وَأَقْلَعَ الْمُظَفَّرُ عَنْ فِتْيَانَةٍ وَأَتَى غَرْنَاطَةَ ، لَمْ يَنْقُصْهُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ،

١٠ وَلَا عَدَمُ جُنْدًا . وَاسْتَوَزَرَ النَّائِيَةَ ، وَبَقِيَ عَلَى الدَّعَةِ وَالتَّمَكُّنِ دَهْرًا طَوِيلًا .

### ٣٠ — اسْتِيلَاءُ بَادِيسَ عَلَى مَدِينَةِ جَبَّانٍ

وَلَمَّا تِمَكَّنَ مَا كُنَّ مِنْ جَبَّانٍ ، وَثَارَ مَعَهُ مُسْكِنٌ مَعَ بَنِي عَمِّهِ ، أَقْلَعَ ذَلِكَ جَدًّا ؛ وَخَافَ النَّائِيَةُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْهُمْ ، وَجَزَعَ مِنْ أَنْ يَتَّفِقَ مَنْ هُنَاكَ مِنْ بَنِي عَمِّهِمْ وَسَائِرِ الْبَرَبَرِ الَّذِينَ بِغَرْنَاطَةَ ، وَيَقْتُلُوهُ ، وَيَسْعُوا فِي وِلَايَةِ مَا كُنَّ . وَلَمْ يَرِ الْمُظَفَّرُ — رَحِمَهُ اللَّهُ — لِمَفَاتِنَتِهِ وَجْهًا ، وَإِنْ مُسَايَرَتَهُ وَمُدَارَاتِهِ أَوْلَى ، وَإِنْ فِي فِتْنَتِهِ مِنَ الْعَارِ وَسُوءِ الْقَالَةِ أَنْ يُقَالَ : « رَجَعَ الْمُظَفَّرُ يُكَابِدُ فِتْنَةَ ابْنِهِ ، وَإِنْ أَحْيَاهُ أُنْمِرَ عِزُّهُ ! » فَتَرَكَّهُ عَلَى حَالِهِ ، وَرَأَى أَنَّ السَّمْعَ عَلَيْهِ بِالْمُدَاخَلَةِ أَوْلَى . وَالنَّائِيَةُ ، فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، يَجِدُّ وَيَجْتَهِدُ ، خَوْفًا عَلَى نَفْسِهِ ، وَيَبْذُلُ الْأَمْوَالَ لِلْمَغَارِبَةِ ، وَيُرْسِلُ مِنْهُمْ إِلَى قَصَبَةِ جَبَّانٍ مُتَخَيِّسِينَ مَنْ يُدَاخِلُهُمْ .

٢٠

وكان مُسَكِّنٌ قد أَخْلَعَ عَمَّا مَأْكُتَن ، واستبدَّ بالرأى ، وجع الأموال  
 دونه ؛ وصار له مَأْكُتَنُ بِمَنْزِلَةِ\* البازي الذي يُصَيِّدُ به ، ومَأْكُتَنُ لا يقدر ٢٥ (ب)  
 على أكثر من الصبر ، إذ لا فِتْنَةَ غيرهم ، وقنع بتلك الحال لاستنقاذه له  
 من الموت ، ورأى إقرارَ روحه في جسده غيبةً ، فَضْلًا عن طلب ما سوى  
 ذلك . فلم يَزَلْ أبدًا يُدْخِلُ عليه بالأموال ، حتَّى استمال جميعَ مَعَارِبِهِ ٥  
 القَصَبَةِ . وكان ، مُدَّةَ كونه بجيَّان ، يُخاطِبُهُ أقوامٌ من صِنْهَاجَةٍ في حُبِّه ،  
 ويقولون بذلك في المحافل والمجالس سرًّا وجهرًا ، ويروون ولايته خيرًا من  
 تولية العبيد عليهم واليهود ومن أشبههم ؛ قد سئموا من ذلك ، وأُثِرُوا  
 المُظْفَرُ من الشَّنَّانِ والبغضاء ما لو استطاعوا ، لَخَلَعُوهُ . لكنَّ السَّعَادَةَ والمُدَّةَ  
 لم يقطع عليها قاطِعٌ ! والرئيس من هذا كُلِّهِ تحت أمرٍ عظيم ، والناية ١٠  
 متوقِّعٌ للقتل مساءً وصباحًا ، تكثرُ عليه الأراحيف مع الساعات ، إلى أن  
 نجت تلك المداخلة : فقام التَّغَارِبَةُ بالقَصَبَةِ على مَأْكُتَن ، وخرج منها  
 فارًّا بنفسه ، هو وجميع من معه ؛ وهرب مُسَكِّنٌ ، لا يلوى على شيء ،  
 يطلبون النجاة بمحاشاة أنفسهم ؛ ووقع فيهم البهتُ ، إذ لم يدروا من حيث  
 أتوا لما سمعوا النداء بالليل : « لا طاعةَ إِلَّا لِلْمُظْفَرِ ! » وعجَّلَ الحاجبُ ١٥  
 بثقاف جيَّان ، واستراح من تلك الفِتْنَةِ .

ولقد حُكِيَ عن المُظْفَرِ — رحمه الله — أنه لما تَهَيَّأتْ له هذه  
 السَّعَادَةُ ، رأى النايةَ مهمومًا . فسأله<sup>(١)</sup> في ذلك ؛ فقال : « اهتَمَمْتُ  
 لخلاص هذه الشرذمة بأرواحهم . ولنا نأمن شرَّهم في البلاد ! » ومن  
 ٢٠ ثَوْرٍ حَتَّى لَا يُثَلِّبَ هَرَاكَيْسُ ! » واسمُ وَلَدِكَ كَبِيرٌ ! » فأجابه المُظْفَرُ أن

(١) أصل : « فقال له في ذلك » .



قال : « القى حلّ بهم أشدّ من القتل ، لخلاّتهم <sup>(١)</sup> عن أوطانهم وكشفهم في انشغالهم بأهاليهم إلى من يتولّى خِدْمَتَهُمْ وَيُرَكِّبُهُمْ وَيُنْزِلُهُمْ . وللوت دونَ هذا راحة ! »

فقصد ما كُنْ إلى طَلَيْطَلَة ، وصار بها عند ابن ذى النون \* مُكْرَمًا ،  
 ٥ على حال الجُنْدِيَّة . وتَلَبَّ مُسْكَنٌ في البلاد ، يخدم الجُنْدِيَّة . وصاروا أبايد .

### ٣١ — استيلاء الناية على يَاسَمَة

/ وزاد جاءُ الناية بفرناطة ، وأخْلَ صِنْهاجَة ، وأظهر لهم البغض لنفاقهم  
 كان بزعمه على اليهودي وعلى الحاجب في ابنه ؛ واستخصّ بني يرزال  
 وأحسن إليهم ، وقرّبهم من نفسه ، وهُم كانوا أولياءه <sup>(٢)</sup> وأنصاره ، وبثّ  
 ١٠ فيهم الطايا . وأخذ السلطانُ إلى الراحة .

ثمّ إنّه ، لما فُوضَ له الأمر ، رأى أن يجعل نفسه ذِكْرًا وثناءً يؤثر  
 عنه ، في غزو البلاد ومداخلة بعضها . فالتدب إلى مدينة يَاسَمَة ،  
 وقال للمظفرّ : « إنّ مُدَاخَلَة بعض أهلها عندي ا » وكانت إذ ذاك لولّد  
 مجاهد . فقال له الحاجب : « لا تترعّض إليها ، ونحن في دَعَة ! وكأني  
 ١٥ والله أرى تنفق عليها الأموال ، وتُهْلِك الرجال ، ولا تُحصِّل على فائد ا »  
 فألحّ عليه وزيرُ له الأمر ، حتى أجابه إلى ما سأل ، وأمره بالسَّير ، وهباً  
 معه الجيش ، وأعطاه الأموال . فرآهم من يَاسَمَة أمراً عظيماً : كلُّ ذلك  
 يتعذّر من أمرها ما لا يُرجى به أخذها ، حتى سُمّ السلطان النفقة ومنع  
 منه اللال .

(٢) أصل : « لولياؤه » .

(١) أصل : « خلاّهم » .

وكان في المجلس ممن يطالبه بذلك رجلٌ كاتبٌ للمظفر يُعرف بابن أضْحَى ، ويقول للحاجب : « لم تَقِمْ بِيَّاسَة وَعَشْرَة أَمْثَالُهَا بِيَعُضْ هَذِهِ النِّفَقَاتِ الَّتِي كُنْتَ عَنْهَا فِي غِيٍّ ! » وكلُّ ذلك يَتَّصِلُ بِالنَّايَةِ ؛ فَيُخْرِجُ الْمَغَايِرَ ، وَيَنْفِقُ الْأَنْغَامَ ، وَيُوجِّهُ بِهَا إِلَى مَوْلَاهُ لِيَجْبُرَ مِنْهَا بَعْضَ نَفَقَاتِهِ ؛ فَكَانَ ابْنُ أَضْحَى يَبِيعُهَا بِبَيْخَسٍ مِنَ الثَّمَنِ ، وَيُحْضِرُ لِلْمَالِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَيَقُولُ لَهُ : « أَيْنَ هَذَا بِمَا أَفْقَتَ ؟ » فَيُخْرِجُ أَخْلَاقَ الْمُظْفَرِّ عَلَيْهِ ؛ فَيَصْبِرُ عَلَيْهَا النَّايَةِ ؛ وَاسْتَسْلَفَ طَعَامًا كَثِيرًا مِنْ شَيْوَخِ جَيَّانَ . وَكَانَ بَانِيًا عَلَى أَنَّهُ ، إِنْ لَمْ يَقْدِرْ فِيهَا عَلَى شَيْءٍ ، أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ طَرِيقَهُ فَارًّا ، لَا يَنْصَرِفُ إِلَى غِرْنَاطَةِ ، إِلَى أَنْ اسْتَفْتَحَهَا بِكَثْرَةِ الْمَوَاطِبَةِ وَالْمُلَازِمَةِ ، وَكَانَتْ عَلَيْهِ الصَّوْلَةُ عَلَى مُطَالِبِيهِ بِذَلِكَ . وَدَخَلَ \* الْمَدِينَةَ فِي عِزَّةٍ وَرَفْعَةٍ وَإِكْرَامٍ مِنَ السُّلْطَانِ جَسِيمٍ ، مُهْدَّدًا ٢٦ (ب) لِمَنْ طَالَبَهُ ، وَمُسْتَطِيلًا بِذَلِكَ مُعَلِّنًا .

وَقَدِمَ إِلَى الْمُظْفَرِّ يَقُولُ لَهُ : « لَا أَدْخُلُ الْبَلَدَ حَتَّى تَأْمُرَ بَنِيَّ ابْنَ أَضْحَى أَوْ أَنْصَرِفَ مِنْ مَكَانِي هَذَا ! » فَرَأَى الْحَاجِبُ أَنَّ نَفْسَ ابْنِ أَضْحَى أَوَّلَى مِنْ فُسَادِ عَسْكَرِهِ . فَأَمَرَ بَنَفِيَهُ ، بَعْدَ تَغْرِيمِهِ وَإِهَانَتِهِ . وَخَرَجَ مِنْ ذَلِكَ الْوَقْتُ سَاعِيًا عَلَى الدَّوْلَةِ وَمُطَالِبًا لَهَا إِلَى زَمَانٍ وَلاِئِنَّا ، حَتَّى أَظْفَرْنَا اللَّهَ بِهِ ، عَلَى مَا يَأْتِي ذِكْرُهُ بَعْدَ هَذَا .

### ٣٢ — مَوَازِمَةُ ضِدَّ النَّايَةِ وَمَقْتَلُهُ

وَإِنَّ وُزَرَاءَ الدَّوْلَةِ وَكَثْرَةَ عِيِيدِهَا ، لَمَّا بَصُرُوا بِمَا فَعَلَ النَّايَةُ ، وَالزِّيَادَةَ فِي أَمْرِهِ وَجَاهِهِ ، وَأَنَّهُ هُوَ الْحَاكِمُ دُونَ السُّلْطَانِ ، حَتَّى قَالُوا إِنَّهُ طَامِعٌ بِالرِّيَاسَةِ وَالْقِيَامِ مَعَ بَنِي بَرْزَالٍ ، وَشَنَعَ ذَلِكَ عَلَيْهِ ، أَدْرَكَتْهُمْ مِنْهُ أَتَقَةُ ٢٠

عظيمة وحسد شنيع . فاتفق رأيهم أجمع ، أخفى ولاية البلاد : منهم ولد القاضى ، صاحب باغ ابن يعيش ، صاحب قبرة ، وواصل ، صاحب وادى آش ، والقاضى ابن الحسن النباهى بمالقه ، أنه متى قدم إحدى هذه الجهات ، قُتِلَ فيها ، وأُرْسِلَ فى ما كُنْ — وقُدِّم — أراد والله أم لم يُرِدْ .

ثم إن النفر المذكور عملوا رأيهم ، وفكروا فى العاقبة ، ورأوا أن يقتله واصل العليج بوادى آش ؛ [فيكون ذلك] أستر لقتله وأبعد للظن بهم : فإن عاقب عاقب غلامه وتبرأوا من ذلك . فوعد واصل المذكور على ذلك بالوزارة مكانه ، وضمنوا له توظيفهم للأمر عند السلطان ، حتى تهياً ذلك فى دماغ العليج ، واستعد لقتله ، إلى أن حدث بوادى آش أمر لم يكن مبدئاً للسلطان أن يرسل وزيره فيه ، من تحصيل أموال والكشف على أحوال . فنهض فى آنس وقت وأشر قدر . وكان واصل هذا المذكور من أكبر صنائع الناية ، وبمن أطباء بإحسانه ، وشرفه عند السلطان ، ورفضه من الخفيض . فقتل الأمر عند الناس قبل ذلك أن واصل عازم على قتل الناية .

وحكى لى إنسان من البربر ، قال : « نصحتك بذلك وحذرتك أن لا ينهض إليه ، وأن مثله لا ينزل فى داره ؛ فكان من جوابه : « تريدون أن تنزعوا الربيب من أنفسكم وتردوها على أصدق الناس إلى » . فلما توجه إلى وادى آش ، ونزل فى منزل واصل ، أظهر له إكراماً وتبجلاً لم يكن عليه قبل ، حتى اطمأن ، وانصرف عنه أعوانه . ولما دخل الليل فى جنه ، أتاه واصل برمح ، وهو سكران ؛ فضربه ضربة أفغده بها ، حتى أثرت الضربة فى الحائط ؛ وقطع رأسه وعلقه صبيحة الليلة [بأزقة مدية وادى آش

- ومُنَادٍ ينادى [ : « هذا جزاء من طلب ما لا يعنيه ! »
- فورد الخبر فجأةً بفرناطة ، وبُهِتَ له الناس ؛ ولم يدْرِ أحدٌ من حيث أتى ، ففهم من يقول : « السلطان دسَّ إليه ، إذ لا يمكن لملك الملج أن يتعدى ! » وبلغ ذلك من السلطان مبلغاً عظيماً ، وعلم أن هذا من اتفاق عليه ؛ ودخل منه في بحر طامس ، حتى أسهر ليله وامتنع من لذته . وأظهر للناس تجلداً ، وهدده الجند ، وأرسل إلى واصل بالأمان ، يأمره بالقدوم عليه ، ويشكره فيما فعل ، سياسةً منه وتوطيداً إلى أن يستبرى كيفية الحال ، وينظر لها على مهل . فزاد بذلك الملج حاقةً ، وقال مُعلنًا : « لم أدخل يدي في هذه القضية وحدي ، حتى يساعدني عليها من لا يُنال بهم عن أحدٍ ! »
- ١٠ وأتى مُشترطاً للوزارة . وكَلَّمَ وَلَدُ القاضى المظفر في أمره وقال له : « إن هذا العبد ، وإن جنى عليك في قتل وزيرك ، فإنما فعل حُباً منه فيك ورغبةً في قُربك ؛ وهو أحقُّ من ذاك إذ هو تربيتك ! » وجعل [ أهل ] الدولة يمتنون به ويسألون العفو له . فأحسَّ السلطانُ ذلك في نفسه ، وأيقنَ أنَّ هذه النصبية لم تكن إلَّا عن اتفاقٍ عليه ، وحسب نفسه مخلوعاً لا محالة . فإنه ، ساعةً
- ١٥ ما قُتِلَ الناية ، أُرْسِلَ عن ما كُنَّ إلى طليطلة ، ووُجِّهَ\* إليه بخاتم الناية ٢٧ (ب)
- كُنَى يتحقَّق قتله ، وقيل له : « ليس بفرناطة عليك مختلفٌ ولا من يصدُّك ! » إلَّا أنه لم يتجاسر حتى يرى إلى ما تؤول الأحوال . فكظم الحاجب هذا في نفسه ، واحترق له قلبه ؛ ودارى جميعهم ، وصوبَ فلَّ واصلٍ ، وقال :
- « هذه نارٌ موقدةٌ ليس يتقدنى منها إلا إطفائها والنظر لها على سعةٍ ! »
- ٢٠ وأمرَ بتقديم واصلٍ على الخليل .

٣٣ - استدعاء الأمير باديس ولده ماكسن ورجوعه إلى الحضرة

واتفق رأي الجميع ، مع بعض أهل قصره من النساء ، أن يُدخَلَ عليه ابنه ، ويُخلَعَ من أجله على كلِّ حال . فلما رأى المظفر اتفاقهم عليه ، وأحسنَ بهذه المصائب ، ولم يَرِ لنفسه مع من يستريح ، أرسل في أبي الربيع النصراني ، وكان فيما مضى كاتبَ حشم ، قد عرف خدمة اليهودي وتصرف معه ؛ فأرسل عنه سرًّا ؛ وأتت كُتُبُه قبل ذلك ، فراجعَ عنها بخطِّ يده . فكان ذلك زيادةً في الشرِّ وخيالِ الدولة . فلما أحسنَ بهذا ولدُ القاضي صاحبُ باغِه ، شافَهَ المظفرَ في الأمر وقال له : « إن كنتَ تعزم على أبي الربيع ، فنحنُ لا نبقى معك ، ولا ياتوى أحدٌ حوائيك ! » فأجابه : « ألا أتقَى اللهَ منكم أحدًا ! » وضيّع الحزم في هذا ، لا سيَّما أنه قد عَلِمَ أن بيده مدينة لا يملك منها معه شيئًا ؛ فَعَمِلَتْ في نفس صاحب باغِه وأهل الدولة ، وتغيرتِ الأفسس ، وكثر الإرجاف . واتفق مع صاحب قَبْرَة ، وكان صديقه قديمًا ، إلى أن ورد أبو الربيع .

فاستراح إليه المظفر على المقام ، وأعلمه بما حلَّ به . وأتاه المذكورُ من دانية ، إذ كان بها من وقت قتل اليهودي . فقال له أبو الربيع : « قد أيقنتُ أنهم أرسلوا عن ابنك ، ولا يختلف عليه . ولا قدرة بك على مُكابرة العاتية والخاصة ! فالرأي في ذلك والحيلة أن تتلافى الأمر ، وتوجَّه في ابنك ، وتكتبَ إليه بخطِّ يدك بالغو عنه وإيثارك له على كلِّ والٍ لم يصُحَّ لك ، وأناك مقدِّمُه\* لولايتك ومورثُه مُلْكك . فإنك ، إن فعلتَ ، هَدَّنتَ قلوبَ هذا العالم ٢٨ ) وتَقَمَّنتَ مسرَّتهم<sup>(١)</sup> . فإذا وصل ولدك بين يديك ، كنتَ في أمره بالخيار ،

(١) أصل : « سارم » .

وَتَخَذَتْ قَصَّتَهُ عَلَى سَعَةٍ : فَكَابَدَتْهُ ، وَهُوَ مَعَكَ ، خَيْرٌ مِنْ مُكَابَدَةِ شَرِّهِ مَعَ  
بُعْدِهِ ! وَلَسْتَ تَأْمَنُ مَكْرَهُ حَيْثُ مَا تَوَجَّهَ ! »

فَرَضَى الْمُظْفَرُ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ ، وَأَرْسَلَ عَلَى الْقَامِ عَنْهُ قَبِيحًا كَبِيرًا مِنْ  
قَبَائِلِهِ يُؤْمِنُهُ وَيُوطِّدُهُ ، وَيُبَشِّرُهُ بِمَذْهَبِ أَبِيهِ وَاسْتِخْلَافِهِ لَهُ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ فِي  
الدَّوْلَةِ مِنْ بَنِيهِ مَنْ يُرْجَى لِهَذَا الْأَمْرِ سِوَاهُ ، وَكَتَبَ إِلَى ابْنِ ذِي النُّونِ يَرْغَبُ  
فِي نَسْرِجِهِ إِلَيْهِ . فَسَرَّ بِذَلِكَ جَمِيعُ النَّاسِ ، وَانْصَرَفَتْ نَفُوسُهُمْ عَمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ ،  
وَطَفَّفَ الْعَالَمُ فِي مَحَبَّةِ مَا كُنَّ ، وَرَجَّوْا الْخَيْرَ مَعَهُ ، إِلَى أَنْ وَرَدَ فِي الْأَنْحَسِ  
طَالِعٌ وَأَنْكَدَرِ جَدٌّ .

فَأَنَسَهُ أَبُوهُ ، وَبَذَلَ لَهُ الْأَمْوَالَ ، وَجَعَلَ يُوَصِّيهِ بِوَصَايَا لَمْ تَنْفَعِهِ ، أَرَادَ  
بِذَلِكَ ضُرَّهُ وَانْصَرَفَ نَفُوسُ النَّاسِ عَنْهُ . فَأَوَّلُ مَا أَمَرَهُ بِهِ بِالشَّدَّةِ وَالْقَطَاعَةِ ،  
وَبَقَضَ إِلَيْهِ صِنْهَاجَةً ، وَقَالَ لَهُ : « أَنْتَ تَعْلَمُ مَا شَقِيتُ أَنَا بِهِمْ بَعْدَ حَبُوسٍ !  
فَصَلِّ عَلَيْهِمْ لِيَهَابُوكَ ، وَلَيْسَ فِي الدَّوْلَةِ غَيْرُكَ إِلَّا بَنِي أَخِيكَ : فَهَمْ أَطْفَالُ صَغَارٍ ! »  
وَكَانَ مَا كُنَّ مِنَ السَّفَهَةِ وَعَجْزِ الرَّأْيِ وَقَلَّةِ الْفِطْنَةِ بِحَيْثُ لَمْ يَخْفَ عَلَى أَحَدٍ .  
فَزَادَ عَلَى ذَلِكَ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً . وَوَافَقَ سُوءَ طَبْعِهِ مَقَالَةَ أَبِيهِ ؛ فَتَحَكَّمَ الشَّرُّ  
فِيهِ ، وَلَمْ يَقْدَمْ شَيْئًا عَلَى شَتْمِ النَّاسِ وَالِاسْتِهْزَاءِ بِهِمْ ؛ وَمِنْ الْعَجَبِ أَنَّهُ  
كَانَ أَبْغَضَ الْعَالَمِ فِيمَنْ أَحَبَّهُ وَسَعَى فِيهِ ؛ فَجَلَّ يَبْلُغُ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ وَتَكْلِيفِهِمْ  
مَا لَا يَطِيقُونَ وَمَا انْصَرَفَتْ نَفُوسُ الْعَالَمِ فِيهِ إِلَى الْبَغْضَةِ ، وَتَبَيَّنَ لَهُمْ مِنْ قَلَّةِ  
عَقْلِهِ ؛ وَأَجْمَعَ \* الْكُلُّ عَلَى الْآخِرِ فِيهِ يُرْتَجَى .

٢٨ (ب)

وَكَانَتْ بِنْتُ عَمِّهِ أُمُّ الْمُلُوكِ طَامِعَةً بِزَوَاجِهِ ؛ وَكَانَتْ مُطَاعَةً فِي قَوْمِهَا :  
٢٠ قَدْ اسْتَمَاتَ أَكْثَرُ نِسَاءِ الْجُنْدِ ؛ فَأَوَّلُ مَا ابْتَدَأَ بِتَهْجِينِهَا وَشَتْمِهَا ، وَأَنَّهُ فِيمَا يَرْصُمُ  
لَا تَصْلَحُ لَهُ . فَزَادَ ذَلِكَ فِي نَحْسِهِ وَالسُّمْنِ بِكُلِّ وَجْهِ عَلَيْهِ . وَكَانَتْ كَرِيمَةً

المُظَفَّرُ الساعية في خبره بعد سعيها في قتل أمه ، قد أغارت من أن يكون ما كَسَنَ يزوج بنت عمه ، جذراً منها أن تجعل منها حاشيةً وتمنع حرمة . واتقى من ذلك واصل وامراته ؛ فقال<sup>(١)</sup> لها : « أي فائدة لك في زواج أم العلو ؟ لكن الأولى بك أن تعطيه صبيّةً من تربيتك ، تكونين<sup>(٢)</sup> من أجلها حاكّةً على داره ! » ففعلت ذلك وأخرجتها إليه بأموال ، وصورت عند السلطان أنها تُوقَّيت ، لئلا يطلبها في قصره ، باسم أخرى ماتت عندها .

وشقّ على بنت عمه ذلك كله ، ورجعت تسعى عليه مع نساء البربر ، وتدخل بين امرأة واصل للذكور ، وبين كريمة الحاجب ، وتقول لها : « إذا أردت الانفراد بما كَسَنَ ، فما حل امرأة العليج على السكنى معه ؟ » فمِنَعَتْ الدخول إلى داره ؛ فأفت لذلك . وكان مع ذلك زوجها واصلٌ يؤثر عليها صبيّةً كانت لها ، ويؤذيها من أجلها . فاجتمع على المرأة الغيرة والأنفة لما طردت عن دار ما كَسَنَ ؛ فلم تلبث أن مضت إلى أبي الربيع النصراني : وقالت له : « أنا أمة المظفر : فليَنظُرْ من نفسه ! فإن الاتفاق عليه على وجه كذا وكذا ! » وبيّنت جميع ما راموا من غدره . فأقن أبو الربيع إلى الحاجب مسروراً ، وقال له : « أنظر كيف تبتدى سعادتك في تشتيت هؤلاء القوم ! أخبرني امرأة واصل بكذا وكذا ! ألم أقل لك<sup>(٣)</sup> ..... ؟ »

(١) أصل « فقالوا » . (٢) أصل : « تكون » .

(٣) إل هنا انتهى ما هو موجود في نسخة « مذكرات عبد الله » الوحيدة من تاريخ دولة باديس

ابن حبوس جد المؤلف .

## الفصل الخامس

إمارة عبد الله بن مُلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب

(١) مشاكل الأندلس الخارجية وحال الجزيرة

عند ابتداء إمارة عبد الله .

٣٤ — رفض مطالب الفُونش السادس واشترائه

مع ابن عمار

[..... وأما] \* أَلْفُونشُ ، لما تيقن هذه الفتن ، عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ ٢٩ (١)

من أَكْبَرَ سعادته وأَعْظَمَ فُرْصِهِ في طَلَبِ الْأَمْوَالِ . فَأَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولَهُ :

أَوَّلَ مُدَاخَلَةٍ نَشَأَتْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ ؛ فَأَتَى بَاطِرُ شَوْلَشِ يَطْلُبُ مِنَّا ضَرِيئَتَهُ .

فَأَبَيْنَا عَلَيْهِ ، وَاجْتَمَعَ رَأْيُنَا عَلَى أَنَّ لَا نَفْعَ ، وَأَنَّ ضَرَرَ أَلْفُونشُ لَا يُخْشَى

وَعَبْرُنَا أَمَانَنَا ، نَعْنِي بِذَلِكَ ابْنَ ذِي الثَّوْنِ . وَلَمْ نَقِسْ أَنَّ أَحَدًا يُعَاقِدُهُ

عَلَى مُسْلِمٍ . فَانصَرَفَ عَنَّا دُونَ عَمَلٍ .

وإِنَّ ابْنَ عَمَّارٍ انْتَهَزَ هَذِهِ الْفُرْصَةَ ؛ وَكَانَ مُنْتَظِرًا لَهُ بِبَاغِهِ ، مُرْتَقِبًا

لِمَا يَصْنَعُ مَعَنَا . فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ لَمْ يَتِمَّ لَهُ عَمَلٌ ، أَلْقَى يَدَهُ فِيهِ عَلَى الْقَامِ ١٠

وَقَالَ لَهُ : « إِنْ كُنْتُمْ <sup>(١)</sup> مُنْقِمُونَ عَشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ (وهي التي سأل عن

ضَرِيئَتِهِ) ، فَتَحْنُ نَعْطِيكُمْ خَمْسِينَ أَلْفًا ، عَلَى أَنْ تُعَاقِدَ كُمْ عَلَى غَرْنَاطَةِ :

(١) أصل : « إِنْ كَانَ مِنْكُمْ » .



نمطونا القاعِدة ، ولكم ما فيها من الأموال ا « فهاقدوه على ذلك . واتفق رأيهم على أن يبنوا على غرناطة مَقِيلًا يَضِيقُ عليها حتى تلقى يدعا . وكان ابن أَصْحَى ، للذكورُ قبل هذا — هو المُخْرَجُ على يدى الناية — قد انحاش إليهم ، يدلُّ بهم على عَوَرات البلدة ، ويُرِيهم أَشدَّ ما يكون عليها من المَوَاضِعِ إن بُنِيَ ، ويجعل فيه ندباً للضرب والتضييق . فأراهم حِصْنَ يَلِيْلُش .

وأَكْرَى ابنُ عَمَارٍ من عسكر أَلْفُونُش ما قوى به على البُنيان بأعداد من الأموال جسيمة ، يَسُوِّفهم فيها تارات ، وَيَعِدُّهم وَيُخَادِعهم ، حتى تمَّ البُنيان . وجعل المُعْتَمِدُ يُحَاوِلُ ذلك بنفسه ، ويبرز أبدأ على مقربة من غرناطة مدَّة كَوْنِهِ ، طمعاً في أن يَقُومَ معه أَهلُ البلدة . فلما تمَّ بُنيانُهُ ، قَوَاهُ بالندب ، وأَتَمَّذ فيه جميع الأَقْوات ، وأَمَرهم بالتضييق . وكانت الحالُ شديدةً ، ونَسِيَ به أَمْرُ القلعة .

وعند انصراف المُعْتَمِدِ عنه وعساكِرِ الرُّومِ ، عَبَّينا عسكراً كثيراً ، ونَهَضْنَا إليه ؛ فلم نقدر فيه على شيء . واقطع رجاء الناس من دولتنا ، لاجتماع المُطالِبِينَ عليها مع الرومِ . وتَدَمَّنَّا على التفريط أَوَّلًا في مُعاقَدته حَسَبَ ما سأل . وكان من أحسن شيء\* على السلاطين أَخْذُ مَقِيلٍ بالسيف ؛ ٢٩ (ب) فَإِنَّهُ ، متى اعترض ، لم يَسْتَطِعْ على دخوله لمتعته وما عُدَّ فيه ، ولا على إحصاره ، حتى ينفد ما فيه لقوَّة تَأْتِيهِ ، فيَقْلِعُ عنه إلّا من كان أقوى . ولم نَكُنْ نَحْنُ إلّا مُتَكَافِئِينَ في ذلك : متى ما أُعْطِيَ أَحَدُنَا لِعسكِرٍ ٢٠ مَالاً ، وأَرَادَ الآخَرُ نَقْضَهُ ، أَرْزَى عليه وأراحَهُ منه .

فكانت يَلِيْلُش قد أَفْسَدَتْ ، وَضِيقَتْ على فَحْصِ غرناطة ؛ ولم يَكُنْ

ما حلَّ من أجلها حتى جعلنا القوم أن نُقرِّم ما فاتهُ مِنَّا ، تباعاً وتذنباً لرفضنا إِيَّاهُ ، واستدفاعاً لِمَا يُتَّقَى من تَمَادِيهِ عَلَى الطَّلَب . وابنُ ذِي النون في هذا يتوسَّط له بالأمر ، ويسعى في تصيير المال إليه ، يرضيه بذلك وينتظرُ فسادَ مَمْلَكَتِنَا ، فيفتَرِصُها هو أو يأخذُ منها حِصَّتَهُ .  
 ٥ فكان — على ما قدَّمنا ذِكْرَهُ — عدواً في الباطن ، صديقاً في الظاهر . وهو مع ذلك لا يزال يُدْخِلُ قَرْطُبَةَ ، وَيَسْمَى جَهْدَهُ فيها ، إلى أن قدَّرَ اللهُ ، وافتَرَصَهَا عُذْرًا بِمُدَاخَلَةٍ من بعض أهلها مَن لا خَطَرَ لَهُ . واستُشْهِدَ فيها ابْنُهُ عَبَّادُ [ بن المُعْتَمِدِ ] وقائدهُ ابْنُ مَرْتَبِينَ .

فلَمَّا انقضتْ بَقَرْطُبَةَ هذه الدائرة ، وسمع بالخبر أهلُ يَلِيلِش ، أَخْلَوْهَا على اللقَام ؛ ودَخَلَهَا رِجَالُنَا ، وصارت في مِلْكِنَا مُشِيدَةً مُتَبَيِّنَةً . فنَظَرْنَا منها بالذي نصنع بِقَصَبَةِ غرناطة . وتروَّحُ نَحْنُهَا من حيث لم يُحْتَسَبُ .  
 ١٠

### ٣٥ — المهادنة بين عبد الله وابن صُمَادِحِ صاحبِ التمرية

وكان قائِدَ مدينةِ بَسْطَةَ ابْنُ مَلْحَانَ ، رَجُلٌ مُعْجَبٌ ، قد شَرِهَتْ نَفْسُهُ إلى رُتَبِ الملوك . وكان المُطَفَّر — رحمه الله — قد فَوَّضَ إليه أَمْرَ البلدةِ عِيَوْضًا من أَيْهِ . فلَمَّا صارت لنا الدولة ، وكثُر فيها آراءُ الوَزَرَاءِ ، جعل كلُّ واحدٍ منهم يطلبه بِنال ، ويسأله مُتَاحَفَاتٍ : فن لم يعطِهِ ، طالِبُهُ وأَذَاهُ ، مع صغر سُنَّتِنَا ؛ فلم يَجِدْ سَبِيلًا إلى الدِّفَاعِ عن نفسه ، ولا شكوى لمن يَنْبِئُ عنه ويحميه . فترامى على ابن صُمَادِحِ وقبله ؛ وصارت البلدةُ إليه ؛ وعَلِمَ أَنَّهُ لا يُفَاتِنَ طَوْلَ مدَّةِ الفِتْنَةِ مع ابنِ عَبَّادِ .  
 ١٥

٢٠ ثُمَّ إِنَّهُ غَدَرَ\* حِصْنَ شِيلِش ؛ ونحن ، في ذلك كَلَهُ ، لا نفتر عن مُخَازِنَتِهِ ٣٠ (١)

بالإضرار ببلده . وصار إلينا مع حصن شنت أفلج من معاقله ما وقعت  
المعاوضة به من شيلش . وصالحناه مهادنة وانجراراً للحال ، حتى نرى  
ما نصنع مع ابن عبّاد .

### ٣٣ — مهاجمة ألفونشُ السادس على غرناطة

واضطرار عبد الله إلى المهادنة معه .

٥

ويبقى ابنُ عمّار مُرتَهِنًا بما جعل على نفسه للنّصرانيّ من كراء بليش  
في تبعات كثيرة وجرايات جسيمة يُقَطِّعُها له ، ويَعِدُّه بها . وأدْخَلَ سُلْطَانَهُ  
من ذلك في تشييب ، لأنّه كان لا يُريد أن يجعله يَخْلُدُ إلى راحةٍ لِكَيْ  
يحتاج إليه في تلك الفتنة لا يقرُّ عن إدخال ضَرَرٍ على المسلمين . ومتى  
١٠ ما كان الْمُعْتَمِدُ يسعى في تهدين الأمر ، ونومٌ معه الصلح ، أو تنشأ  
مهادنةٌ ، لا ينامُ في نَفْسِها وإشعالِ نار الفتنة .

فباد ثانيةً إلى النصرانيّ ألفونشُ ، وزين له أمرَ غرناطة ، وصوّرنا  
عنده في صورةٍ مَنْ لا يقدر على شيء من أجل الضعف ومن الصبا ،  
وأنّه ضامنٌ له أموال غرناطة لتَصِيرُ إليه بأمرها ، على أن يُعاقِدَهُ ،  
١٥ إذ تمكن من البلدة ، أن يجعلها مُلْكَهُ ، وله ما لقي من أموالنا . وألّقَى  
يَدَهُ في ألفونشُ ، عازماً عليه في الإقبال إليها ، وأعطى على ذلك أموالاً  
جسيمة ، ووعدّه بخمسين ألف منقال إذا تمت القضية ، سيعطيها زائدةً على  
ما يَجِدُ ، لمُسَاعَدَتِهِ على السير .

فأذركَ الرُّومِيَّ من ذلك طمعٌ كبيرٌ ، وقال : « هذه نصبةٌ لستُ  
٢٠ أخلو فيها من فائدةٍ ، وإن لم تُحْصَلِ البلدة ! وأى فائدةٍ لي في إعطاء

بلقة من واحدٍ لآخرٍ إِلَّا تَقْوِيَّتُهُ عَلَى نَفْسِي ؟ وَكَلَّمَا أَكْثَرَ الثَّوَارُ ، وَوَقَعَ  
 بَيْنَهُمُ التَّنَافُسُ ، كَانَ لِي أَفْتَدَا « فَأَتَى عَلَى نَبِيَّةٍ أَخَذَ مَالِ الْفَرِيقَيْنِ ،  
 يَكْسِرُ رُؤُوسَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ . وَلَا كَانَ أَيْضًا فِي أَمَلِهِ أَنْ يَأْخُذَ الْبِلَادَ  
 لِنَفْسِهِ ؛ فَإِنَّهُ عَمِلَ فِي ذَلِكَ حَسَابًا أَنْ قَالَ : « إِنَّا مِنْ غَيْرِ الْمَلَّةِ ؛ وَكُلُّ  
 ٥ النَّاسِ يَشْتَأِي ؛ فَبِأَيِّ وَجْهِ أُلْطِعَ فِي أَخْذِهَا ؟ إِنْ كَانَ مِنْ بَابِ الطَّاعَةِ ،  
 فَأَمْرٌ لَا يُمْكِنُ ؛ وَإِنْ كَانَ مِنْ وَجْهِ الْقِتَالِ ، فَيَهْلِكُ فِيهَا رِجَالِي \* وَتَذْهَبُ ٣٠ (ب)  
 أَمْوَالِي ، وَتَكُونُ الْخُسَارَا عَلَى أَكْثَرِ مِمَّا نَرْجُوهُ إِنْ صَارَتْ إِلَيَّ .  
 وَلَوْ صَارَتْ ، لَمْ تَتَمَسَّكَ إِلَّا بِأَهْلِهَا ؛ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُونَ ! وَلَا مِنَ الْمُتَمَكِّنِ  
 أَنْ تَسْتَبِيحَ أَهْلَهَا وَتُعَمِّرَهَا بِأَهْلِ مِلَّتِي ! وَلَكِنْ الرَّأْيَ ، كُلَّ الرَّأْيِ ،  
 ١٠ تَهْدِيدُ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ، وَأَخْذُ أَمْوَالِهِمْ أَبَدًا ، حَتَّى تَرُقَّ وَتَضَعُ ؛ ثُمَّ  
 هِيَ تَلْقَى يَدَهَا إِذَا ضَعُفَتْ ، وَتَأْتِي عَفْوًا ، كَالَّذِي جَرَى بِطُلَيْطَلَةَ إِنَّمَا  
 كَانَ مِنْ قَرَرِ أَهْلِهَا وَتَشْتَتِهِمْ ، مَعَ انْدِبَارِ سُلْطَانِهَا ، وَصَارَتْ إِلَى يَلَا  
 مَشَقَّةٍ ! »

وَكُنَّا نَحْنُ نَعْلَمُ هَذَا مِنْ مَذْهَبِهِ ، عَلَى مَا كَانَ يُخْبِرُ بِهِ وَزَرَاؤُهُ . وَلَقَدْ  
 ١٥ قَالَ ذَلِكَ شِيشْلَانْدُ فِي حَالِ هَذِهِ السَّفَرَةِ ، وَشَافَهُنَا بِذَلِكَ ، وَقَالَ : « إِنَّمَا  
 كَانَتْ الْأَنْدَلُسُ لِلرُّومِ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ ، حَتَّى غَلِبَهُمُ الْعَرَبُ ، وَالْحَقُّومُ  
 بِأَنْحَسِ الْبِقَاعِ : جَلِيقِيَّةٌ ؛ فَهُمْ الْآنَ عِنْدَ التَّمَكُّنِ ، طَامِعِينَ بِأَخْذِ ظُلَامَاتِهِمْ !  
 فَلَا يَصْغُرُ ذَلِكَ إِلَّا بِضَعْفِ الْحَالِ وَالْمَطْلُوقَةِ ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ مَالٌ  
 وَلَا رِجَالٌ ، أَخَذْنَاهَا بِلَا تَكَلُّفٍ ! »

٢٠ فَكَانَ الْجَمِيعُ يُسَابِرُ الْأُمُورَ ، وَيُدَافِعُ الْأَيَّامَ ، وَيَقُولُ : « مِنْ هُنَا  
 إِلَى أَنْ تَمَّ الْأَمْوَالُ وَتَهْلِكَ الرِّعَايَا بِرُحْمِهِمْ ، يَأْتِي اللَّهُ بِالْفَرَجِ وَيَنْصُرُ الْمُسْلِمِينَ ! »

فورد علينا من إقبال الفؤش مع ابن عمار هزل عظيم ، وصح  
 عندنا أنه لم يأت إلّا طالباً لمكنا : قد استوثق من الفؤش على ماقدنا  
 ذكره . ثم أرسل إلينا ينذر بإقباله ، ويأمرنا بالخروج إليه ، يرى أنه  
 يذهب إلى تجديد العهد والاجتماع بنا ، على ما يفعله مع السلاطين . فلم نشك  
 أن ذلك للتبعض علينا وإنجاز ما عاهد عليهم . فاجتمع علينا أهل الرأي  
 والمشورة ، وقالوا : « ما الذي تذهب إليه ؟ هذا عدو قد جاء لطالبك ،  
 ولا قدرة بك على مناواته ! وسواء عليك خرّجت أم بقيت ! فإن أنت  
 بقيت ، حلت بك الداهية العظمى ، ووقعت المفسدة ، وأصاب مطالبك  
 سيلاً إلى القتل ؛ وتكون هذه أشد من الأولى ، وقت رفضنا بطره سولس  
 ١٠ وألقى ابن عمار يده\* فيه حتى بنى علينا بيليش . والآن لم يدرّج مخنفنا ٣١(١)  
 حتى نعود إلى ما هو أدهى وأمر ؛ فلو رأت الرعايا بعض خلاف من هذا  
 الجيش ، لم تبق ولا تذر لشقة ما قد دهموا به قبل ، وكان الرجاء ينقطع ،  
 وي تلف الكل حتى تؤخذ هنا باليد على غير صلح ، فلا يرقب فينا  
 إلّا ولا ذمة ! فالخرج إليه أيسر لأمرين : فإن كانت سلامة ، شكرت  
 ١٥ رأيك ، وثبت ملكك ؛ وإن كانت الأخرى ، كان خروجك عن  
 أمان ، وصيرت حيزاً في العافية ! فاعزم على لقائه<sup>(١)</sup> ، وقل له قولاً  
 لئنا ؛ والله أن يُنفذ قضاءه .

فاستعددنا لملك جهدنا ، واجتمعنا حوالينا من يثق به من رجالنا ،  
 وأخذنا أهبة الحال ، ولقيناه على مقربة من المدينة ، وبالقنا بالضرورة في  
 ٢٠ إكرامه ؛ فأعرض علينا وجهاً بسيطاً وخلقاً حسناً ، ووعدنا أنه يُجاي

(١) أصل : « لقاء » .

عنا كما يُجايى عن بَلَدِهِ .

ثمّ وقعت المُعاملة ، ومَشَتْ الرُّسُلُ مِنَّا إِلَيْهِ وَمِنْهُ إِلَيْنَا ، يُبَيِّنُ مَا عُوِّدَ عَلَيْهِ وَأَنَّهُ سَيَقَ سَوْقًا ، ويقول : « إِنِّي قَدْ تَشَبَّثْتُ فِي الْأَمْرِ ، وَلَمْ تُعْجَلْ حَتَّى نَسْمَعَ مَا عِنْدَكُمْ . فَإِنْ جِئْتُمُونِي وَرَأَيْتُمْ لِقَصْدِي وَجْهًا ، انصرفتُ عَنْكُمْ عَلَى خَيْرٍ ، وَإِلَّا ، فَهَا أَنَا مَعَ مَنْ عَاقَدَنِي ! » وَطَلَبَ خَمْسِينَ أَلْفَ مَنَقَالٍ .

فَشَكُّونَا إِلَيْهِ قَلَّةَ الْبِلَادِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَا يَقْدَرُ عَلَيْهِ ، وَفِيهِ مِنَ الْقَطْعِ لَنَا مَا يُفْتَرِصُنَا بِهِ ابْنُ عَبَّادٍ ؛ فَإِنَّهُ ، لَوْ أَخَذَ غِرْنَاطَةَ ، قَوَى عُصْرَهُ ، « وَلَمْ يَنْطَعْ إِلَيْكَ . فَخُذْ مَا تَقْدِرُ إِلَيْهِ ، وَاتْرُكْ رَمَقًا لَا نَسْتَأْصِلُ مِنْ أَجْلِهِ ! وَمَا تَرَكْتَ ، تَجِدْهُ عِنْدَنَا مَتَى مَا طَلَبْتَ ! » قَبْلَ الْعَذَرِ بَعْدَ جُهِدٍ عَظِيمٍ ، وَفَاطَنَاهُ لِقَصْدِهِ بِخَمْسَةِ وَعَشْرِينَ أَلْفًا ، نِصْفَ الْعَدَدِ ؛ ثُمَّ أَعَدَدْنَا لَهُ مِنَ الْفَرَسِ وَالثِيَابِ وَالْأَلْيَةِ كَثِيرًا ، اسْتِدْفَاعًا لَشَرِّهِ ؛ وَجَمَعْنَا ذَلِكَ كُلَّهُ فِي خِيَاءٍ كَبِيرٍ ، وَدَعَوْنَاهُ إِلَيْهِ . وَلَمَّا رَأَى الثِّيَابَ اسْتَحْقَرَهَا ؛ وَوَقَعَ الْإِتْفَاقُ مَعَهُ عَلَى زِيَادَةِ خَمْسَةِ آلَافٍ مِثْقَالٍ لِيَتِمَّ بِهَا ثَلَاثُونَ أَلْفًا ؛ فَأَكَلْنَاهَا لَهُ ثَلَاثًا يَنْفَسِدُ الْأَكْثَرُ عَنْ \* الْأَقْلَى . فَشَكَرَ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَطَابَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ . ١١ (ب)

١٥ وَرَجَعَ إِلَى ابْنِ عَمَّارٍ يَقُولُ لَهُ : « كَذَبْتَ لِي فِي قَوْلِكَ إِنَّ غِرْنَاطَةَ فِي ضَعْفٍ ، وَإِنَّ صَاحِبَهَا مِنْ صَخْرٍ سَنَّهُ لَا يَعْقِلُ ! وَرَأَيْتُ مِنْ رَتْبَتِهَا وَأَحْوَالِهَا مَا خَالَفَ قَوْلَكَ ! »

فَرَجَعَ ابْنُ عَمَّارٍ يَسْأَلُهُ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَنَا عَقْدًا يُوقِفُ عِنْدَهُ ، وَاسْتِمَالَهُ عَلَى اخْتِذِ إِسْطَبَّةٍ مِنْ عِنْدِنَا ؛ وَكَانَتْ مَعْقِلًا عَظِيمًا مِمَّا يَلِي جِهَاتٍ إِشْبِيلِيَّةً ، فَكَانَ اخْتِذَهُ قَائِدُنَا كِتَابًا فِي الْفِتْنَةِ . وَسَأَلْنَاهُ نَحْنُ خَبَرَ الْقَلْعَةِ ؛ فَوَقَعَ الْإِتْفَاقُ عَلَى أَنْ تَكُونَ قَلْعَةُ أُسْطَلِيرٍ عِيَوْضًا مِنْ إِسْطَبَّةٍ . ٢٠

وكانت قاشترة ومارتش المتعقلين اللذين على جيان . ومن أجلهما انقطع صاحبها عمنا [ ما كسن ] ولم تكن لجان معنى إلا بهما . قرامى ابن عمار في أمرهما على الفونش ، ووعدته على مارتش بأموال كآته يشتريها منه . ففرم علينا فيها للطمع في اللال ، ووعدنا نحن على قاشترة بالمطمر ، وكان أيضاً حصناً قد اشترك نظره مع نظرنا بيد ابن ذى النون ؛ فضمن خبره أنه يعطيه لنا عوضاً منها ؛ فدافعنا الأمر جهداً : فلم نقدر على أكثر فعل القوى مع الضعيف ،

- ثم إنه عقد القديين يديه على ذلك ، وأن لا يتعدى منا أحده على صاحبه ، وذكر فيه ما نعطى كل عام من الضريبة : فجعل علينا عشرة آلاف مثقال في العام ، وطيب لنا الكلام بأن قال : « طمع ابن عمار أن نندر بك ؛ ومعاذ الله من ذلك أن يشيع في الدنيا أن مثلي كبيراً في الرؤم يقصده ، وأنت كبير في جنسك ، ثم نندر بك ! فابق على أمان ! لا أكلفك إلا الضريبة ، توجّه إلى بها في كل عام دون مطل ؛ وإن تأخرت بها ، أهلك رسولاً عنها وتلزمك عليه نفقات ؛ فبادر بها ! »
- ١٥ فقبلنا قوله ، ورأينا إعطاء عشرة آلاف في العام ندفع بها مضرته خيراً من هلاك المسلمين وفساد البلاد ، إذ لم تكن بنا قدرة على ملاقاته ومكابرتة ، ولا وجدنا من سلاطين الأندلس عوناً عليه إلا من يسوقه إلينا لهلاكنا . فبقيت الأمور على مصالحة ومهادنة\* ورفاهية ، لا يُسمع فيها بفتنة . ٣٢ (١)

### ٣٧ — استيلاء الفونش السادس على طليطلة

- ٢٠ ومما هيأه الله أن فقدنا وسائط السوء بعد ذلك بفقد ابن عمار ، وشغله في مرسية ، وبزوال سماجة عنا وأشباعه . وتوفي قبل ذلك ابن

ذى النون عند بلوغه آماله بقرطبة ، وكانت الأندلس قد ارتججت له ، وخافه الرؤساء ؛ فلم يلبث بها يسيراً حتى مات : وكذلك الأشياء إذا تمت . وكان أهل العلم يخبرون بذلك أنه إذا حصل على قرطبة ، فقد تمت أيامه وإذا تم شيء ، دنا نقصه .

- ٥ ثم خلع من بعده حفيده ، وقام عليه أهل بلده ، ولجأ إلى ألفونس ؛ فصرفه إليها على قهرٍ وغلبة ، إلى أن جعل عليه أموالاً جسيمةً ، أشدها ما جعل على نفسه في شراء حصن من ألفونس على مقربة من طليطلة بمائة وخمسين ألف مثقال طيبة وخمسمائة مدي من طعام ضيافة لكل ليلة مدة مقامه عليه : أخذها من أهل بلده حتى ضعفوا . ولزمها ألفونس حتى صارت إليه .
- ١٠ وعوض صاحبها ببكسية ؛ ولم يعترض له مالا ولا أهلاً غير الذهب والفضة . وكان حفيد ابن ذي النون ، في أقل ولايته ، لم يقدم شيئاً على القدر بوزير جدّه [ ابن ] الحديدى لسعاية البخاة أعدائه ؛ وسوّلت له نفسه أن يقتله لا يصح إلا على يدي قوم قد سجنهم جدّه على بصيرة ؛ فأطلقهم وسلّطهم عليه ؛ ولما تمكنوا منه ، كان كلّهم عليه أشدّ ، وصاروا طالين للنار وكانوا أقوى الأسباب في فساد ملكه ، وهم بنو اللوارىكى ، وبنو ميمث ، ومن الخاش إليهم . وكان قديراً على قتله دونهم ؛ لكن العجز وضعف الرأى عمياً عليه وجه الصواب .

### ٣٨ — استيلاء ابن هود على دانية . بعض أخبار بنى هود

- وحصل أيضاً ابن هود على مدينة دانية بنفلة صاحبها عن الرجال وحجبه
- ٢٠ في الأموال ، مع مداخلات أوتى بها من قبل وزيره ابن الرئولة ، الخارج



عنه إلى سَرَقْسَطَةَ ؛ فحصل عليه مع ابن هود حتى أتاه على غفلة ، ودخل  
 المدينة بلا مشقة ، وحصل منها على عظام من الأموال بوفرها . وكان\* ٣٢ (ب)  
 عنده وَلَدٌ مُجَاهِدٌ صَالِحٌ دَائِيَّةٌ مَكْرَمًا حتى مات .

وَلَمَّا كَانَ ابن هود ، لَمَّا حصل على دَائِيَّةٍ ، انفسد طبعه ، وأدركته الرَغْبَةُ  
 ه في البلاد ، وزال عما كان عليه من جهاد الروم ، وطَمِعَ في بَلَنَسِيَّةٍ عند  
 ذلك ، وأعطى عليها أموالاً جسيمة لَأَلْفُونشُ ؛ وَالْفُونشُ في هذا كَلَمَةً ، على ما قدّمنا  
 ذكره ، يأخذ الأموال ، ولا يَحْقُقُ لأحد أن يُهاوِده على أخذِ بلدٍ . فتوفَّى  
 ابن هود في إثر أخذِهِ لَدَائِيَّةٍ وبلوغِ آمالِهِ منها . وقد كان ابن أَلْيَاطِ  
 المُنَجَّمُ ذكر ذلك كَلَمَةً ؛ ولقد قرأته في بعض كُتُبِهِ قَبْلَ أن ينقض ، حتى  
 ١٠ رَأَيْتُهُ عِيَانًا .

وكانت قَضِيَّتُهُ في دَائِيَّةٍ كَقَضِيَّةِ ابن ذى النون بَقَرطَبَةَ : فَإِنَّ ابن  
 هُودَ اهْتَزَتْ لَهُ الْأُنْدَلُسُ عند حصوله على دَائِيَّةٍ ؛ وجزع جميعُ الرُؤَسَاءِ  
 لِأَخْذِهِ لَهَا دون قتال ولا زمان ، وَأَعَدَّ كُلُّ أَحَدٍ عُدَدَهُ مُتَاهَبًا لَشَرِّهِ ، إلى  
 أن أراح الله منه ، وقبضه على فِتْنَةٍ واقْتِبَالٍ أَمَلٍ .

١٥ ثُمَّ قَامَ من بعده ابْنُهُ المُوْتَمِنُ ؛ فلم يلبث إِلَّا يسيراً حتى مات . وشعر  
 للمُوْتَمِنِ لابن الرُّيُولِ وزيرُ أبيه بأعمال فاسِدةٍ مع أَلْفُونشُ ، ليتخذه له خدمة  
 ابن عَمَّارٍ ، فبرأس لئلك عنده على أهل زمانه خِذْلَانًا وطغيانًا ؛ فأمر بقتله .  
 وتوفَّى المُوْتَمِنُ ، وورثه المُسْتَمِينُ حَقِيدُهُ هذا الوالى الآن .

وكان المُوْتَمِنُ رجلاً عالماً ، قد طالع الكُتُبَ ، مع ما كان عنده من  
 ٢٠ الآثار ؛ فرأى مَوْتَهُ قريباً . فكان لا يسرُّ بالملكة ، ويزهد في كثير من  
 الدنيا . ولقد أخبرني بعضُ من حضر تَجْلِيْسَهُ من أعلام جُنْدِهِ أَنَّهُ كان

- يُريهم ذخائره التي لم يجمع مثلها عند ملك ؛ فَيَهْتَنُونَهُ عَلَيْهَا ؛ فيقول لهم :  
 « ما أصنع بها ، والددة يسيرة ، ولا أدخل منها قبري إلا بكفنٍ ! »  
 فكان يكدر قوله ذلك عليهم ، حتى مات .
- وكان مُنْذِرٌ أخوه بدانية ، إلا أن أباه الشيخ لم يُمكنه من مال ،  
 ٥ حذراً منه أن يخالف على أخيه لحدته وشدته بأسه . فلما توفى المُقْتَدِرُ ،  
 اضطربت الفتنة بينهما . وكان مُنْذِرٌ منهما\* يتضعضعُ له ويتكافى به ، ٣٣ (١)  
 لِمَا كان من إحسانه للأجداد ومواساته لهم ، إلى أن توفى بعد أخيه ؛  
 وقام ابن له صغيرٌ بعده ، يُدَبِّرُ مُلْكَهُ وزيرُهُ .

### ٣٩ — ثورة ابن عمار على المُعْتَمِدِ بِمُرْسِيَّة

إلى أن أخرجه منها ابن رَشِيق .

١٠

أعماله بعد ذلك ومهلكه الشنيع

- وصار ابن عمار في حيز الخلاف على المُعْتَمِدِ ؛ وجعله يطلبُ مُرْسِيَّةَ ،  
 واعتزاهُ عليها مشقات ونفقات أموال . وجري من أمر ابن المُعْتَمِدِ عليها  
 ما قد شهر . وطال مكثه على مُرْسِيَّةَ ، يُحزَّبُ عليها الأحزاب وينفق  
 ١٥ الأموال ، يُرى سلطانه أن السعى له ؛ وهو في الباطن يجدُّ لنفسه ،  
 لكنَّ يتخذها معقلاً يرأسُ فيه ، كالذي صنع . ولقد كان يقول أهلُ  
 العلم بالآثار والتأثير : « إن مُلْكَ بنى عباد يتناهى حتى يبلغوا إلى تدمير ،  
 ومن ثمَّ يتمُّ هلاكهم . وكان الناسُ إذ ذاك يتوقعون عليه الفساد عند محاولة  
 ابن عمار لأمرها ؛ فلم يكن إلا بئده بجين ، عند بلوغ الكتاب أجله .
- ٢٠ وصار ابن عمار بِمُرْسِيَّةَ بأقبح طريقة من الاستخفاف بالناس ، واستعمال

للعاصي ، والإيمان على الخمر ، حتى أبغضه أهلها . وكان للمعتد طاعة في معصية ؛ واشتهر بأخذ عِرضه وهَجْوِه بما قد تَزَهه الله عنه ، ففعل الأوغاد والأرذال .

وقدم إلى مُرسية ابن رَشِيق ؛ فكان يطويها وينشرها ؛ وشبك عليه المعاليل بقرابته ، واتخذ لنفسه صنائع مُدَّة غفلة ابن عمار عنه وإقباله على راحته ، إلى أن خرج عن مرسية ، يُريد لنفسه في رسالة النصراني لِيخدم أَمْرَ الأنظار التي تُجاوره في الشرق ، وعسى يَصْغُرَ في يَدَيْهِ ، مِثْلَ شَنْتِ مَرِيَّةَ ، ويسعى في إصلاح ما أفسد عليه ابن رَشِيق ؛ فإنه لم يَجِدْ إليه سبيلاً لِكَلْبِهِ عليه . ولما نهض إلى أَلْقُونش ، فأول ما سعى في تَصْغِيرِ طَلِيظَلَّةٍ إليه بِمُداخَلَةِ أهلها ، لِيَكُونُوا حَاكِمِينَ أَنْفُسَهُمْ ، وَيُوَدُّوا الْجُزْيَةَ لِلنَّصْرَانِي دُونَ رَئِيسٍ . وأتى طَلِيظَلَّةَ ، وابنُ ذِي النُّونِ فيها بِاسْمِ \* الرِّسَالَةِ ، ٣٣ (ب) ووافقَ على ذلك ، وَخَلَّه أَلْقُونشُ عليها ، في حين صَرَفَ حَاجِبَهَا إليها بعد خَلْعِ أهلها له ، لِيَقِيَّ له بِوَعْدِهِ ، ثُمَّ يَعْكِسُ عليه القَصَّةَ ، فَيُقْتَلُ . فسر لذلك ، وغلب حفيدُ ابن ذِي النُّونِ القَتَّةَ القائمة عليه . فقرَّ منهم ١٥ مَنْ خَلَصَ إِلَى أَلْقُونشِ ؛ وفرَّ ابنُ عَمَّارٍ .

ولما لم تَمْ لَهُ خِدْمَةُ أَلْقُونشِ فِي ذَلِكَ ، نهضَ إِلَى صَاحِبِ سَرَقُطَّةَ ، وَتَخَدَّمْ لَهُ خَبَرَ شَقُورَةٍ ( وَبِهَا ظُفَرٌ بِهِ ، وَوُجَّهٌ بِهِ إِلَى الْمُعْتَدِ ) . فلما ثَبَتَ أَنَّهُ اسْتَقَرَّ عِنْدَ ابْنِ هُودَ ، غَدَرَهُ فِيهَا — أَعْنَى مُرْسِيَّةَ — ابْنُ رَشِيقِ ، مَعَ اسْتِثْنَائِهِ لِأَهْلِ الْبَلَدَةِ ؛ وَاسْتَحْسَنُوا وَلايَتَهُ . ولم تكن لابن عمار بعد ذلك رَجْعَةٌ إِلَى مُرْسِيَّةَ ، وَصَارَ خَادِمًا عِنْدَ ابْنِ هُودَ صَاحِبِ سَرَقُطَّةَ . ٢٠ وَلَمَّا احْتَلَّ بِذَلِكَ الْقَطْرَ ، أَضْرَمَهُ نَارًا ، وَأَهَاجَ فِيهِ فِتْنَةً ؛ وَصَارَ سَفِيرًا

لِلإِفْرَنْجِ . وَأَمْرُهُ ابْنُ هُودَ ، وَقَرَّبَهُ ، رَجَاءَ مِنْهُ أَنْ يَنَالَ عَلَى يَدَيْهِ مَا نَالَ الْمُعْتَمِدُ ، لِذَلِكَ قَامَ لَهُ عِنْدَهُ مِنَ الطَّارُوسِ بِسَعَادَةِ صَاحِبِهِ ، لَا بِأَعْمَالِهِ . وَكَانَتِ الْعِدَاوَةُ الْوَاقِعَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُعْتَمِدِ عَلَى يَدَيِ الرَّشِيدِ ابْنِهِ ؛ فَإِنَّهُ ، بِفُسُوقِهِ ، كَانَ يَتَكَبَّرُ عَلَى أَوْلَادِهِ ، وَيَضَيِّقُ عَلَيْهِمْ ، وَيُسِيءُ الصَّنِيعَةَ ٥  
مَعَ مَنْ يَجِبُ عَلَيْهِ إِكْرَامُهُ مِنْ قَرَابَةِ سُلْطَانِهِ ؛ وَالْمُعْتَمِدُ ، فِي هَذَا كَلَّهُ ، يَصْبِرُ لَهُ ، وَلِأَنَّهُ كَانَ قَدْ اسْتَمَالَ النَّصَارَى ، وَانْدَخَلَ مَعَهُمْ بِحِيلَةٍ : فَقَى مَا دُمُ أَمْرٍ مِنْ قِبَلِهِمْ ، وَجَّهَ إِلَيْهِمْ ؛ فَيَنْجَلِي مِنْ أَمْرِهِمْ مَا يَضَيِّقُ الصَّدْرُ بِهِ ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ بِأَمْوَالِ رَأْسِيهِ وَسَعَادَةِ أَيَّامِهِ ، وَهُوَ يَجْهَلُ يَسْتَقْدُ أَنْ ذَلِكَ لَا يَتَهَيَّأُ إِلَّا بِسَبَبِهِ ، وَيَرُدُّ الْحَسَّ كُلَّهُ إِلَى نَفْسِهِ . وَكَانَتْ هَذِهِ الْمَعَانِي مِمَّا أَحْنَقَ عَلَيْهِ الْمُعْتَمِدُ ، حَتَّى عَقِبَ عَلَيْهِ بِمَا كَانَ جَدِيرًا بِهِ ، وَأَمَكْنَهُ اللَّهُ مِنْهُ ، ١٠  
وَجَازَاهُ بِمَا لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْهُ مُبْدًى ، وَلَا رَأْيَ لغيرِهِ أَهْلًا . وَكَانَتْ شَقُورَةٌ قَدْ أَخْلَاهَا الْمُعْتَمِدُ ، وَبَنَى صَاحِبُهَا — عَيْدٌ مِنْ عَيْدِ سِرَاجِ الدَّوْلَةِ — أَنْ يَضَعَهَا فِي يَدَيْهِ ؛ فَلَمَّا صَارَ\* ابْنُ عَمَّارٍ إِلَى مَرْقُوسَةَ ، نَهَضَ إِلَى الْعَبْدِ الْمَذْكُورِ ، ٣٤ (١)  
عَسَاةَ يَرْجِعُ إِلَى طَاعَةِ ابْنِ هُودَ ؛ فَتَقَفَّهُ وَأَرْسَلَ بِهِ إِلَى الْمُعْتَمِدِ ، وَعِنْدَ ذَلِكَ قَتَلَهُ شَرًّا قَتَلَهُ . ١٥

وَلَمَّا ابْنُ رَشِيقٍ بَعْدَ ذَلِكَ سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ الْخِلَافَ عَلَى الْمُعْتَمِدِ ، وَاحْتِجَّ بِأَنْ قَالَ : « لَمْ يُقَدِّمْنِي إِلَى مُرْسِيَّةٍ ! » وَزَعَمَ أَنَّ أَهْلَ الْبَلَدِ اخْتَارُوهُ ، وَأَنَّ مُقَدِّمَهُ إِنَّمَا كَانَ ابْنُ عَمَّارٍ مَتَى ذَهَبَ عَنْهَا . وَسَنَدَّ كُرَّ مِنْ أَمْرِهِ بَعْدَ هَذَا ، عِنْدَ ذِكْرِ أَحْوَالِ الرُّبَاطِينِ — أَعَزَّمَهُ اللَّهُ — وَقَصْدِهِمْ ٢٠  
إِلَى لَيْطٍ ، مَا انْقَضَى مِنْ خَبَرِهِ عَلَيْهَا مِمَّا هُوَ مَشْهُورٌ .

٤٠ - عقد الصلح بين عبد الله وبين المعتمد صاحب إشبيلية

لَيْسَ كُلُّ النَّاسِ عَلِمَ سِرَّ الْأَمْرِ كَالَّذِي نَصِفُهُ نَحْنُ . والدليلُ على ما قدَّمناه ذِكْرَهُ من ارتباطِ الْمُعْتَمِدِ إلى الْخَيْرِ وإِثَارِهِ للصلحِ بزوال هذا الفاسقِ ابنِ عَمَّارٍ عن دولته ، لم يُرَ بعده فِتْنَةٌ فيما بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ ؛ وَحَقُّ معنا في كُلِّ أَمْرٍ ، كَالَّذِي قَعَلْنَا نَحْنُ معه . وَجَدَدْنَا الْعَقْدَ على ما ارْتَضَيْنَاهُ من مُعَاوَضَاتٍ ، سِوَى مَا كَانَ قَدِيمًا بِيَدِهِ ، مِمَّا خَرَجَ عَنَّا فِي أَيَّامِ الْمُظَفَّرِ ، وَأَخَذَتِ الْفِتْنَةُ عَلَيْهِ حَقَّهَا ، ولم يوجَد في طَلَبِ ذَلِكَ خَيْرٌ ، ولا إلى غير الْمَصَالِحَةِ سَبِيلٌ ،

قَرَرْتُ الْأَحْوَالَ قَرَارَهَا ، وَتَهَيَّيْتُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا بِمُلْكِهِ إِلَّا مَا كَانَ ١٠ من سَيْفِ بَرَّانِي يَعْتَرِضُ بِلَادَنَا مِنَ الرُّومِ ؛ فَكَانَ الرُّزْمُ فِيهِ وَاحِدًا وَالْمُشَارَكَةُ سِوَاهُ ؛ وَإِنْ كُنَّا لَا نَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ بِالْإِمْدَادِ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ لضعفِ الْحَالِ ، فَكُنَّا تَشَارِكُ بِالْمُدَاخَلَةِ وإِعْمَالِ الرَّأْيِ وَالتَّحْذِيرِ من أَمْرٍ عَسَى أَنْ يَكُونَ خَفِيَ عَنِ الْآخِرِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ .

٢١ - الْمُؤَلَّفُ يَتَحَدَّثُ عَنِ مَنَهِجِهِ فِي كِتَابَةِ مُذَكَّرَاتِهِ

١٥ وَإِذَا أَتَيْنَا عَلَى ذِكْرِ جُمْلَةٍ من أَحْوَالِ الْأَنْدَلُسِ الْحَادِثَةِ فِيهَا ، الْمَشْهُورِ خَبَرُهَا حَسْبًا اسْتِغْنَاءً ، وَتَرَكْنَا وَصْفَ الْاِخْتِلَافَاتِ ، إِذْ يَوْجَدُ الْحَقُّ فِي طَرَفٍ وَاحِدٍ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْهَا مَا طَوَّلَعَ بِالشَّاهِدَةِ وَلَا بِالْمَعَايِنَةِ أَكْثَرَ من إِشَاعَةِ خَبَرٍ ، ذَكَرْنَا مِنْهُ مَا يَنْقَاسُ فِي الْعَقْلِ ، وَحَدَّثْنَا مِنْهُ الْإِكْثَارَ وَالْمُشْتَبَهَاتِ . وَإِنَّهُ ، مَتَى أَتَيْنَا عَلَى ذِكْرِ خَبَرٍ حَادِثٍ فِي دَوْلَتِنَا مِمَّا حَاوَلْنَاهُ

أو شاهدناه\* أظننا في وصفه ، وقتلناه عِلْمًا إلى آخره ، وأخبرنا بسرّه ٣٤ (ب)  
 عن جهّره ، وبأرقّ الأسباب فيه . والإطّابُ فيما يحاولُ الإنسانُ أبلغُ  
 وأنعتُ من وصف للشاهدة لغير ما يخصّه ، كما أن وصف للشاهدة ، وإن  
 كان لا نعيه ، أبلغُ من ذكر للمستفاض الذي لم يُوقَف على حقيقة ؛ فإنما  
 يُذكر منه ما يقبله العقل ، ثمَّ يَخْتَرِي واضِعُهُ على أن يضع فيه من عقله  
 ٥ دون الأغلب عليه عند العامة ؛ فيصير مُكذِّبًا .

ولهذا ما اختصرتنا من الكائنات للشهرة بالأندلس كثيراً من الأخبار  
 عنها ، واقتصرتنا على الإطّاب فيما يخصنا منها ، مما حاولناه أو رأيناه عيانًا .  
 والحقيقة من الخبر عَوْنٌ كبيرٌ على ما يرومُ الإنسانُ من صِغَةٍ في منظوم  
 ١٠ أو منثور ، كالمادح أو القام ؛ فإنه ، إذا وجد إلى القال سيلاً ، أظنَّ  
 وأبلغ ، وإن كانت بعض زيادة ، فإنها لا تمكن إلا في الأغلب والأكثر ،  
 ويكون في ذكر الأمرين مصداقاً لمَعْرِفَةِ الناس به ؛ ولأنّ كتابنا لم يكن  
 متبنيًا إلا على وصفٍ تملكنا خاصّة ، « والحديث ذو شجون » ؛ فلا بدّ  
 من ذكر جُمَلٍ من غيرها عند الحاجة إلى وصفه أو ضربٍ مثله به ،  
 ١٥ تزييناً للكلام وإقامةً للبرهان ودوراناً على الحقيقة .

## الفصل السادس

إمارة عبد الله بن بُلُقَيْن بن باديس ، مؤلف هذا الكتاب  
(٢) مشاكل غرناطة الداخلية إلى قدوم المرابطين

٤٢ - عزل الوزير سِمْجَاة

ثمَّ إجلالُه واستقلال عبد الله في الأمر

وإنه ، لما تهَدَّتْ لنا الأحوال وقرَّ مُلْكُنَا قَرَارَه بِمُصَالَحَةِ الْمُعْتَمِدِ ،  
وَمُعَاوَدَةِ الرُّومِ عَلَى الْمُهَادَاةِ ، وَتَوَطُّبِ النَّفْسِ عَلَى مَا نَعْطِيهِ <sup>(١)</sup> فِي الْعَامِ ،  
انصرفَ نَظَرُنَا إِلَى إِصْلَاحِ أَمْرِ بِلَادِنَا ، وَالتَّقَشُّرِ عَلَى رَعِيَّتِنَا ، وَالكَشْفِ  
عَلَى الْعُمَالِ إِنْ كَانُوا عَادِلِينَ أَوْ ظَالِمِينَ . وَلَمَّا شَعَرَ بِذَلِكَ خَدَمَتُنَا وَمَنْ كَانَ  
لَهُ مَذْهَبٌ فِي نَصِيحَتِنَا ، اتَّعَدَّ جَمِيعُهُمْ إِلَى الْإِعْلَامِ بِمَا عِنْدَهُ وَالتَّنْبِيهِ عَلَى  
مَا خَفِيَ عَنَّا زَمَانَ تِلْكَ الْفِتْنَةِ ؛ فَكُنَّا لَا نَقْبَلُ مِنْ أَحَدِهِمْ عَلَى الْآخِرِ إِلَّا بَعْدَ  
رُوبِيَّةٍ وَهَجُومٍ عَلَى الْحَقِيقَةِ ، حَذَرًا أَنْ يَكُونَ مَقَالُ أَحَدِهِمْ حَسَدًا لِلْآخِرِ  
أَوْ طَلَبًا لَا يُتَّقَى اللَّهُ فِيهِ .

وكان سِمْجَاة ، وزيرُ دَوْلَتِنَا الْمُتَضَمِّ ذِكْرَهُ ، قد شعرَ بِذَلِكَ وَأَحْسَنَهُ  
مِنَّا ؛ فَاغْتَمَّ لِلْأَمْرِ\* وَعَمِلَ فِي نَفْسِهِ ، وَشَكَاهُ إِلَى إِخْوَانِهِ ؛ وَكَانَ فِيمَا قَالَ (١) ٣٥  
لَهُمْ : « إِنَّمَا كُنَّا نَطْمَعُ بِالتَّحْكُمِ عَلَى هَذَا الرَّئِيسِ وَالتَّمَكُّنِ مِنْ دَوْلَتِهِ مَدَّةً

(١) أصل : « نطمو » .

- أيام صبوته ، يعنى صغر سنه . وأما الآن ، فلستنا نجد سبيلاً إلى رده  
عن دولته ، لا بقتة تحمينا ، ولا بصغر سن نجد به السيل إلى صرفه عند  
العامّة وتسفيه رأيه ، لاسيّما إذ كان رأيه النظر من دولته والبحث عنها .  
ف قيل له : « لست<sup>(١)</sup> نجد سبيلاً إلى أكثر من المداراة له ، والإتيان لمرغوبه ،  
وقلة الخلاف عليه لئلا يتمكن عدوك منك ، ويشقى حاسدك عليك . فهو ،  
إذا وجد منك الذى يرغب ، لم يلبث أن يُيل النظر والخدعة ويُفوّض  
الأمر إليك ! ثم أنت بالخيار عند غفلته وإقباله على راحته ! وعليك  
بإشغاله بالنساء ، وعجل له ابتياع الرقيق ! ولستنا نأمن أن يكون يشاك من  
تحجيرك هذه الشهوات عليه ؛ فإنه نظن به ما يُظن بمن كان فى سنه ! »  
١٠ ففعل ذلك . وكانت هذه الفترة التى دبرها من سعادتنا وتمكيننا من  
آمالنا فى الذى ذهبنا إليه من الاستبداد بملكنا ؛ فإنه شبك علينا المعاقل  
ببنى عمه ، وأشدّها علينا مدينة المنكب . فجعل يطلق لنا العنان فى كل  
ما نريد ، واشترى الرقيق ، وجعلنا نخرج إلى الزاهة فى البلاد ، يرى  
بنلك الإنصاف والتأنى ، إذ كان الرجل متنبّئاً ، خائفاً من سوء العاقبة ،  
مع أنه كان خائفاً من قبل ذلك من أجل كُتب استعملها على ألسنتنا  
١٥ أقوام من أعدائه إلى طائفة من صنهاجة يأمرؤن فيه بقتله ، ونحن براه  
منها ؛ فظفر بالكُتب ، وأنزل بنا التهمة ، وأمر بقتل أولئك المسمّين فى  
الكُتب ، وغيرهم ممن اتهم من كرائم باديس — رحمه الله .  
وكانت تلك المعاني مقدّمت مُقارِله لقرّائه . فلما كانت وجهتنا إلى  
٢٠ وادى آش عن اختياره ، وقد كنتُ علّتُ معتقده فى ذلك كله بالقياس

(١) أصل : « ليس » .



والتيّز مع بعض الأخبار ، قلتُ في نفسي : « هذا رجلٌ قد اعتاد الأمر\* ٣٥ (ب) والنهي ، ورأى من يَقْطَعُنا للدولة ما لم يكن يُريده ؛ وليس فعله هذا بهواه ؛ وكلُّ شيء يضطرُّ فيه الإنسان ، فإلَيْهِ لا يؤمن خلافه ، والرجة عنه ، والاستحالة فيه عند الأمن من مكروهه ! فنكون أبداً نكابد منه ما لا يوافق ! وإن فاتتني هذه المرة ، أَكُنْ كَمَنْ نُبِّهَ على أمرٍ وحذر من نفسه ، ثم أوبق نفسه إلى المضرات . وإن أغضينا هذه المرة وعاد إلى ما كان ، ثم تَرى منه خلافاً ، لم قدر عليه شيء ، إذ يكون نظره لنفسه أجود من هذا النظر ، فإن هذا الأمر منا جاءه فجأة لم يحسبه ولا ظنَّ به ؛ والفَرَصُ ثَمَرُ مرِّ السحاب ! فادْمُنَّا<sup>(١)</sup> نَحْنُ بالخيار عليه ، لا تَرَبِّصْ حتى يكون هو بالخيار علينا ! » ١٠

فأراد إشاعة عزّلتِه بالحضرة عند إمكانِ السَّفر ؛ فلم تَرَلْكَ وَجْهاً إلّا ونَحْنُ خارجون عنها ، ليكون أشنع في الناس وأقطع لِيَأْسِ الرعايا ، مع أنّي ، إذا حركتُ هذا بالحضرة ، دخلتُه الصّناعة ، وكتم عن الناس ، وشغبت امرأته من الدار . فلما وصلنا وادي آش ، جلستُ من يدوس إلى الرعيّة أن ترفع بمظالمها ؛ وكان عاملها ابنُ أبي جوش ، صنيعةٌ سَمَاجَة للذكور ؛ فأمرتُ عند شكواها بثقافه . فأنكر الناس ذلك ، وهان عليهم أمره . وجمعتُ الرعايا والوزراء ، وحددتُ لهم حداً يَقِفون عنده إلّا يمحوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ واسطة ؛ وأمرته هو بالتزام ما يخصه لنفسه ، وأن لا وزير لدولتي إلّا نفسي ؛ وحددت لكلِّ خادم ما تكون طريقته أن لا يتعدى سواها . فسرَّ بذلك جميع الوزراء ، إذ تساوت أقدامهم ، وانكشف حجابي لهم ، لكي تكون حوائجهم إلى ٢٠

دون مَنْ هو مِثْلُهم أو دونهم . واغبط الرعايا بعزلة الظلّة عنهم . وعزلتُ كلَّ من يُتهمُ بخيانة ، وقدمتُ عُثْلاً إلى الجهات ، أريد تجديد الدولة . وعزلتُ بنى عَمّه من الحصون ؛ ولقد كان فريقٌ منهم ، لما سمعوا بذلك ، يفرّون منها ويتركونها حتّى يوجّه إلى جُنْدُها عن قائدٍ . ولم نلقَ في ذلك \* كلّه مشقّة . ولم يبقَ إلّا ابن عمّ له ، صاحبُ المُنْكَب ؛ ٣٦ (١) فجزع ، إن تركه ، أن يوجد إليه السبيل بسببه ؛ فأخبرني بالأمر ، وسألني لإرسال قائدٍ إليه ، فعزل . وسأل زَاوِي زوالَ أخيه بَلْبَار عن وادى آش . فكان ذلك كلّه على أُنْكَن سعادة وأجود تقدير ، للذي شاء الله من تمام أيام وِزارته .

١٠ ثمّ أمنتُه في نفسه ، وأبقيتُ عليه جميعَ أمواله إلّا الذهب والفضّة ، وسوغتُه إنزالاً ينعاش فيه ، وأمرته بلزوم مجلسي وأنه مكرّمٌ طول حياته . فقبلَ الرجلُ ذلك كلّه ، وأطاعنا في كلِّ أمر أردناه دون خلاف ولا إظهارٍ لمقصية ؛ فإنّه كان جزوعاً ، قليلَ الجرأة على العظام ، ولأنّه لم يجد قسّةً تُعينه . ولنقّي بذلك أمنتُه في نفسه ، ومضى عليه دهرٌ طويلٌ على لزوم المجلس دون خدمة ، فلم يتركه . ١٥

وخاف منه مَنْ سعى في أمره من أهل الدولة ، وتوقعوا منه العودة ؛ فلم يزالوا يُعرون به ، وينقلون عنه من قبيح القول ، ويخافون من مغبة أمره ، ما لم نرَ منه وجهاً لإمساكه في البلدة ، احتياطاً على أنفسنا ؛ ورُبّما كدحت بعضُ تلك الأقاويل ، فهلكَ من أجلها . ولا استطعنا حينئذٍ ٢٠ على مُعاقبته لِمَا ارتكب في صدر الدولة من قتل أولئك النساءِ ومَنْ جرى مجراهنّ ، لشركته في ذلك مع سيّواه من شيوخ تلكاتّة ؛ فيسوه ظنّ

الجميع ، وتفسد من سببه الأحوال ؛ فلا يقوم فسادُ المملكة وسوء عاقبة الأمر بما يلزم من إقامة الحدِّ . فرأينا من الصواب أن يرتحل عنا دون تغيير ولا إبلاغ في عقوبة ، استمالةً لأنفس الناس ، وبَسْطاً لأموالهم . فخرج بجميع أثاثه وخدمه ودوابه وجميع ثيابه وفرشه ، مشيئاً إلى التريّة . فكان المعتصمُ يُكرمه من أجلنا ، ولا يئسُ أن نصرّفه إلى منزلته ، فيقدم ذلك الإكرامُ عنه . وخرّجت امرأته بجحلي كثيرٍ من الجواهر ، حاشى ما خفى عنا من المال ؛ \* وإنما صار إلينا ما أعطيناه بأيدينا من الذهب والفضة أوّل ولايتنا ، وقت فتّح بيت المال ؛ ولم تتحقّق ما اكتسب منها مدّة خدمته لنا ، ولا بحشنا عن ذلك .

١٠ ٤٣ — النزاع على الحدود بين مملكة غرناطة ومملكة المرية .  
تعاقب أحداثه وحله

ثمّ قمنا من بعده في أمور البلاد والرعايا بأحسن قيام وأتمّة ، وجعلنا الأمانة على البحث والتعقب ورفع المظالم إلينا . ودام الأمرُ على ذلك دَهْرًا طويلاً .

١٥ وإمّنه ، في إثر من مضى سِمَاجةً للذكور إلى التريّة ، بلفنا أنه حقر الدولة لابن صمّادح وطعمه فيها ، ليأ كان يرى من طمع الرجل الذي قد شهر به — رحمه الله — ؛ فإنه كان كثير الطمع ، قليل الجسر ، ضعيف المنّة . فعمل قوله في نفسه ، ورَجَا أن ينال على يديه فرصةً بمداخلته أو إدلالٍ على موضعٍ فائده ، كالذي تهَيَّأ له مع اليهودي .

٢٠ ووافق ذلك أن وقعت بين قائدَي النّظر ما بين فُتَيانَة والمُنْتوري

مُشَاجَرَةٌ عَلَى الْجِهَاتِ ؛ وَلَمْ يَتَيْمًا حِيَازَةً ذَلِكَ النَّظَرُ إِلَّا بُنَيَّانِ الْمُتَنَوِّرِي  
 الْمَذْكُورِ . وَقَدْ كُنْتُ ، عِنْدَ وَجْهِهِ إِلَى فَنِيَانَةٍ ، أُرْسِلْتُ إِلَيْهِ رَسُولًا يَعْلَمُهُ  
 بِوَرُودِي عَلَيْهِ ، وَسَأَلْتُهُ تِلْكَ الْقُرَى لِلصَّاقِبَةِ لَهَا وَإِنَّهَا أَوْلَى بِذَلِكَ الْمُعْقِلِ  
 لِقُرْبِهَا ، وَتَطَارَحْتُ عَلَيْهِ فِي الْمَكَارِمَةِ بِهَا ؛ فَكَانَ مِنْ جَوَابِهِ لِلرَّسُولِ :  
 « هَيْهَاتَ ! لَيْسَتْ <sup>(١)</sup> تُمْلَأُ الْأَقْطَارُ إِلَّا بِالْبُنْيَانِ وَالسَّيْفِ ! » فَلَمَّا عَلَتْ مُهِمُّ  
 ذَلِكَ الْحِصْنِ عَلَى الْعَرِيَّةِ ، وَبَلَغَنِي مَا كَانَ مِنْ تَطْمِيعِ سِمَاجَةٍ ، وَتَذَكَّرْتُ  
 مُرَاجَعَتَهُ عَنِ الْقُرَى ، أَغْضَبَنِي ذَلِكَ وَلَمْ نُؤَخَّرْ أَنْ عَاجَلْنَا بُنْيَانِ ذَلِكَ الْمُعْقِلِ .  
 قَامَ عَلَى الْقَامِ بِالْحِدِّ وَالْقُوَّةِ ، وَجَعَلْنَا فِيهِ حُمَاةَ الرِّجَالِ ؛ وَضَاقَتِ الْعَرِيَّةُ  
 مِنْ أَجْلِهِ ؛ وَاحْتَبِيجَ إِلَى بُنْيَانِ مَعَاوِلَ غَيْرِهَا ، تَوَقُّعًا أَنْ نَسْبِقَ إِلَيْهَا ،  
 ١٠ فَيَكُونَ عِوَضًا عَنِ الْمُتَنَوِّرِي . قَامَ بُنْيَانُهَا عَلَى سَاقٍ ، وَصَارَتْ كُلُّهَا حَرْزًا  
 لِلجِهَاتِ الَّتِي لَنَا ، وَأَقْفَالًا عَلَيْهَا ، وَضَرَرًا عَلَى جِهَاتِ الْعَرِيَّةِ . فَحِيلَ بِالْأَمْرِ ،  
 وَضَاقَ بِهِ ذُرْعًا ؛ وَكَانَ لَا يُوجِّهُ \* عَسْكَرًا إِلَى مَوْضِعٍ إِلَّا هُزِمَ ؛ وَأَسْرَتْنَا ٣٧ (١)

كِبَارَ رَجَالِهِ عَلَى طَرْلُكَبَشِ .

وَكَانَ عِدَّةٌ مَا بُنِيَ عَلَيْهِ سَبْعَةُ حَصُونِ . وَكُنْتُ مَعَ هَذَا أَمْرٍ <sup>(٢)</sup> أَهْلَهَا  
 ١٥ بِالرَّفْقِ وَحَرْزِ جِهَاتِهَا أَلَّا يَطْرُقَ إِلَيْنَا طَالِبُ شَرٍّ . وَإِنِّي إِنَّمَا بَيَّنَّيْتُهَا صَوْلَةً  
 وَتَهْيِيبًا ، حَتَّى نُصَالِحَ الرَّجُلَ عَلَى مَا يَقَعُ بِمَوَاقِفَتِنَا ، وَيَعْرِفَ أَقْدَارَنَا .  
 وَإِنَّهُ ، لَمَّا ظَهَرَ مِنْ كَلْبِ الرُّومِ عَلَى الْأَنْدَلُسِ مَا ظَهَرَ ، وَرَأَيْتُ نَفْسِي  
 ظَافِرَةً مَتَى رُمْتُ مَعَ ابْنِ صَمَادِحٍ فِتْنَةً ، وَتَيَّيَّنَ لِي ضَعْفُهُ عَنِ الْمُنَاطَرَةِ ،  
 صَرَفْتُ نَفْسِي عَنِ التَّمَادِي وَالْإِلْحَاحِ ، وَقُلْتُ : « أَنَا فِي مِثْلِ هَذَا مُدْرِكٌ ! »  
 ٢٠ لَا يَفُوتُ مِنَ الْأَمْرِ مَتَى أَرَدْتَاهُ شَيْءٌ . وَحَسَبْنَا مَا قَدْ ظَهَرَ إِلَيْنَا ؛ فَالْإِبْقَاءُ

(١) أصل : « ليس » . (٢) أصل : « نأمر » .

أُولَى ، وإصلاحُ الأمر مع الجار - وجارٌ ضعيفٌ يُتَّقَى عليه - خَيْرٌ من تَهْيِئَتِنَا لِقَوِيٍّ لا يُرامُ ! ولقد كان المظفرُ على بصيرةٍ من إثباته لدولته وإبقائه عليه ؛ ولنا فيه أسوةٌ وقدوةٌ ! »

فصَالَحْتُ الرَّجُلَ ، وَأَمَرْتُ بِهِدْمَ تِلْكَ الْحِصُونِ ؛ وَنُشِرَتْ لِلرَّيَّةِ مِنْ كَفَنِ . وَتَمَكَّنَ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَدَنَا ، وَصَارَ أَصْدَقَ النَّاسِ لَنَا :

وَلَا خَيْرَ فِي حِلْمِهِ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ بَوَادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكَدِّرَا فَلَمْ نَزَلْ مُتَعَاذِينَ مُتَشَارِكِينَ فِي الْحَلُوِّ وَالْمُرِّ إِلَى انْصِرَامِ الْأَجَلِ ،

٤٤ - توجيهِ عسكر ضدَّ تميم بن بُلُقَيْن صاحب مَالَقَة وأخى المولَّف ، ونصره إِيَّاه

١٠ نَحْمُ لَمْ نَلِثْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا بِسِيرًا حَتَّى جَاءَنَا مِنْ أَخِينَا تَمِيمِ خَمَةٌ لَمْ نَحْتَسِبْهَا بَعْدَ أَنْ رَأَى ظَهْرَنَا ، وَصَلَحْنَا مَعَ سُلَاطِينِ الْأَنْدَلُسِ ، وَمَا صَنَعَاهُ بِجِهَاتِ الْمَرِيَّةِ ، لَمْ يَفْرُقْ بَيْنَ هَذِهِ الْحَالَةِ وَالْحَالَةِ الْأُولَى ، لِفَرَارَةِ الصَّبَا وَقَتِ اصْطِكَاكِ النَّفْتَنِ وَالشَّعْلِ الشَّاهِلِ . فَحَسِبَ الزَّمَانَ كُلَّهُ وَاحِدًا . وَلَمَّا سَكَبَتْ عَنْهُ قَبْلُ ، لِهَذِهِ الْعِلَّةِ عَلَى مَا قَدَّمْنَا ذَكَرَهُ مِنْ بَدَأِ أَمْرِهِ ، تَمَادَى عَلَى تِلْكَ الْأَفْئَالِ . فَأَرْسَلَ قَطَائِمَهُ إِلَى حَرْبِ الْمُتَكَبِّ وَشَاطِطِ ، وَخَوِيلَةً فِي إِثْرِهَا لِلضَّرْبِ عَلَى النَّظَرِ لِلْمُصَاقِبِ لَهَا . وَأَتَانِي أَهْلُ تِلْكَ الْجِهَاتِ شَاكِينَ بِالْأَمْرِ ؛ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي :

« هَذَا لِنَاسٍ لَمْ يُبَصِّرْهُ النَّهْرُ ، وَلَا حَكَمْتُهُ التَّجَارِبُ : وَمَتَى تَرَكَنَاهُ \* عَلَى ٣٧ (ب)

هَذَا ذَاتِبًا ، وَلَمْ نُؤَدِّبْهُ عَلَيْهَا ، تَمَادَى شَرُّهُ ، وَحَسِبَ أَنَّ ذَلِكَ لِهَيْئَتِهِ ؛ فَازْدَادَ ، وَلَا تَنْفَعُ فِيهِ مَوْعِظَةٌ وَلَا قِيلٌ ! » فَلَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ تَأْدِيبِهِ وَزَجْرِهِ ، فَإِنَّ الشَّيْءَ تَحْقَرَهُ

٢٠ وَقَدْ يَنْبَغِي ! وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ الْإِغْضَاءُ لِمَعَانٍ تَوَقَّعْتُ ، وَانْتَظَرْتُ بِهِ لِحَسَنِ الْعُودَةِ

وروية البصرة . فإذا قد يَتَسَنَّأ من هذا وأَمِنَّا ما يُشْغِلنا عنه ، فَتَرَكْهُ على هذه الضلالة من العجز والخرق ! »

وَوَافَقَ ذَلِكَ الزمان اشتغالُ الْمُتَعَمِّدِ بأمرِ الْفُونَشُ ؛ فَإِنَّهُ نَازَلَ إِشِيلِيَةَ لِنَبَاطَاتِ تَسَبَّبَ بِهَا ؛ وَضَاقَتِ الْحَالُ مِنْ أَجْلِهِ . فَاتَّفَقَ الْأَمْرُ وَتَهَيَّأَتِ الْأَسْبَابُ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ وَاتِّهَازِ فُرْصَةٍ . فَهَضُنَّا بِأَنْفُسِنَا إِلَى ذَلِكَ الْقَطَرِ ؛ فَوَاللَّهِ ! مَا سَمِعَ بَنُو أَهْلِ حَصُونِهِ ، وَلَمْ تَتَدَارَكْ بِالْخُرُوجِ صَبِيحَةَ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، حَتَّى وَرَدَ عَلَيْنَا عَنْ حِصْنِ الْقَصْرِ بِجَهَةِ صَالِحَةٍ أَنَّهُ صَارَ فِي مِلْكِنَا وَطَاعَتِنَا رَعِيَّتُهُ ؛ وَهُوَ حِصْنُ أَوَّلُ مَنْ يَطُوعُ وَآخِرُ مَنْ يَعْصِي لَدَوِي النُّلْبَةِ وَالظُّهُورِ ؛ فَاسْتَبَشَرْنَا بِذَلِكَ ، وَصِرْنَا إِلَى الْحِمَّةِ ، نَزَّوْمٌ مِنْهَا أَمَرَ ذَلِكَ النَّظَرُ . فَأَعْلِمْتُ بِصَخْرَةِ دُومِسَ ( وَلَا مَعْنَى لِرِيَّتِهِ إِلَّا بِهَا ، وَهِيَ مُوسَطَةُ الْبَلَدِ ) ، وَقَدْ اجْتَمَعَ فِيهَا جُلُ عَاكِرٍ مَالِقَةٍ مَعَ قَوَادِ صَاحِبِهَا ؛ فَلَوْ انْتَزَعَتْ تِلْكَ الشُّوكَةُ ، كَانَ أَمْرُ غَيْرِهَا يَسِيرًا هَيِّنًا . فَاسْتَعَدَدْنَا لِقَاتِلَهَا ، وَضَارَبْنَاهُمْ فِي أَوَّلِ النَّزْوِعِ عَلَيْهَا . فَجَزَعَ مَنْ فِيهَا مِنَ الْجُنْدِ ، وَأَرْسَلُوا إِلَيْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ يَطْلُبُونَ الْأَمَانَ ، وَيُخْرِجُونَ بِخِيْلِهِمْ سَالِمِينَ فِي مَهْجِهِمْ . فَأَجَبْتُهُمْ إِلَى ذَلِكَ ، عَسَى أَنْ نَكُونَ نَسْتَمِيلُ غَيْرَهَا بِهَذِهِ الْأَيْدِي ؛ وَأَخْلَوْا الصَّخْرَةَ ، وَصَارَ فِيهَا جُنْدُنَا .

وَانْتَقَلْنَا عَنْهُمْ إِلَى حِصْنٍ كَانَ صَاحِبُهُ مَالِقَةً قَدْ بَنَاهُ لِقَطْعِ الطَّرِيقِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ أَوَّلَ قِيَامِهِ ، عَلَى مَا رَسَمْنَاهُ ؛ فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا سَاعَةً قَدُومُنَا عَلَيْهِ وَتَحَاذَلَ مَنْ فِيهِ ، وَدَخَلَ قَسْرًا ، وَهُوَ حِصْنُ أَشْتَنِيرِ . ثُمَّ نَهَضْنَا إِلَى مَرِيَّةَ بَلَشْ ؛ فَأَلْقَتْ يَدَهَا . وَأَرَدْتُ التَّمَادِي إِلَى بَرْلِيَانَةٍ .

٢٠ وَكَانَ كِتَابُ \* بِنُ تَمِيمٍ صَاحِبُ أَرْجُدُونَةِ ، قَائِدُنَا ، قَدْ اسْتَفْلَكَ ٣٨ (١) فِي تِلْكَ الْجَهَةِ ، وَزَعَمَ أَنَّهُ لَا يَتَعَزَّلُ إِلَيْنَا . فَلَمَّا رَأَى ظُهُورَنَا فِي هَذِهِ الْمَعَاوِلِ ،

خاف أن يَصْقَوْا الجَوْ وَيَصْرِفَ البَالُ إِلَيْهِ ، فرام أن لَا نَصِلَ إِلَى بَزِيلِيَانَةَ  
وحذّر من ذلك . وكان وراءنا حِصْنٌ مُنْتِ مَاسَ ، رَأَيْتُ أَنَّهُ لَا تَمَكَّنَ  
لَنَا مُنَازَلَةً مَالَقَةً إِلَّا بِالرَّاحَةِ مِنْهُ ؛ فَإِنَّهُ يَمْنَعُ لِلْمِرَّةِ إِلَى الصَّحَلَاتِ . فانصَرَفْنَا  
مِنْ بَزِيلِيَانَةَ نَرِيدُ مُنْتِ مَاسَ الْمَذْكُورَةَ ، وَأَظْهَرْنَا لَكِبَّابَ الْأَخْذِ بِرَأْيِهِ ؛  
فسرّ بذلك .

ولما نهضتُ إِلَى مُنْتِ مَاسَ ، رَأَيْتُ مُعْقِلًا عَظِيمًا ، قَدْ اجْتَمَعَتْ بِهِ جَمِيعُ  
الرَّعَايَا ؛ فَعَرَضْنَا عَلَيْهِمُ الطَّاعَةَ ؛ فَأَبَوْا ، خِيفَةً مِنْهُمْ أَنْ يَكُونُوا غَدًا نُهَالِحُ  
أَخَانًا وَيُعَاقِبُهُمْ ؛ فَأَمْنَانَاهُمْ مِنْ ذَلِكَ . وَاجْتَمَعَ فِيهِ كُلُّ فَاسِقٍ مِنْ أَهْلِ الشَّرِّ ،  
وَأَعْرَضْنَا عَلَيْهِمُ الْحَرْبَ بِأَنْفُسِنَا ، وَتَرَكْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، وَرَتَبْنَا عَلَيْهِمُ الرُّتَبَ  
وَانصَرَفْنَا إِلَى غَرْنَاطَةَ . وَفِي انصِرَافِنَا ، طَاعَتْ لَنَا غَيْرُهَا مِنَ الْعَاقِلِ ، مِثْلُ  
أَيْرُشَ وَصَخْرَةَ حَيِيبَ . وَكُنَّا فِي أَوَّلِ وَجْهَتِنَا قَدْ أَخَذْنَا رِيْقِنَةَ بِالسِّيفِ  
قَسْرًا ؛ وَطَاعَتْ لَنَا جُطْرُونُ ؛ وَهُمَا قَصَبَتَا مَالَقَةً . وَطَارَتْ فِي تِلْكَ الْمَدَّةِ عَنْ  
يَدَيْهِ عَشْرُونَ مُعْقِلًا . وَانصَرَفْنَا إِلَى مُنْتِ مَاسَ ثَانِيَةً ؛ وَيَتَسَوَّاهُ مِنْ تَرْكِهِمْ ،  
وَطَاعَ أَهْلُهَا ؛ وَتَهَقَّتْهَا ؛ وَهَدَمْنَا مِنَ الْحِصُونِ مَا نَسْتَعْنِي عَنْ إِمْسَاكِهَا  
بَنِيهِ ؛ وَأَمْنَتُ الْجِيَهَةَ وَبَحَثْتُ عَنْ فَوَائِدِهَا ، وَصَارَ ذَلِكَ مُقَيَّدًا ؛ وَأَوْسَعْنَا  
أَهْلَهَا خَيْرًا .

ولما رَأَى أَخُونَا مَا دَهَمَهُ مِنَ الْأَمْرِ ، وَقِيَامَ رَعِيَّتِهِ عَلَيْهِ ، خَافَ عَلَى نَفْسِهِ  
مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ ، مَعَ تَبَرُّزِنَا نَحْنُ عَنْ مَالَقَةٍ فِي حِينِ أَخْذِ مُنْتِ مَاسَ . وَاشْتَغَلَ  
بَعْضُ النَّاسِ بِقِتَالِ انْحَاذُوا إِلَيْهِ دُونَ مَوْضِعِنَا ، وَتَبِعَهُمْ أَكْثَرُ عَسَاكِرِنَا ،  
فَاشْهَزَ أَهْلُ مَالَقَةِ الْفُرْصَةِ ، لَمَّا رَأَوْهُ مِنْ قَلَّةٍ مَنْ فِي الْمَوْكِبِ مَعَنَا ، وَخَرَجُوا  
عَلَى بَابِ فُنْتَنَالَةَ ، وَحَلَوْا عَلَى \* الْمَسْكَرِ حَمَلَةً اخْتَلَطَ فِيهَا الْقَرِيقَانِ . وَلَمَّا رَأَيْتُ ٣٨ (ب)

يُفَارِ مَنْ مَعَاوَاخْتِلَاطَهُمْ بِجُنْدِ مَالِقةَ ، أَمْسَكْنَا عَلَى الْعَلَامَاتِ ، وَأَمَرْنَا بِضَرْبِ  
الطَّبْلِ بَعْدَ تَوَلَّيْهِ ، حَتَّى اجْتَمَعَ إِلَيْنَا بَعْضُ النَّاسِ لَمَّا رَأَوْا ثُبُوتَ الْعَلَامَاتِ .  
ثُمَّ كَانَتْ لَنَا عَلَيْهِمُ الْكُرَّةُ ، بَعْدَ أَنْ أُسِيرَ بَعْضُ رِجَالِنَا ؛ فَأَنْقَذُوهُمْ ، وَهَزَمُوا  
عَسْكَرَ مَالِقةَ ؛ وَكَانَ بِهَا مِنْ جُنْدِ الْبَرَبَرِ نَحْوُ ثَلَاثِمِائَةِ فَارِسٍ وَأَنْجَادٍ ، إِلَّا أَنَّ  
الْحَزْمَ دَاخَلَهُمْ ، وَنَزَعَ إِلَيْنَا أَكْثَرَهُمْ . ٥

وَلَمَّا رَأَى بَعْضُ مَنْ مَعَانَا تِلْكَ الْهَزْهَزَةَ ، أَشَارَ عَلَيْنَا بِالْإِنْصِرَافِ ، وَخَوَّفَنَا مِنْ  
تَقْوِيَةِ ابْنِ عَبَّادٍ أَنْ تَدْخُلَهَا مَا لَا يُمَكِّنُ ؛ فَقُلْتُ : « إِنْ الْإِنْصِرَافُ عَلَى  
هَذِهِ الْحَالَةِ تَجَرُّا وَسِيَّيحٌ فِي الْجِهَةِ كُلِّهَا أَنْ رَجَوْعَنَا لَمْ يَكُنْ إِلَّا عَنْ هَزِيمَةٍ !  
فَالْأَوَّلَى أَنْ نَكْسِرَ يَوْمَيْنِ نُبَرِّزُ فِيهَا كُلَّ يَوْمٍ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي اتَّخَذْتُمْ فِيهِ  
الْخَيْلُ ، نُزَيِّهِمْ : إِنْ كَانَتْ بِكُمْ قُدْرَةٌ ، فَمُؤَدِّدًا مَا فَعَلْتُمْ ! » وَتَقَنَّنْتُ الْعَسْكَرَ  
لَثَلَا يَطِيشُ مِنْهُ أَحَدٌ . فَكَانَ ذَلِكَ . وَأَقْلَعْنَا بِعِزَّةٍ حَتَّى وَصَلْنَا نَظَرَنا عَلَى  
أَتَمِّ مَا يُمَكِّنُ . وَلَوْ رَفَعْنَا أَوَّلَ تِلْكَ الْوَهْلَةِ ، خَلَّتْ جَمِيعُ الْعَاقِلِ الَّتِي طَاعَتْ  
لَنَا ، وَكَأَنَّنا مَا صَنَعْنَا شَيْئًا .

فَبَيَّيْتُ الْحَالَ ضَيْقَةً عَلَى مَالِقةَ . وَأَرْسَلْتُ إِلَيْنَا أَخُونَا ، يَسْتَعِظُ وَيَسْأَلُ  
الْعُقُورَ وَإِقَالَةَ الْعَثَرَةِ . فَدَبَّرْنَا أَمْرَهُ فِي أَنْفُسِنَا ، وَعَمَلْنَا فِيهِ رَأْيًا سَدِيدًا ،  
وَعَلِمْنَا مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَرَصِ وَالشَّرِّ وَالْخِدَّةِ ، وَأَنْ صَرَفَ الْعَاقِلِ إِلَيْهِ  
تَقْوِيَةً لَشَرِّهِ ، وَأَنَّهُ ، إِنْ عَاوَدَ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ ، لَمْ يَقْدِرْ لَهُ عَلَى شَيْءٍ ،  
وَلَا تَطْوِيعَ بَعْدَهَا رَعِيَّتُهُ إِنْ أَرَدْنَا أَنْ نَبْعُدَ ، لَمَّا يَرَوْنَ مِنْ إِسْلَامِنَا لَهُمْ  
إِلَيْهِ ، وَخَافُوا أَنْ يُعَاقِبَهُمْ ، مَعَ مَا كَانُوا يَنْقُمُونَ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ الطَّرِيقَةِ  
مَعَهُمْ ، يُعْلِنُونَ بِذَلِكَ ؛ وَأَخَذُوا مِنَّا مِيثَاقًا غَلِيظًا أَلَّا نُسَلِّمَهُمْ إِلَيْهِ ، وَعَاهَدْنَا أَنْ  
عَلَى ذَلِكَ بِأَيِّمَانٍ مُغَلَّظَةٍ . وَظَهَرَ مِنْ أَقْوَالِهِمْ أَنَّهُمْ ، مَتَى رُدُّوا إِلَيْهِ ، لَمْ



يُجِيبُوا\* ، وأدخلوا الباخلَةَ ، وصَيَّرُوهَا إلى رَئِيسِ غَيْرِنَا . فَخَفِنَا مِنْ هَذِهِ ٣٩ (١)  
الوجوه ما يجب أن يتوقع .

ثُمَّ لَمْ تَرَ وَجْهَهَا فِي الْإِلْحَاحِ عَلَيْهِ ؛ فَرُبَّمَا أُخْرِقَ ، وَصَيَّرَهَا إِلَى سِوَانَا ،  
كَالَّذِي صَنَعَ مَا كَسَنَ غُنًا بِجَبَّانٍ ؛ فَتَكُونُ مُصِيبَةً لِلْبَلَدِ ، وَعَارًا عَظِيمًا ،  
٥ مِنْ تَوَلِّيجِ أَخِينَا وَشَقِيقِنَا إِلَى غَيْرِنَا ، وَتَقْرِيهِهِ فِي الْبِلَادِ ، وَأَثَمُهُ فِي قَيْدِ الْحَيَاةِ ؛  
وَلَوْ لَمْ تَكُنْ ، فَأَبْقَيْنَا عَلَيْهِ ، وَقَدْ أَذْبَنَاهُ<sup>(١)</sup> بِمَا كَفَى ، وَوَسَمْنَا عَلَيْهِ فِي  
النَّظَرِ مِمَّا لَمْ تَبْقَ فِيهِ مِنَ الرَّعِيَّةِ ، وَكَانَ مُهِمًّا عَلَيْهِ ؛ وَأَخَاتَيْنَا لَهُ رُبَيْنَةً  
وَجُطْرُونَ ؛ فَإِنَّ رَعِيَّتَهَا نَصَارَى ، وَهُمْ بَيْنَ النَّظَرَيْنِ ، لَا يَقْدِرُونَ عَلَى نِفَاقٍ  
مَعَ أَحَدٍ ؛ وَأَعْطَيْنَاهُ قُرَى يَتَسَّعُ فِيهَا لِمُرَاقَبَتِهِ . وَبَقِيَتْ يَدُهُ حُصُونُ الْغُرَبَاءِ  
١٠ مِثْلَ قَرْطَمَةٍ ، وَمِيشَشَ ، وَحَارِشَ ؛ وَأَعْطَيْنَاهُ قَامَرَةَ ، بَلَدَ الزَّرْعِ ، لِيَتَسَّعَ  
فِيهَا لِلْحَرْثِ . وَحَرَمْنَاهُ غَيْرَهَا ، الَّتِي يَتَوَقَّعُ مِنْ أَهْلِهَا وَمِنْهُ : إِنْ اسْتَأْسَدَ  
بِهَا ، لَمْ يَوْثَمِنْ شَرَّهُ .

وَبَقِيَتْ حَالُهُ فِي أَفْضَلِ الْأَحْوَالِ ، مَارَضِيَتْ بِهِ الْوَالِدَةُ وَحَمْدَهُ جَمِيعُ  
النَّاسِ ، صِلَةَ الرَّحْمِ ، وَعَفْوًا عِنْدَ الْقُدْرَةِ ، وَتَأْدِيبًا لِمَا يَخْشَى عَاقِبَتَهُ . وَقَرَّ  
١٥ حَالُهُ قَرَارَهُ ، وَنَفْسُهُ فِي هَذَا عَلَيْنَا حَاقِدَةً ، تَبْلُغُنَا عَنْهُ أَقَاوِيلَ سَيِّئَةٍ ؛  
وَنَحْنُ لَا نَمْرُجُ عَلَيْهَا وَقُولُ : « إِضْرَارُهُ بِالْقَوْلِ خَيْرٌ مِنْ إِضْرَارِهِ بِالْفِعْلِ ،  
لَوْ صَرَفْنَا إِلَيْهِ الْعَاقِلَ ! وَعَلِمْنَا أَنَّهُ فِي عَافِيَةٍ وَنِعْمَةٍ طَائِلَةٌ مِمَّا عِنْدَهُ مِنَ الْأَمْوَالِ  
الَّتِي تَرَكَ جَدُّهُ بِمَالَقَةٍ ، لَمْ يَحْجُجْ قَطُّ إِلَى نَفَقَةٍ دِرْهَمٍ مِنْهَا ، وَلَا نَالَتَهُ فِتْنَةٌ ،  
وَلَا بَلَّغَتْهُ مَكْرُوهٌ ؛ وَكُنَّا نَحْنُ أَمَانُهُ نُقَاتِلُ عَنْهُ الْعَرَبَ وَالْعَجَمَ ، وَنُعْطِي عَنْهُ  
٢٠ الْجِزْيَةَ ، وَهُوَ فِي دَعَاةٍ ؛ فَلِذَا كَانَ يَدُهُ فَوْقَ مَا يَكْفِيهِ لِقَلَّةِ تَمَوُّنِهِ وَاحْتِيَاجِهِ

(١) أَسْلَ : « وَدَبْنَاهُ » .

إلى نفسه في التَّوَن<sup>(١)</sup> والنِّفَاق ؛ فَإِنَّ هَذَا كَثِيرٌ ، وهو تحت نِعْمَةٍ ! »  
 فطابت أَنْفُسُنَا على ذلك . وَكَفَّ هو عن كثير مما كان يرتكب من القتل  
 والظلم ، حتى أَنَّهُ لَا يَرِدُنِي من عنده رسولٌ من أهل بَلَدِهِ أَوْ جُنْدِهِ\* ٣٩ (ب)  
 إِلَّا وَيُوصِي أَنْ نَشُدَّ يَدِي عليه ، ويقول لي : « بتأديبك له فَلَحْنَا وَكَفَّ  
 عَنَّا ، وَإِنَّهُ ، متى يَأْمَنُ منك أَمْرًا ، طغى علينا ، وشقينا به . وما في الدنيا  
 أَشْعَرُ منك في إِمْسَاكِ تلك التعاقيل عنه ؛ فَإِنَّكَ كُنْتَ بعد هذا لا تلجمه  
 أَبَدًا ! » فخرجت الأمور خَيْرَ خَرَجٍ ، وَأَمَّا جِهَتُهُ بِسْتَرِهِ في مكانه ، ولم  
 نفجع فيه أَمَّهُ .

#### ٤٥ — ذكر ثورة كَبَّابِ بْنِ تَمِيمٍ وثورة بني تاقنوت

ونهايتهما

١٠

وإنَّ كَبَّابَ بْنَ تَمِيمٍ ، قائدنا بَارِجُذُونَةَ وَأَنْتَقِيرَةَ ، لما رأى ظهورنا  
 على مَالَقَةِ ، أَكْبَرَهُ ذلك وشقَّ عليه ، وَعَلِمَ أَنَّ الْأَمْرَ مَنْجِزٌ إِلَيْهِ ، إذ  
 كان قد أَضْمَرَ نِفَاقًا وطاعةً في مَعْصِيَةٍ ، لِمَا تَأَسَّسَ له هناك في حين الفتنة  
 من ضَمِّ الْأَطْعِمَةِ ، والاستحواذ على أموال الناس بِقَطْعِهِ السُّبُلِ ، وانقطاع  
 أهل الشرِّ إليه من كلِّ قَطْرِ . وكان أمرُهُ من ذُنُوبِ سِمَاجَةِ عندنا ، ١٥  
 الذي سوَّغَه البلد ، وجعله مِلْكًا في يده ويدي بني عُمَ ، حتى شقَّ به .  
 ولما تَمَّ صَلُحُنَا مع الْمُعْتَمِدِ بْنِ عُبَادٍ ، خَالَفْنَا فيه ، وجعل يُفسد وبنقض  
 ما أَيْزَمْنَاهُ من ذلك ، ولا يقرُّ عن الضرب . فَجَمَلْتُ أَقْدَمُ إِلَيْهِ التَّوَنَ بعد  
 المَرَّةِ ، وَأَنْذَرُهُ عَاقِبَةَ اتِّبَاعِ هَوَاهُ ، وَأَقُولُ له : « إِنَّ الْمَصَالِحَةَ وَفَقَا يَنْبَغِي

(١) أصل : « التَّوَن » .

للسوء حفظها ؛ فإذا أفسدتها ، فانت من اللطالين لي ا « فلا يزدجر مع هذا كله ، ولا ينفع فيه وعظ ، لإعجابه وتحمقه . وكانت كتب المعتد أبداً ترد بالشكوى منه ؛ فأضمر لنا من كفه غائلة . وكانت من سعادتنا أنه لم يحمل المعاملة مع أحد الفريقين .

- ٥ فلما طال الشكوى به ، قلت لرسول المعتد : « لا أستطيع على عزل كباب إلا بالمجاهدة في مفاسدته ؛ فإن استوتقنا منكم أن يترأى عليكم ولا يقبلوه ، فنحن ضامنون لمرزله ا » فارتبط معي على أن لا قبل له رجعة ولا يُقال له عثرة . فألحخت على كباب في أن ينزل عن المعتلين ، ثقةً مني بما ربطته مع المعتد ، فزاد طغيانه ، وخاطب على المقام إلى ابن عباد ، \* يرغب في تصير الحصون إليه . فأرسل إلى المعتد بكتابه ،
- ١٠ وحضني على شد اليد عليه والراحة منه ؛ ففعلت ذلك . وهذا مما تقدم ذكره من إنصاف المعتد لنا وقلة خلافه علينا منذ فارق ابن عمار ، كالذي أجملنا نحن معه في أمر بياسة ، وقت نفاق أهلها وأرسلت كتابهم إليه . وإن كباباً قبل ذلك ، لما رأى صديقنا بمالقة ، على ما قدمناه ، نظر
- ١٥ - في زعمه - لنفسه وقال : « هذا ما صنع بأخيه ا وطاعت له الرعايا ا فكيف بمن هو عبد من عبيده ؟ » وأحسن ذلك في نفسه ابن تافنوت ، صاحب مدينتنا ؛ وكان امرء سوء ، كثير الطغيان ، بعيداً من الخير ، مؤثراً للشر ، وكان له أخ بمحسن جريشة ، قد سوغه أيضاً سماجة إقليم نيمش كله ، وطال مكثه في الحصن سبعة أعوام ؛ فسوّلت له نفسه ، مثل ما أضمر
- ٢٠ كباب من النفاق ؛ فتعاقدًا جميعاً وتحالفاً أن لا ينزل أحدهما إلا بعزلة الآخر .

فشعرتُ للأمر ؛ فأولُ ما ابتدأتُ به النَّظَرُ في أمر ابن تاقنوت ، إذ كان أهمَّ علينا من أجل مدينتنا التي كانت بيده ، وجريشة بيد أخيه . ورأيتُ معاقدةَ المعتَمِدِ عليه أكَّدَ ، إذ علمتُ من حَنَقِهِ على كَبَّابِ أَنَّهُ لا يقبلُ له معذرة . فعاملتُني على ذلك أيضاً بأحسنِ مُعاملة ، وتسرحُ بمسكِرِهِ قُوَّةُ إن احتيجَ إليه لحرب جريشة ، وشاركتُ غاية المشاركة في التوسُّطِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ ؛ وأرسلُ إليه رسوله ، يقول له : « إن كنتَ جَزَعْتَ من رئيسك ، فاتركْ حِصْنَهُ ! وأضمنْ لك عنه الحال الصالحة والأمان والإحسان ، وإن كنتَ لا تَثِقُ بهذا كُلِّهِ ، فاتركْ إلى بعد أن أعطيك عَهْدَ اللَّهِ وميثاقَهُ أَلَّا أُسَلِّمَكَ إليه أبداً ! » فما كان جوابُهُ إلَّا إن قال : ١٠ « وما تصنمون بالحِصْنِ ؟ » قال : « أُصِيرُهُ إلى صاحبه ! » فأبى وقال : « إنَّما أريد أن أجعلَ المعقلَ بيد من يُذيقُهُ الشرَّ ويتولَّى فِتْنَتَهُ ! »

فأتاني ابنُ\* الأصبَحِيِّ رسولُ المُعْتَمِدِ ، التوسُّطُ خبره ؛ فقال لي : ٤٠ (ب) « اعزِّمْ على مُنازلة الرجل ! فليس فيه إلى الخير طريقٌ ؛ وهو متأهبٌ للشرِّ ، لا يقنعه إلَّا الإصرارُ بك ! » وكان في هذا كُلِّهِ يقطعُ السُّبُلَ ، ويُخيفُ الناسَ ، ويقتلُ أهلَ الرِّقَقِ ، ويُطْلِعُ أموالهم إلى الحِصْنِ ، ما كان أشهرَ في الناسِ من الشمسِ ، حتى لا يتجرأ أحدٌ أن يجتاز بشيء من تلك الجهات .

فاستخَرْتُ اللَّهَ على منازلته ، ومكثتُ عليه ستَّةَ أشهر ، لا بُالِي عما تنفق عليه من الأموال ، إلى أن رَقَّتْ حالُهُ ؛ وأنا في هذا كُلِّهِ أَقْدَمُ إليه وأبلى العذرَ عنده ، وأخوه في ثقافى . وأمرتُ أخاه بأن : « اكتبْ إليه أني متى أَخَذْتُهُ على غَيْرِ عَهْدٍ ، برَّختُ بقتله ؛ وإن كان نزل على الأمان قَبْلَ

أخذه ، ولو بساعة ، لم يتوقع مئتي شيئاً ١ « فوالله ! ما تردُّ عليه هذه الكتب إلا ويزداد طغياناً وشتاً وحقاً ، حتى يمرَّ الله أخذه ، ودخل الحِصنُ ، وكفى الله شرِّهم ، وطهرهم من البلاد ، وأراح منهم العباد .

وشاورت كبارَ البلدة وقُهاءها في خبرهم ؛ فخيَّروني في الذي حضَّ الله عليه من قوله تعالى <sup>(١)</sup> : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ﴾ الآية . فرأيتهم مستوجبين للصَّلب ، وأنه أدهى وأمرُّ من أن يُنفوا من الأرض . فإن شرَّهم لا يؤمن . وكثيراً ما كان للمسلمون مُرتقبين لما حلَّ بهم ! ووالله ! ما صرفت وجهي لأحدٍ خاصَّة وعامةً من أهلِ بلادى إلا ووصف لي من أفعالهم القبيحة ما وترواها جميع الناس . ولقد كان يومُ قتلهم للناس عيداً كبيراً من سرورهم وابتهاجهم بالراحة من شرِّهم .

- وإنَّ كُباب بن تميم المذكور ، لما رأى ما صنعَ بيني تأقنوت ، زاده ذلك حماقةً واستيحاشاً ، وخاطبَ المُعْتَمِدَ على ما قدَّمنا ذكره . فأرسلنا إليه نُعرض عليه التخلُّ عن المُتَقَلِّين ؛ فأبى ذلك ، وأعدَّ ، واستعدَّ
- ١٥ بِاللَّهِ الحرب ، وضمَّ الحُرَّاسَةَ وأخاف السُّبُل ، وقطع\* الطُّرُق وأتى بما هو مشهور من شرِّه . فاستخَرْتُ الله على مُنازلته ، وأمرتُ بضمِّ الأجناد واجتماع الأنداب لقتاله ؛ فكان ذلك على أتمِّ ما يمكن . ولما أحسن من نفسه بالضعف ، وأتته لا ملجأً له ولا مهربَ إلى أحدٍ بقلة إقبال السلاطين عليه ، تراءى علينا ، وسأل العفو ، خوفاً أن يحملَ به ما حلَّ بيني تأقنوت
- ٢٠ إذ لم يقبلوا الأمان قبل الخلبة ؛ فأعطيته من العفو ما سأل ، ليكون ذلك

قدوة لمن سألَ مِنَّا التعفُّو بعد الإساءة ، فلا يَنبَأ من فعلها ، إن دفعنا إلى مثلها بعدها ؛ وكانت الأولى عِظَةً وشُفْعَةً لمن تَفَرَّ ، ولم يقبل الأمان ، وتمادى على الطغيان .

وَكُنَّا لَا قُدُّمَ شَيْئًا وَلَا نَوَخْرَهُ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ إِلَّا بَعْدَ رُويَةٍ وَفِكْرَةٍ  
 ٥ في العاقبة ، وَنَدَّعُ مَشُورَةَ النَّاسِ ؛ فَإِنَّا بَلَوْنَا مِنْهُمْ قَلَّةَ التَّحْقِيقِ ، وَالنُّطْقِ  
 عَلَى الْهَوَى : فَإِنَّمَا مُقْتَنُونَ بِأَمْرِ يُزَيِّنُهُ وَيَحْمِلُ عَلَيْهِ ، وَإِنَّمَا كَارِهِ تَخْيِيرٍ أَوْ  
 مُطَالِبٍ لِأَحَدٍ ، فَيَجْعَلُنَا نَحِيرَ عَنْ مَا لَا يَطَابِقُ هَوَاهُ ، ﴿ وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ  
 أَهْوَاءَهُمْ ، لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ <sup>(١)</sup> . فَلَمَّا بَلَوْنَا مِنَ النَّاسِ هَذِهِ  
 الشَّمَائِلَ ، وَأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَحِبُّ أَنْ تَجْرِيَ الْأَحْكَامُ عَلَى اخْتِيَارِهِ ، رَجَعْنَا  
 ١٠ إِلَى إِثَارِ اخْتِيَارِنَا ، إِذْ كَانَ نَظَرُنَا لَأَنْفُسِنَا أَرْسَدَ مِنْ نَظَرِ غَيْرِنَا ؛ « وَمَا حَكَ  
 ظَهْرَكَ مِثْلُ ظَهْرِكَ » <sup>(٢)</sup> .

وَكُنَّا مَعَ هَذَا نَصْنَعُ إِلَى قَوْلِ النَّاسِ بِالْأَذْنِ ، لَا بِالْعَقْلِ ؛ فَفَقِيسٌ عَلَيْهِ  
 وَنَحْتَبِرُ مُرَادَهُ ، وَلَا نُزِيهِهِ الْخِلَافَ ، فَتُوحِشُهُ ، غَيْرَ أَنِّي أَوْسِعُ لَمْ صَدْرِي  
 وَيَسْعُ جَهْلَهُمْ حِلْمِي ، وَأَقْضَى بَعْدَ ذَلِكَ مَا أُرِيدُ ، إِذْ لَمْ أَكُنْ عَلَى أَمْرٍ  
 ١٥ مُجْبُورًا وَلَا مَقْهُورًا ، إِلَّا مَا قَهَرْتَنِي عَلَيْهِ السِّيَاسَةُ ، وَمَا تُحَمَّدُ لَهُ الْعَاقِبَةُ ، كَمَنْ  
 يَتَجَرَّعُ الدَّوَاءَ لِيُرِيَهُ الدَّاءَ ، وَلَمْ أَكُنْ أَغْتَنِبُ لِأَحَدٍ فِي الْحَقِّ مِنْ جَهَالَةٍ وَلَا  
 غَفْلَةٍ ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ مَسَاحَةً وَتَنَافُلًا لِأَمْرٍ يُرَادُ ، أَوْ مُتَبَاعَةً لِلْقَوْلِ فِي  
 حِينِهِ تَلَطُّفًا وَقَلَّةَ خِلَافٍ عَلَى قَائِلِهِ ؛ ثُمَّ أَصْرَفَهُ تَارَاتِ \* فَالْجَاهِلُ عِنْدَنَا مَنْ ٤١ (ب)  
 إِذَا أَشَارَ بِرَأْيٍ ، ثُمَّ رَأَى أَنَّهُ صُنِعَ ضِدُّهُ ، أَنْ يَمُودَ الْقَوْلَ فِيهِ : فَإِنْ كَانَ

(١) سورة الملونون : ٧١ .

(٢) راجع « مجمع الأمثال » الميداني (ط القاهرة ، ١٣١٠) ، ج ٢ ، ص ١٤٧ .

فَطِينًا ، من التَّعْيِ التَّكْرَارِ ؛ وإن كان لم يعلم ، فالتذكيرُ به غفلةٌ .  
استنْقاصٌ لمُخدومه ؛ اللَّهُمَّ إِنَّهُ لم يسمع منه الأولى ، فتَجَرى عن الأُخرى  
خِلَافَ الرِّيسِ عليه الأمرُ قد ظهر له ، وخفر عن القاتل ، ولم يُرِدْ  
عليه ؛ فيكون في رأيه البركةُ والخيرُ للفريقَيْنِ ؛ وهو يلوم على ما لا يد  
ويتبادى جهالةً ، وينطق هَذَرًا ، وتنحرف نيتُهُ على غير معنى ؛  
ظالمًا لنفسه .

فَأَوَدَعْنَا كِتَابًا حِلْمًا ، وَأَمْنًا ، وبقى في جملة الجند تحت إم  
وإحمال ، غَيْرَ أَنِّي لم أَسْتَعْمِلُهُ بعدها في مَقِيلٍ ، ولا مَكْنَتُهُ من  
إذ « لا يلدغ مؤمنٌ من جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ »<sup>(١)</sup> .

(١) راجع « مجمع الأمثال » للميداني ، ج ٢ ، ص ١١٠ .

## الفصل السابع

إمارة عبد الله بن بُلُقَيْن بن باديس ، مؤلف هذا الكتاب

(٣) قدوم المرابطين إلى الأندلس وموقعة الزلاقة ومحاصرة

حصن لِسِيط

٤٦ — مقدمات تدخل المرابطين في شؤون الأندلس

٥ وَبَقِيَتْ أَحْوَالُنَا عَلَى أَفْضَلِ مَا يُمْكِنُ ، وَبَلَّغْنَا مِنْ آمَالِنَا غَايَتَهَا ، إِلَى أَنْ  
حَدَّثَ أَمْرُ الْمُرَابِطِينَ - أَعَزَّهم الله - . وَكُنَّا رَأَيْنَا كَلْبَ التَّصْرَافِيِّ عَلَى  
الْجَزِيرَةِ وَأَخَذَهُ لَطْلِيظَةً ، وَقَلَّةَ رَفَقِهِ ، بَعْدَ مَا كَانَ يَقْنَعُ مِنَّا بِالْجَزِيرَةِ وَصَارَ يَرُومُ  
أَخْذَ الْقَوَاعِدِ ، وَأَنْ أَخَذَهُ لَطْلِيظَةً لِلضَّعْفِ لِلتَّوَالِي عَلَيْهَا عَامًا بَعْدَ عَامٍ ؛ وَكَذَلِكَ  
كَانَ مِنْ شَأْنِهِ فِي أَخْذِ الْبِلَادِ ، إِذْ كَانَ مَذْهَبُهُ أَلَّا يُنَازِلَ مَعْقِلًا ، وَلَا  
يُفْسِدَ أَجْنَادَهُ عَلَى مَدِينَةٍ ، لِبُعْدِ مَرَامِهَا وَمَنْ فِيهَا مِنْ مَخَالِفِي مِلَّتِهِ ، وَإِنَّمَا  
١٠ كَانَ يَأْخُذُ مِنْهَا الْجَزِيرَةَ عَامًا بَعْدَ عَامٍ ، وَيَعْنِفُ عَلَيْهَا بِمَا شَاءَ مِنْ أَصْنَافِ  
التَّعَذُّبِ ، إِلَى أَنْ تَضَعُ وَيَتَلَقَّى يَدَهَا كَمَا فَعَلَتْ .

فَوَقَعَ مِنْ ذَلِكَ فِي الْأَنْدَلُسِ رَجَاءٌ عَظِيمَةٌ ، وَأَشْرَبَ أَهْمَهَا خَوْفًا وَقَطَعَ  
رَجَاهَ مِنْ اسْتِيطَانِهَا . وَجَرَتْ بَيْنَ الْمُعْتَمِدِ وَالْقُوْنَشِ مُخَالَفَاتٌ كَثِيرَةٌ ، وَسَأَلَهُ



- أن يتخلى له معاقل كان للوتُ عنده أولى من إعطائها. فوجست نفسه منه بالجملة ،  
 ورام كسره بطوائف المرابطين ، وضربَ بعضهم ببعضٍ للقدَر الذي شاء الله :  
 إذا لم يكن عونٌ من الله لافقَى فأكثرُ ما يحجني عليه اجتِهادهُ  
 \* وقد كان أخونا صاحبُ مائة ، للفتنة التي كانت بيننا وبينه ، قد ٤٧ (١)  
 ٥ داخلهم قبلُ يستغيثُ بهم ، ويرجو الانتقامَ مِنّا بهم ، وأن يُدركوه  
 ما فاتهُ من مملكة جدّه ؛ وطنّ أنّه ، عند ظهورهم ، يقسم الأموال بيني  
 وبينه . وكان هذا الخلافُ كُلُّهُ من سعادة أمير المسلمين ، ورأى من تشّنتنا  
 أنّه لا مشقة تكون عليه في أخذِ بعضنا ببعضٍ متى شاء ، فلم يُجِئهُ الأميرُ  
 إلى شيء ، ولا كان وقته ، وهو يُبلغُ عليه بقلة الدربة .

١٠ ٤٧ — إرسال سفارات أندلسيّة إلى مراکش . احتلال

### المرابطين الجزيرة الخضراء

- وقد كان رُسُلُ المُعتمد قبل هذا قد وردت عليه ، تعلمه أن يتأهبَ  
 للجهاد ، وتعمده بإخلاء الجزيرة الخضراء ، وأنه لا يصلُ إلى سبّنة إلا ويضعها  
 في يديه . فلما وصل متأهباً لتلك ، بمن احتفل به من جيشه ، قدّم رُسُلُهُ إلى  
 المُعتمد ، منهم عبدُ الملك القاضي . وابنُ الأُحسن ؛ فأنسكهم بإشبيلية مُدّةً ١٥  
 طويلة ؛ وأميرُ المسلمين في ذلك مُتعلّقٌ لورودهم ؛ فأرسل معهم من شيوخ  
 إشبيلية من يقول له : « ترَبّصْ من سبّنة مُدّةً من ثلاثين يوماً ، إلى أن  
 نُحلي لك الجزيرة . » فأجابهم إلى هذا ، وسألوهُ خطَّ يده وبالتربّص .  
 فأشعرَ الأميرُ بذلك ، وقيل له : « لم يجعلك ابنُ عباد في هذا الالتواء إلا  
 ٢٠ لأنّه يريد أن يرسل إلى ألفونس يُعلمه بقدومك ؛ ولعلّه يتأبّى له منه ما يرغب ،

ويهدده بك ، ويسأله أن يُعاقده على أن يهبه الجزيرة أعواماً . فإن فعل ، استجاش عسكره على الجزيرة ، ومنعك الجواز ، فأَسْبَقَهُ إليها ! وإن كان النصراني لا يتأتى له ، أَرْسَلَ إِلَيْكَ في الجواز !

- ولما انفصل الرُّسُلُ عنه بنية التَّربُّص في إخلاء الجزيرة ثلاثين يوماً ،
- ٥ جهَّز عسكراً مُدَّماً من نحو خمسمائة فارس ، وأرسلهم في أثرهم ؛ فلم تَصِلْ الرُّسُلُ إلى الجزيرة آخر النهار إلَّا والمسكر في أثرهم قد عَدَوْا ونزلوا بدار الصناعة . فالتفت القومُ إلى خَيْلٍ قد ضربتَ سَحْلَتَهَا ، لم يُدْرَ متى أَقْبَلَتْ ؛ ولم يُصْبَحْ لهم إلَّا وطاقفةٌ أُخْرِىَ بعدها ، يزيدون ويترادفون ، \* حتى انكَل (ب) ٤٢
- العسكر كُلُّهُ على الجزيرة مع داوود بن عائشة ، وأحدقوا حوالَيْهَا يحرسونها .
- ١٠ ونادى داود بالراضى ، وقال له : « وَعَدْتُمُونَا بالجزيرة ! ونحن نَأْتِ لَأَخْذِ بِلَدِهِ وَلَا ضَرَرٍ بِسُلْطَانٍ ! إِنَّمَا أَتَيْنَا لِلْجِهَادِ ! فَمَا أَنْ تُخْلِيَهَا مِنْ هُنَا إِلَى وَقْتِ الظُّهْرِ مِنْ يَوْمِنَا هَذَا ، وَإِلَّا ، فَالَّذِي تَقْدِرُ عَلَيْهِ ، فَاصْنَعْ ! »
- وخاطبَ أميرُ المسلمين ابنُ (١) عُبَاد ، يُعْلِمُهُ بِمَا صَنَعَ ، ويقول له :
- « كَفَيْنَاكَ مَوْثَنَ الْقَطَانِ وَإِرْسَالَ الْأَقْوَاتِ لِأَجْنَادِنَا كَمَا وَعَدْتَ ! » فأرسل
- ١٥ الْمُعْتَمِدُ لابنه الرَّاظِي في إِخْلَافِهَا لَهُمْ ، وحصل فِيهَا داوود . وَأَتَى الْأَمِيرُ إِلَيْهَا ، ودخلها ناظراً إِلَيْهَا ؛ ثُمَّ انصرف إلى سَبْتَةِ إِلَى وَقْتِ إِقْبَالِهِ . وأمر داودَ بِالْتَّحْدِثِ إِلَى إِشْبِيلِيَّةَ ؛ فَاسْتَوَفَتِ الْعَسَاكِرُ عَلَى إِشْبِيلِيَّةَ .
- وقد كَانَ رُسُلُنَا مَضُوعًا مَعَ رُسُلِ الْمُعْتَمِدِ إِلَى أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ ، عَلَى اتِّفَاقٍ ضَمَّ بَعْضُنَا فِيهِ بَعْضًا إِلَى حَقِيقَةٍ ، وَعَاقَدْنَا أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنْ تَنْتَصِلَ الْأَيْدِي عَلَى غَزْوِ الرُّومِ
- ٢٠ بِمَعُونَتِهِ ، وَالْأَلَّاءُ يَعْزُضُ لِأَحْدَانَا فِي بِلَدِهِ ، وَلَا يَقْبَلُ عَلَيْهِ رَعِيَّتُهُ مِنْ رُومِ الْقَسَادِ عَلَيْهِ .

## ٤٨ - تجمع جيوش الأندلسيين برسم الجهاد

وأرسل [أمير المسلمين] ، عند خُلُوله بإشبيلية ، عن جميع الرؤساء ؛ فأثاب ابنُ صُنادِح ، فأبى عليه [وبقى] مُتَرَبِّصًا ليرَى كَيْفِيَّةَ الأَمْرِ وتُخْرَجَةَ مع الرُّوم ؛ واعتذر بكبر السنِّ مع الضعف ، وأرسل ابنه مُعْتَذِرًا . وبادرنا نحنُ إلى الخروج ، وسُرِّرنا بذلك ، وأعدَدنا ما استطعنا عليه للجهاد بأموالنا ورجالنا ؛ وقدَّمنا الهدية إلى أمير المسلمين ، وأمرنا بضرب الطَّيْل وما يُسْتَعَدُّ به للفرح ، عند مُخَاطَبَتِهِ لنا بدخول الجزيرة . وظنَّنا أنَّ إقباله إلى الأندلس مِنَّا من الله عَظُمَتْ لَدَيْنَا ، لا سِيَّما خاصَّةً من أجل القرابة ، ولذِي شاع من خيرم ، وإقبالهم على طَلَب الآخرة ، وحُكْمِهِم بالحق ؛ فنمِل أنفُسنا وأموالنا في الجهاد معه ١٠ كلِّ عامٍ : فمن عاش مِنَّا كان عزيزًا ، تحت سترٍ وحماية ، ومن مات كان شهيدًا . والعجبُ في تلك السفرة من حُسْن النِّيَّات ، وإخلاصِ ٤٣ (١) الضَّائِر ، كأنَّ القلوب إنما جمعت على ذلك .

ولقينا أمير المسلمين في طريقه إلى بَطْلَيْوَس بِجَرِيشَة ، ورأينا من إكرامه لنا وتُخْفِيهِ بنا ما زادنا ذلك فيه رغبةً ، لو استطعنا أن ننحله لحومنا ، فضلًا على أموالنا . ولقينا المُتَوَكِّل ابنَ الأَفطس مُخْتَفِلًا بِسُكْرِهِ : كلُّ ١٥ يرغب في الجهاد ، قد أعمل جَهْدَهُ ، ووطَّن على الموت نفسه .

## ٤٩ - موقعة الزَّلَاقَة وانتصار المسلمين على أَلْفُونش السادس

وتَلَوَّنا بِبَطْلَيْوَس أَيَّامًا ، حتَّى صَحَّ عندنا إقبال أَلْفُونش في حفلة ، يروم الزَّلَاقَة ، ويطنُّ أنه يهزم الجيش لقلة معرفته به قبل . وساقهُ القَدَر

إلى أن توغّل في بلاد المسلمين ، وأبعد عن أنظاره ؛ ونحن يازاء المدينة ، مترَبِّصون : إن كانت لنا ، فيها ونِعمَتٌ ، وإن لم تكن ، كانت وراءنا حرزاً ومُغْلًا نأوى إليها . وأمير المسلمين يُدِيرُ هذا الأمر بحسْنِ رأيه ، ويلتوى ، عسى [ أن ] تقع المِلاقاة بتلك الناحية ، دون أن ينجوح إلى التوغّل في بلادهم . وهم ، كما دخلوا الأندلس ، ولا يعرفون مَنْ لهم أو عليهم ؛ ورجّاه ٥ بأن يكون الرومي لا يخرجُ إليه أحدٌ ، فينصرفَ طريقه ، ويكفي الله المؤمنين القتال ، إلى أن تُريَهُ الأُور وجوهها . فلا يُسمعُ إلا الأميرُ مترَبِّصاً لآلِيَتِيَّاتٍ طافَ به ، ولولا ذلك ، لكان في أرضِ النصارى مُدَوِّخًا لها . والنصرانيُّ في هذا كله يقرب متعاطياً ، لا يعمل حساب مَنْ يُغْلَبُ ، ١٠ إن كانت عليه أن يكون بعيداً من أنظاره ، فيستأصله السيفُ ؛ ولولم يكن إلا يأكله الطريق ويُبْعِدُ المسافة .

ثم أرسل ، على يدى ابن الأَفْطَس ، إلى أمير المسلمين ، يقول له : « ها أنا قد أَقْبَلْتُ أريدُ ملاقاتك ، وأنت تترَبِّص وتختبئ لأصل المدينة ! » فلم يكن بُدُّ أن يُفْتَقَلَ إليه ، ليكون الجيش على مقربةٍ منه . وتَوَاعَدَا ١٥ اللقاء في يومٍ سَمِيَّاهُ . ولم يكن يَبْنُ المَحَلَّتَيْنِ إلا نحو ثلاثة أميال ، فاستأخ المسلمون إلى ذلك الوعد ، \* وحلَّ الناس عن أنفُسهم ؛ وكانت ٤٣ (ب) خيرةً أن لو رَكِبَتِ القِيتَان ، لم تنفصل إلا عن قَعْدِ الأكثر من عسكر المسلمين ، حسبما تُوجِبُهُ المِوافقة للقتال .

فَجَاجَاهُ مَسْكَرُ الرومي ، وهم على غير إعداد . وكان مختلساً : إنَّما له ٢٠ ما آلَى في تلك الساعة ، وألقى سُمَّهُ في الرَّحْلِ ؛ ومات منهم خلائقٌ مِمَّنْ لم يكن يقدر على نفسه . فلم تَقَعِ الصيحة على الجيش [ إلا ] وركبوا في

طلبهم ؛ وممّ قد كلّوا وقتلهم السلاح مع بُعد المسافة . فافتنى المسلمون آثارهم ، وركبهم بالسيف ؛ ومات من جيشهم خلائق ، وتبدّوا في الطريق فن يئن قتيل وميت متقلّ ضريع . ولو أن تلك الواقعة تكون على إعداد من وقوف الفئتين ومناطحتهما في اللقاء ، لفقد من العسكرين الأكثر ، كالذى توجّه الرتبة ؛ لكنّ الله لطيفٌ بعباده ، ولم يفقد من المسلمين إلّا الأقلّ . وانصرف أمير المسلمين راجعاً إلى إشبيلية على حال سلامة ونصرٍ .

٥٠ — يوسف بن تاشفين يعقد مجلس رؤساء الأندلس

بعد المعركة . بدء الخلاف بين المتحالفين

ولما انقضت غزواته تلك، جعنا في مجلسه ، أعنى رؤساء الأندلس ، وأمرنا بالاتفاق والائتلاف ، وأن تكون الكلمة واحدة ، وأنّ النصارى لم تقترصنا إلّا الذى كان من تشئتنا واستعانة البعض بهم على البعض . فأجابهم الكلّ أن وصيته مقبولة وأنّ ظهوره ممّا يجمع الكلّ على الطاعة والجري إلى الحقيقة .

واتدب إليه ذلك الوقت أخونا صاحب مألقة ، وقال من غير روية :  
 ١٥ « إنّ أحوالى قد ضاقت بتعدّي أخى على بلادى وميراث جدّى ١ »  
 يشير بذلك أن يأخذ له الأمير بحقه ممّا . فلما قضى كلامه ، قال له أمير المسلمين : « هلّ لقيت أخاك في هذا المعنى ، وتراميت عليه قبل مخاطبتك لى ؟ » فلما قال له : « لا ا » ردّ عليه : « ما ينبغي لنا ذلك إلّا برضاه ا » ولم يمكننا في ذلك الحين السكوت لئلا يلزم من شكر الأمير ،  
 ٢٠ و [كانت] فرصة لتبيان الحجة ، وإقامة عذرنا إلّا يفتسبب إلينا بعدّ نسبته .

\*قلتُ له : « إنَّ أمير المسلمين لم تكن غايتهُ إلَّا ما هو بسبيله من الجهاد ؛ ٤٤ (١) وهو لا يرضى أن ينقض ما أخكمه آباؤنا من قسمة ما قسموه من بلادهم بين أبنائهم . وليس منا أحدٌ حصلَ على شيء بقدرته ، إلَّا بما تهيأ له عند الله والآباء من بعده ، مع إجماع المسلمين على الرضى بمن تخيروه . وقد كان الشيخُ جدُّنا — رحمه الله — رتبَ ذلك ، ورأى أنَّ مائةَ لا غنى بها من غرناطة ؛ فجعل أمرها مصروفًا إلينا من بعده ، كالذى كانت في حياته . فأنقضت من الأمر ما أبرم ، وقطعتنا ، وأردت الاستبداد على غير حقيقة ولا أصل . ولو رأى جدُّك في ذلك صلاحًا ، لأعدَّ لك لذلك عُدَّةً تغنيك عنَّا ؛ ولما تعديتَ المرَّة بعد المرَّة ، سَمِينا في صرف بعض الحال إلى ما رتبها عليه الجدُّ ؛ ولم نبلغ في ذلك الغاية التى تجبُ بإحيائك ونفارك . وهذا ما وقع ! فإن شاء أميرُ المسلمين أن يبتنى من جديد ، وينقض ما رتبَ الشيخ ، فهو لنا بمنزلة : أمره نافذ ! وإن رأى ما فُعلَ من ذلك سدادًا وصلاحًا ، فلائى وجه نكلُّه ما لا يليق به ؟ » فلما تكلمتُ بهذا ، وقعتُ مُساكنةً . وأمر الأميرُ بانصرافنا ، ولم يُعِدْ في ذلك بعدها مجلسًا إلَّا في سفرةٍ ليُعطى للعمونة . ١٥

وأخذ أمير المسلمين فى الانصراف إلى بلاده ، وهو قد اطلع عيانًا وسماعًا من اختلاف كلمتنا ما لم يرَ وجهًا لبقائنا فى الجزيرة . وأنسَ الجميع ؛ ولم يتربص فى البلاد إلَّا يُوحش سلاطينها مما يتوقعونه من الحياش رعيَّتهم إليه ؛ فكلُّ من شكَا إليه ذلك الوقتَ من رعيَّةٍ ، يقول له : « لم نأتِ لهذا ! والسلطينُ أعلمُ بما يصنعون فى بلادهم ! » حتى ازداد بذلك محبةً إلى ما كان عليه فى قلوبنا ، وإليه استنامةٌ وميلاً . ورجع الكلُّ إلى وطنه . ٢٠

٥١ — عودة يوسف بن تاشفين إلى الأندلس .

حصار حصن لييط .

وبقيت الحال على ذلك : قد أشرب الروم من تلك الواقعة خوفاً وانكاشاً . ولم تزل الحال صالحة إلى سفرة لييط .  
 ٥ وإن المعتد بن عبّاد ، لما رأى من خلاف ابن رشيق عليه ، وأنه أراد أن يصنع ابنه الراضى بمُرسيّة عوضاً عن الجزيرة ، صار بنفسه إلى أمير المسلمين ، وجاز إليه البحر ، يريه الطمانينة ، ويحكم معه ما شاء من ٤٤ (ب) عمل في مُرسيّة وغيرها . وعظّم له شأن لييط ، وأنه في قلب البلاد ، وأن لراحة المسلمين إلا ببقائه ؛ وعاقده على أن يأتي عليه بنفسه ورجاله ، لكي يتهبأ سلاطين الأندلس حربته بعدددهم وأجاعيهم ؛ فiamنوا من يُقلعهم عنه .

وأتقنا كتب الأمير ، يأمرنا ضد جوازه ، بالاستعداد للقتال وما شاكل ذلك . فقلعنا ، وبأدرنا ، رغبة في الجهاد ، ومحبة فيه ، وإيثاراً له ؛ وخرجنا إليه ، ولقيناه في حيز من بلادنا ، بما يطابق مثله من الهدايا والتحف . واجتمعنا على السير إلى لييط . ١٥

فنازلناه على أهم ما يمكن من الرجال والمعدد ، كلُّ رئيس يقارنله على حسب مجهوده ، وما تبلغ استطاعته وحيلته ؛ وهو قد امتلأ برعية الجهة ، كلها من النصارى ، وأعدوا فيه ما يحتاج من كل شيء ، قتل من نظر على سعة ؛ ومم في ذلك يهددون بمجيء ألفونس ، ويريمون الحيلة بالتنير كل ليلة ؛ والقتال عليهم كل يوم لا يفتر ، مع البنيان في اللواضع ٢٠

المهمة عليهم ، ونصب المجانيق والعزادات ، حتى لم يبق عمل يُرام به اقتراس المعاقيل إلا وصنع . وأتى ابن صمادح بفيل أقامه ، وخرق به العادة : أصابه من الحصن قوس نار ، فأحرقه . وفي كل ذلك لا ينجح عمل ، ولا تظهر فيه للمسلمين فرصة ، لما شاء الله من اختلاف الكلمة . ٥

## ٥٢ — مُحاصَرة لَيْطِ تصوُّر فَوْضَى ملوك الطوائف

في ذلك الحين

وكانت تلك سنة أخرج الله فيها أضغان سلاطين الأندلس . ورعيهم في ذلك يأتون أفواجا ، شاكين لما وجدوا لمن أسندوا إليه : فالراضي منهم يلتبس الزيادة ، والساخط يرجو الانتقام ؛ وجلوا في شكوايهم فقهاءهم ١٠ وسائط ، يقصدون نحوم : منهم الفقيه ابن القليعي ، قد صار خياؤه بتلك المحلة منططيسا لكل صادر ووارد ، يجذب بهم السيل إلى الطلب ، للقدر الذي قدره الله .

ورأى سلاطين الأندلس عند ذلك من تحامق رعاياهم وامتناعهم من مغارم الإقطاع التي كانت عليهم ، مع احتياجهم إلى الإفاق ، ما قلق به ١٥ وساء الظن من أجله : \* جيش يكلفونه كل عام ، ومجاملات تلزم (١) المرابطين كثيرة ، وتصف متوالية ، لو فرط منها في شيء ، لانخرمت عليهم الأحوال ؛ ثم رعايا تمتنع من تأدية ما تقوم به الحال للوصوفة ؛ فلا حيلة إلا بين صبر يؤدي إلى ملامة توجب عقوبة ، أو امتناع يؤدي إلى ٢٠ استئصال ، كالذي جرى .



ونسع في هذا كله من أهل جهاتنا تهديداً وعصياناً أنكرناه ، لا تتم به تملكته ، ولا يتهيأ معه قضاء حاجة . ولقد كان القليعي المذكور في تلك المحلة يخاطب إخوانه بحضرتنا ألا يعطونا شيئاً ، ويعدهم بما كان ؛ فلما كان يأتيهم الحفز منا ، يعمدون بنا ، ونحن أخرج ما كُنّا إليه للإفراق ، لاسيما في تلك المحلة التي عدتُنا فيها الأقوات إلا بالشراء كل يوم . فدخل علينا من ذلك ضررٌ شنيع .

وطالت تلك المحلة للعبوة ؛ فكأنما يثلق أبان الطيب من الخبيث ، وكشف العورات ؛ فلم يزد الرؤساء إلا توحشاً ، ولا الرعية إلا تسلطاً ، ولا الداخلون على مثل هذه النصبه إلا طمعاً ؛ وحق لم ، مع اختلاف كلمة الرؤساء ، وهم في أسباب الفرق : فن اغتر منهم طالب صاحبه ، وهو المطلوب ، وشغل ذلك مما هو في سبيله ؛ ومن ميز ، انفراد ، لم يجد معيناً حتى توغل في اللجة وأخذته المحلة . وكانت مقدمات سوء ، وزماناً على السلاطين عسيراً ، وسعداً للرابطين مقتبلاً .

### ٥٣ - النزاع بين ابن عبّاد وبين ابن رشيّق

١٥ وأتى ابن رشيّق عند ذلك مُفسِداً برّعه لِمَا عقده ابن عبّاد مع الأمير ؛ وبذل الأموال للرابطين ، وسارع إلى قضاء الحاجات . واصطنع إلى الأمير سير — أعزّه الله — وعول عليه ؛ فأكرمه الإكرام الشنيع . وألقى ابن عبّاد يده في قرور ، مُعوّلاً عليه في القضية ، وبذل له أموالاً جسيمة ؛ والمُكثِر على كل حال يطلب المُقل ، وإن شَفَّ عليه باليسير . ٢٠ وأعطى ابن رشيّق الأمان ، وبُولِغَ له في التأنيس ، حتى غره ذلك

- وانبسط له ؛ وتاة على ابن عباد ، وأظهر مَنصِبَتَه والانخياشَ منه ، قائماً في ذلك بدعوة الأمير ومُسْنِدًا إليه ، حتى أفضى ذلك به ، إلى أن أمر أن تكون الخطبة بِمُزْمِنَةٍ على اسمِ أمير المسلمين دون ابن عباد .
- والمُعْتَمِد ، \* في هذا كله ، يَرَى من الأمر ما يبطئه ويكرهه ويتقطع ٤٥ (ب) منه حشرات ؛ وحقّ له ؛ فلم يَنْمُ عن القضية ؛ وأحكمتها مع القُتْماء ، واحتجّ عليه بأحكام السُّنَّة ؛ وكان ممن اصطنع على ذلك ابنُ القُلَيْبِيّ ، وهو يفخر بالأمر عندنا ، ويقول : « سَيَرَى ابن رَشِيق ما يجلُّ به ! فقد شوَّورنا في أمره . وإن جُعِلَ لنا مَجْلِسٌ لغيره ، فقلنا به مثل ذلك ! » وكانت هذه الكلمة ممّا أَوْحَشَتْنا وَغَيَّرَتْ أَنْفُسَنَا عليه ، مع تهذُّده تلك
- ١٠ السفرة ، وَضَرَبَهُ الأمثال ، وَحَدِّقَ مَعَانِيَهُ ، واستطالَّتْ بِلْسَانِهِ ؛ وأميرُ المسلمين لا يشعر بشيء من ذلك ، ولا تقدر نَحْنُ نشكو به بلا بَيِّنَةٍ ولا إقامة بُرْهَانٍ : فكون له الحُجَّةُ ، وَشَقَّ نَحْنُ في الخزي ، لاسيَّ بما كان يَنْتَحِلُ من [أهل] العلم .
- وإن أمير المسلمين ، لما رأى حالَ ابن عباد مع ابن رَشِيق ، واختلاف ١٥ ما بينهما ، أعمل في ذلك عَقْلَهُ ، ودبَّره برأيه ، وقال : « ما تنبغي لنا مُفاسِدةُ ابن عباد من أجل ابن رَشِيق ، لاحتياجنا إليه فيما نَحْنُ بسبيله ، ونَحْنُ لم نأمن أمرَ الرُّومِ . والأوْكَدُ علينا في هذا الوقت مُداراةُ ابن عباد ، حتّى تُرِينَا الأمورَ وَجُوهَهَا ! » فتصفّ على ابن رَشِيق في الذي أظهر من الخِلاف على صاحبه ، وقال له : « ما كان يَجِبُ لك أن تُقدِّمَ بدعوى للقيام على رئيسك ، فتوقعَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ الشُّعَاءُ ! » وقال في نفسه :
- ٢٠ لم يفعل ذلك ابنُ رَشِيق إِيثاراً لي ولا مَحَبَّةً لِحَبَّتِي ! أكثر من اضطرام

النار على صاحبه وإشغاله بي عن نفسه ؛ ولا سيما أن معونه الرُّوم يُلَبِّط  
 لم تحف على أحد ؛ يستعد أن يبقائها يثبت في مُرْسِيَةِ ! « فكان أبداً يُمِرُّهم  
 ويقوِّمهم بما يسجرون عنه ، إبقاء لرمقهم ، وخَوْفاً من الداخلة عليه بقَدِيم .  
 وصحَّ ذلك عند الأمير ، والمُعْتِدُّ في هذا كله لا يَنَامُ عنه ، ويستَقِي  
 فيه الفَقهاء ، لنفاقه بعد دخوله في البيعة له أوَّلَ أَخْذِهِ لِمُرْسِيَةِ . فالتَفَّتْ ٥  
 عليه الأسباب ، وصُنِعَ له مجلسٌ أفتوا فيه بإزاحتِه عن المسلمين ،  
 وإسلامِه لِسُلْطَانِهِ . فاستغاث عند ذلك \* بالأَمِير ؛ فأجابهُ : « إني لو كان لك ٦  
 عندى حقٌّ ، لوَهَبْتُهُ لك ، غير أنها أحكام السُّنَّة ، لا أستطيعُ على إزاحتها  
 عن مَرَاتِبِهَا ! » وأمر بتنقيفِه وإسلامِه إلى اللُّعْتِيد . وقُيد في الحديد ،  
 ورأى هواناً عظيماً . وأمرَ اللُّعْتِيدُ الراضى ابنه أن ينزل في تحلته على المقام ؛ ١٠  
 وكأنَّهُ لم يكن بالأس . وأرسل الأمير إلى أهل مُرْسِيَةِ يأمرهم بالرجوع إلى  
 صاحبهم والطاعة له ؛ فخالف كلُّ من فيها من ابنه وقرابته ، وثَقَّفوا مدينتهم  
 وجَفَّوْا كلَّ من مضى إليهم . وامتنعت الحال على ذلك ، بعد وسائل كثيرة  
 تَكَرَّرَتْ بينهم ؛ فلم يقدر معهم على شيء .

٥٤ — رفع الحصار عن لُيِّط .

١٥

تفرق المحاصرين وإنشاء الخلاف بينهم

وشاعت الحجة ، وطال مكثها ، وملَّ الناسُ إلى أن ورد الخبرُ  
 بِقُدُومِ الْفُؤُوشِ إليها ؛ فساءت الظنونُ من أجل ذلك . ورأى أمير المسلمين  
 أن الرجوع عنها والانصرافَ أوَّلَى ، لطولِ مُكْثِ الناسِ وفشلهم ، مع  
 ٢٠ جَماعِ القادِمِينَ من الرُّوم ومع خلاف مُرْسِيَةِ ، لئلا يسندوا إلى مبرها ومراقبها

- إذ أنهم أرسلوا عن القونش وقت خلاصهم . فأخذ في الانصراف .  
 ووقعت بين المعتد والمعتصم ، صاحب المريّة ، مشاجرات وتباعات  
 باردة في معقل من نظر الجبل وفي أمر شربة ، ما وقع فيه الشكوى  
 إلى الأمير . وانفصلا على غير موافقة : كل ذلك من النحسة المفضية عليهما .  
 ٥ ومثل ذلك جرى لنا مع أخينا صاحب مائة ؛ وجعل يكرّر في ذلك  
 النظر الذي تكلم فيه سفره بطليوس ؛ وحفز في ذلك برّعه ، وقال لي  
 بقلة دربتيه : « إنما منع من ذلك السفرة الأولى ذكرى له عند انفصال  
 الأمير ، فلم يدرك ولا أذكر كنا والآن ، فلا بدّ من ذكره على سعة ؛  
 وإلا ، فالحق بيني وبينك ! » فلم تخف لقوله ، ولا كابرته ، لعلّ أن  
 ١٠ الأمير لا يحفل بشيء من هذا كله . ولما رأى أمير المسلمين كثرة طلبه لنا ،  
 أرسل إلينا قروراً ، يقول لنا : « لا يربك شكوى أخيك ؛ فإن  
 السلطان لا يسمعه أن يقول له : « اسكت عن طلبك ! » ، ولا يعطيه  
 عليك يدًا ، غير أننا نلوى القصة مرحلة \* بعد مرحلة ، حتى يقع  
 الانفصال . » فشكرته على ذلك . وقال : « إن غرناطة عليه آكد من  
 ١٥ مائة لاحتياجه إلى الاجتياز عليها في غزواته ، وما أشبه ذلك من المرافق ؛  
 فقدم أنت الآن ، وأعدّ جهذك ما يجب من ضيافة السلطان إذا [ كان ]  
 خطوره عليك ؛ وهو ما ربك على غرناطة في انصرافه ! » فسرّني ذلك ،  
 وتقدّمت إلى وادي آش ، وأعددت له ما كان جديراً به .

## الفصل الثامن

إمارة عبد الله بن بُلُقَيْن بن باديس ، مؤلف هذا الكتاب

( ٤ ) سياسة عبد الله بعد عودته من لَيْيَط : إجراءات

دفاعية وسياسية

٥٥ — تشاؤم عبد الله بعد رجوعه من حصار لَيْيَط . مسلك قَرُور .

٥ ولَمَّا وَصَلْتُ وادى آش ، وقد ظهر إلى قَبْلُ في لَيْيَط من جَفَاء قَرُور  
وتخويفه لى ، وتهديدى على لسان الأمير ، والأمير عند ذلك غافلٌ ، غير أننى  
حَسِبْتُ ذلك من قَبْلِهِ لَمَّا رَأَيْتُ من مكاتته عنده . فَأَذَرَ كفى من ذلك رُغْبٌ  
شديدٌ . وعَايَنْتُ مع هذا ما حلَّ بآبِن رَشِيق ، وسمِعْتُ وعِيدَ القُلَيْعَى لى ،  
وجَفَاءه على ، وإزالة رَقَبَتِي عنه ، ما زادنى ذلك جَرَعًا ، لا سِيَّما أَنَّ الجَزَعَ  
والسوداءَ مُتَمَكِّنَةٌ من نفسى ، وأَجِدُهَا فى طباعى ؛ كَدْتُ أَنْ أموت غمًا .  
١٠ ولم أَرَ قَطُّ قبل ذلك دُلًّا ولا كَدْرًا ؛ فَأَنكَرْتُ الأمورَ كُلَّهَا مع السلطان ،  
على حَسَبِ ما كان يُكْرِمُنِي سَفَرَةَ بَطْلَيْوَس ، ورَأَيْتُ ضِدَّ ذلك كُلَّهُ ؛  
وقَرُورٌ يُنَاصِبُنِي العداوة ، ويرسل المشاورين إلى هوانى ، ويأمرُنِي فى حال  
تلك الحرب بأوامر بارِدة ، يُريدُ بها إِذْلالى ، ويُظهِرُ إلى فيها التعنيف  
١٥ والتسُف .

فلَمَّا دخل نَظْرِي ، أَرَادَ إِصْلَاحَ ما أَفْسَدَ معى . فَعَلِمْتُ أَنَّ ذلك ليس

لنيةٍ صَلَحَتْ ، بل لحاجةٍ عَرَضَتْ وَدَقَعَتْ إِلَيْهَا ضَرُورَةٌ مِنْ قِبَلِ الاجْتِيازِ عَلَى .  
 ولأجلِ ذلك ، قال لى على لسان الأميرِ فى خبرِ أخى ما قال ؛ وتبين لى أنه ،  
 لو كان ذلك من عند الأمير ، لم يطلبُ قُرُورٌ مِنِّى عليها رشوةٌ . فإنه مع  
 ذلك لم يُخَلِّنى من مؤنتِها ، وعمل لى حُجَّةً فى دَفْعِ ضَرَرِ أخى عَنِّى ،  
 وأخذ مِنِّى عليها ألفَ دينارٍ مُرابِطِيَّةً ، لم أَتَجَرَأُ قَطُّ على ذِكْرِها مَدَّةَ حياتِهِ ،  
 لئلاَّ يَطْلُبَنى عند الأمير ؛ ثُمَّ لم تَنْفَصِلِ ساعةٌ أن انصَرَفَ ، وطلبَ لِرَبِيبِهِ  
 خمسمائةَ دينارٍ ؛ فأعطيتها له ، وكذلك كلُّ ما يَطْلُبُ بِإِثْرِهِ وتَهْدِيرِهِ ، مع قَلَّةِ  
 رَحْمَتِهِ وَرِفْقِهِ ، \* وخشونة لفظِهِ . ثُمَّ أعطيتها فى غرناطة ألفَ دينارٍ أُخْرَى ٤٧ (١)  
 باسمِ كسوة خِيَلِهِ . وأما الذى صار إليه فى سَفَرَةِ بَطْلَيْوُسَ ومُدَّةِ كَوْنِهِ على  
 لَيْبِطٍ مع الرُّسُلِ ، فأَكْثَرُ من أن يُحْصَى ؛ وهو فى ذلك كُلِّهِ لا يَزِدَادُ إِلَّا  
 فُاراً واستكباراً . ومثل هذه الواسطة تُفْسِدُ على الرئيسِ كثيراً ، وتُبْغِضُ  
 إليه جماعةً .

[ أرسل فى ] أميرُ للسُّلَمِينِ ، وأنا يَمْكِنَاةٌ ؛ فسألنى عما صار إلى قُرُورٍ  
 من قِبَلِى ، فَرَوَيْتُ الأَمْرَ بِأَحْزَمِ ما يَمْكُنُ ، وقلتُ فى نفسى : « إن أَعْلَمْتُهُ  
 بذلك ، وهو على حال التَّمَكُّينِ عنده ، فربُّما أخرجهُ كِتَابِي عليه . وقرَّعَهُ به ؛  
 ثُمَّ اسْتَفْرَهُ على مَرَّتَيْتِهِ ؛ فيكون حَتْفِي على يَدَيْهِ ؛ ولو أُنِّى نَأْمَنُ مَكْرَهُ ،  
 لأَعْلَمْتُهُ بالحال ، أو رُبُّما يَقَعُ الكِتَابُ إلى يدِ قُرُورٍ من غَيْرِ تَعَمُّدٍ ، والنَّرَرِ  
 لا يَدْخُلُهُ إِلَّا أَهْوَجُ ؛ وكثيرٌ من الحقِّ يَجِبُ تَرْكُهُ ، [ وفيهِ فائدةٌ ] بِصَاحِبِهِ ؛  
 فلم يَسَعْنِ أن أقولَ فى جوابي للسلطانِ إِنَّهُ لم يَصِرْ إلى [ بغيرِ رشوةٍ ] ؛  
 ٢٠ فيَكْذِبُنِي ؛ إذ كان يعلمُ بلا شكِّ أَنَّنَا لم نُخَلِّهِ من ذلك . . . . . الدَفْعِ الذى

أعلمني رُسُلِي . وصَحَّ عِنْدِي أَنَّ قَرُورًا . . . . . حَيْثُ يَصْدُقُنِي ، وَلَا يَقَعُ  
قَرُورٌ عِنْدَهُ فِي . . . . . (١) »

### ٥٦ — بعض المؤامرات وتحادُل ابن القُلَيْعِيّ

[ أَمَّا أَخُونَا تَيْمٌ ، صَاحِبُ مَالَقَةٍ ، \* فَإِنَّهُ أَرْسَلَ إِلَى الْقَاضِي ابْنِ سَهْلٍ خَمْسِينَ (٤٧) رِبًا ]  
مِنْقَالًا ، يَسْتَعِظُهُ عَلَى الْقِيَامِ عَلَيْنَا بِالْحُجَّةِ مَعَهُ فَرَدَّهَا إِلَيْهِ ابْنُ سَهْلٍ  
الْمَذْكُورُ ، وَتَنَزَّهَ عَنْ ذَلِكَ .

وَقَالَ لِي ابْنُ الْقُلَيْعِيّ : « هَذَا وَقْتُ اقْتِرَاضِكَ لِهَذَا الرَّجُلِ ، بَأَن  
تَكْتُبَ إِلَيْهِ ، وَتَعِدَهُ بِالْقَضَاءِ عِنْدَ انْصِرَافِكَ ، وَهُوَ يَسْمَحُ فِي قِصَّةِ أَخِيكَ ،  
عَلَى أَنْ تَجْلِسَ مَعَهُ فِي أَحْكَامِهِ . فَإِذَا أَلْصَقْتَنِي بِهِ ، رَأَيْتَ عَجَائِبَ مِنْ  
تَأْتِي الْأُمُورَ عَلَى مَرْغُوبِكَ عِنْدَ الرَّابِعِينَ وَفِي بِلَادِكَ ؛ فَإِنَّكَ ، لَوْ شِئْتَ أَنْ  
تَأْخُذَ مِنْ أَحَدٍ دِرْهَمًا بَغِيرِ النَّامُوسِ ، لَسَمِعْتَ عِنْدَ النَّاسِ ؛ وَإِذَا أَخَذْتَ  
أَلْفًا عَلَى وَجْهِ الْحَقِّ ، حَلَّ لَكَ أَخْذُهُ ، وَلَمْ يَسْتَبِشْهُ أَحَدٌ . وَلَا أُجِدُّ  
أَحَدًا [ يَنْفَعُ لَكَ ] مِثْلَ هَذَا الرَّجُلِ ! » وَلَمْ يُبَارِخْنِي حَتَّى دَفَعْتُ إِلَيْهِ  
بِحِطَّةٍ يَدِي رُقْعَةً تَتَضَمَّنُ لَهُ الْقَضَاءَ ، وَمَا يَتَرَتَّبُ لَهُ عَلَيْهِ مِنْ مُسَانَهَةٍ وَمُشَاهَرَةٍ .  
وَرَأَيْتُ إِبَاجَتَهُ إِلَى ذَلِكَ صَلاَحًا بِي وَخَطَأً بِأَخِي ، وَلِمَا تُوجِبُهُ السِّيَاسَةُ مِنْ  
مَسَايِرَتِهِ وَمُدَارَاتِهِ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ . [ وَكَنتُ أَظُنُّ أَنَّهُ ] قَدْ حَرَصَ عَلَى  
الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ، وَلَا أَرَاهُ يَنْبَلِغُنِي إِلَّا بِي ، مَا لَمْ . . . . . وَفِي هَذَا  
فَسَادُ مُلْكِي وَخَلْيِي ، وَيَقْدَرُ عَلَى ذَلِكَ . . . . . (٢) .

(١) غَرَمَ لِحَوْمِ نِصْفِ صَفْحَةٍ فِي الْأَصْلِ .

(٢) غَرَمَ لِحَوْمِ نِصْفِ صَفْحَةٍ فِي الْأَصْلِ .

« . . . \* وبك واثقٌ غير أنك قد جعلت لي بقولك هذا من الحرص ٤٨ (أ) على هذا المال ما أريد أن تعلمي من يقبض ! » فإني لا أكاد أن أصدق ، احتياجي إلى ما تحنُ بسيله من النفقات ، وإقامة هذا الجيش كل عام . فجعل يُسَمَّى لي أقواماً لا يصحرم في الخير والفضل ، وقدم ذكر صاحب الأقباس ابن سلْمون ، ونسب إليه برسم الأقباس ، وغيرهم ممن لم يُبَلَّ منهم إلا الطاعة والنصيحة . فقلتُ في نفسي : « الله أكبر ! ما قصد هذا إلا إلى هذه الحاشية لنا ولأبائنا ، ألا وهو يُريد إفرادنا دونهم ، ليتمكن بما شاء ، ولا نجد صديقاً نستريح إليه ، مع ماتيين من أنفاسه ، وحده مقاطيعه ، وأغراضه القاتلة ! »

١٠ والعين تُبْصِرُ في عَيْنَيَّ مُحَدِّثَهَا إن كان من حزبيها أو من أعاديها وجعل يطلبُ بني السَّئِدَى والكَتَبَةَ وغيرهم ممن قد اصطَنَعْنَاهُ [ ونأمن ] أماته ؛ ثم قال لي : « كلُّ ما رأيتَ من السلطان في لَيْسَط . . . . . كان مفضلًا أن يجعل لك مجلسًا ولغيرك تسه . . . . . وأنت على سعة ، وأفعل شيئًا تبطل به حجته [ عليك ] . . . . . (١) »

١٥ . . . . . \* كنتم عليها من التَّزَقُّبِ والإنذار بالعيال نفثة حاقدة . ٤٨ (ب) وكان هذا القلبيُّ مخملاً في أيام الشيخ جدنا — رحمه الله — ؛ وكان لا يدعه في المدينة ، ويأمره بسكنى ضيعة ، لما كان يرى من شره وقدرته على الدواخل . فلما ظهر أمر المرابطين ، اصطنع إلى مؤمل وغيره ، ووسم لي بسمة الخير والقدرة على الكلام ، وأنه لا أحد يقدر على استمال المرابطين على ما هو عليه . فوجهته رسولا ، وهو في ذلك يعمل لنفسه ، ٢٠

(١) عزم نحو نصف صفحة في الأصل .



ويسعى في هلاكى في الباطن ، وينتف بذلك ، على ماصح عندى ، ويقول :  
« والله ! لأبلغن حفيد باديس الطينة السوداء ، ولأشوقه إلى درهم ينفقه ،  
[ وذلك ] على صنيع جدّه بى وبيرى ! »

وأخبرنى أبو بكر بن مسكن أنه [ كان كتب ] إلى أمير المسلمين في  
أول سفره معه ، ولقى في الطريق خبر دخوله [ الأندلس ] ، وقال :  
« هذا على رغم أنوف الفسقة سلاطين الأندلس ! » قال أبو بكر بن مسكن :  
« وتخلط معهم سُلطانك ؟ » قال : « نعم ! وهو المقدم إن شاء الله !  
..... مات لتنفذ الأقدار ! » فلما أذن الله بانصرافه . . . . . تكلم  
ابن سهل إلى الأمير وقال له : « أنت على ..... »<sup>(١)</sup>

١٠ « . . . \* نحن بحال لا يرضى عنا فيه لارعية ولا جند ؛ وفي هذا  
الفساد والقطع . قال لى القليعى : « إن نعين عليك الجند ، استنجدت  
من العدو من يفتيك عنهم . ودعنى ورأى بعد إشراكى مع ابن سهل ،  
ولا عليك من حيث يقوم لك المال ! »

فرايتُ أترأُ معى ومستأترأُ به دونى ، مع ما كان ينطق به لسانه أبداً  
١٥ من الوعيد ، والتهديد عند أصدقائه ومن ينقل ذلك إلى عنه أنه يقول :  
« والله ! لأبلغن من حفيد باديس ما كان يبلغ جدّه منى ومن غيرى ! »  
يسرح بذلك لقلّة تحفظه وإرساله لسانه ، ولاحتقاره لنا واحتياجنا إليه . فزاد  
ذلك الجند قلقاً ، وهما بالانتقال مجتمعين على ذلك .

فلما بصرتُ هذه الحالة ، قلتُ فى نفسى : « أنا بسبيل ، إن استفسدتُ  
٢٠ إلى الجند ، وهم جناحى ، أن بقيتُ وحدى مع يروم خلئى . فالأولى على

(١) غرم لحو نصف صفحة فى الأصل .

كلَّ حال أطباؤهم ، واستصلاحُ ما فسد من أنفسهم ؛ وإسقاطُ القلبيِّ وحدهُ واجبٌ في رضى عائمة عبيدى وأجنادى . « جُمِعَتْهُمْ بِمَحْضَرِهِ ، وَأَعْلَمَتْهُمْ أَنِّي رَاجِعٌ عَنْ ذَلِكَ لِلذَّهَبِ ، وَرَأَيْتُ عَلَيْهِمْ إِثْرَ أَلَاتِهِمْ . فَهَامَ الْكُلُّ عَلَى الْقَلْبِيِّ ، وَهَمُّوا بِاخْتِطَافِهِ مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ لَوْلَا إِسْكَائِي لَهُمْ ؛ وَخَشِيتُ مَعَ هَذَا عَلَيْهِ أَنْ يَنْتَلُوهُ ، فَتَكُونُ شَهْرَةً وَعُقُوقًا ، وَيَنْجِرَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ الْمُحْمَدِ .

فَقُلْتُ لَهُمْ : « أَنَا أَكْفَيْكُمْ أَمْرَهُ ! » وَأَعْرْتُ بِتَقَافِهِ عَلَى أَجَلِ الْوَجُوهِ فِي بَيْتِ بَقَرٍ مِنَ الْقَصْرِ ؛ وَكَانَ تَحْتَ بَرٍّ وَإِكْرَامٍ ، وَأَنَا فِي ذَلِكَ أَعْتَدِرُ إِلَيْهِ مِنْ قِيَامِ الْعَائِمَةِ ، وَأَعِدُّهُ بِالْانْطِلَاقِ عِنْدَ إِطْفَاءِ النَّارَةِ ، كَالَّذِي صَنَعْتُ .

فَلَمَّا تَوَلَّدَتِ الْأَحْوَالُ وَقَرَّتْ قَرَارَهَا ، أَمَرْتُ بِإِخْرَاجِهِ ، وَأَنْهَيْتُ إِلَيْهِ أَنْ يَكْفَ لِسَانَهُ ، وَيَدْعَ فُضُولَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ إِلَّا فِيمَا يَعْينُهُ وَيُشَارِكُ طَرِيقَتَهُ . فَقَالَ لِي : « نَعَمْ ! أَنَا أَلْتَزِمُ الرُّوَاطِطَ ، وَأَسْأَلُكَ سَبِيلَ الْعَافِيَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ! » فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنْ انْطَلَقَ ، وَطَارَ\* إِلَى أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ بِالشُّكْرِى ، ٤٩ (ب) وَزَادَ فِي الطَّيْنِ بَلَّةً . فَقَالَ لِي الْجُنْدُ : « لَوْ أَنَّكَ أَمْسَكْتَهُ ، لَمْ يُهَيِّجْ عَلَيْكَ النَّارَ وَسَتَدُمُ عَاقِبَةُ انْطِلَاقِهِ ! »

١٥ ٥٧ - سيرة الجند مع الأمير في ذلك الحين . تشييد الحصون

وَأَرَانِي جَمِيعَ الْجُنْدِ مِنَ التَّائِيِّ وَالْإِتْقَادِ وَالْمُنَاحَةِ مَا حَسِبْتُ أَنَّهُمْ يُقَاتِلُونَ ضَى الدَّجَالِ . فَسَرَرْتُ بِهِ هَذِهِ الْحَالَةَ ، وَاطْمَأَنَنْتُ إِلَيْهَا ، وَقُلْتُ : « هُوَ لَاءُ أُمَّةٍ لَا يَرَوْنَ بِي بَدِيلًا لِإِنْصَافِي لَهُمْ وَرَغْدِ عَيْشِهِمْ مَعِي ؛ وَهُمْ قَدْ رَأَوْا جُنْدَ الْمِدْوَةِ ، وَأَنَّ أَقْلَ عَبْدٍ لَهُمْ أَقْنَى مِنْ غَيْرِهِمْ ، وَأَصْلَحُ حَالَهُ .

٢٠ فَلَا يُمْكِنُ اسْتِبْدَالُ الْأَذْنَى بِالْأَفْضَلِ ! » ثُمَّ عَلِمْتُ قِيَاسَ لِلْغَارِبَةِ أَهْلَ

الحصون ، وَعَلِمْتُ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْخَيْرِ ؛ وَلَمْ نَنْظُنْ قَطُّ أَنَّ أَحَدَهُمْ يَبِيعُ  
أَبَائِي . وَإِنَّمَا وَجَسْتُ نَفْسِي مِنَ الرِّعْيَةِ لَطَمِهِمْ فِي حِطِّ الْمَغَارِمِ ، وَلِلَّذِي  
شَاعَ مِنَ الزَّكَاةِ وَالْمُشْرِ عِنْدَ الرُّبَاطِيِّينَ . قُلْتُ : « إِنَّ بِهِذِهِ الْعِثْبَانِ الَّتِي عَلَى  
رُؤُوسِهَا ، لَا تَجْتَرِي عَلَى شَيْءٍ » . وَإِذَا تَقَفْتَ لِلْمَاقِلِ ، كَانَ أَمْرُ الرِّعْيَةِ يَسِيرًا .  
وَكَمْ عَسَى يَسْتَطِيعُ الْجَيْشُ الْقَادِمُ عَلَى أَنْ يَتِمَّ جَمِيعَ الْبِلَادِ ؟ وَمُحَاوَلَةُ مَتَقَلِّ ٥  
وَاحِدٍ مِنْهَا تَطُولُ ، وَتَخْذُلُ فِي خِلَافِهِ أَخْوَالُ . »

فَصَرَفْتُ وَجْهَ اهْتِبَائِي إِلَى تَشْيِيدِ الْحَصُونِ وَبُنْيَانِهَا ، وَإِعْدَادِ مَا يُصْلِحُهَا  
لِلْخِصَارِ إِنْ كَانَ . فَلَمْ أَدْعُ وَجْهًا مِنْ وَجُوهِ الْحَزْمِ إِلَّا وَضَعْتُهِ : مِنْ إِقَامَةِ  
الْأَجْيَابِ ، وَإِعْدَادِ الْمَطَاحِينَ ، وَأَنْوَاعِ الْمُدَدِ مِنَ التَّرَاسِ وَالنَّبْلِ وَالرَّعَادَاتِ ،  
وَجَمِيعِ الْأَقْوَاتِ ؛ وَقَلَعْتُهَا مِنَ الْقُرَى ؛ وَأَعَدَدْتُ لِكُلِّ حِصْنٍ قُوَّتَهُ لِأَزِيدَ ١٠  
مِنَ الْعَامِ . وَفَعَلْتُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فِي لِلدِّينَةِ حَضْرَتِي ، مَا اسْتَعْنَيْتَنِي عَنْ  
تَحْدِيدِهِ لِاسْتِهَارِهِ .

وَقُلْتُ : « لَيْسَ مِنَ الْمُتَمَكِّنِ أَنْ يَتَعَرَّضَ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ أَحَدًا مِنْ  
سُلَاطِينِ الْأَنْدَلُسِ إِلَّا بَعْدَ إِبْرَامِهِ لِأَمْرِ الرُّومِيِّ ! وَلَا بُدَّ عِنْدَ مُنَاطَرَتِهِمْ مِنْ  
فَرَجٍ : إِنْ غَلَبَ الرُّبَاطِيُّ ، لَمْ يَفْتِنَّا الدَّخُولُ فِي طَاعَتِهِ ، وَلَا أَسَدَيْنَا إِلَيْهِ ١٥  
مَا تَذَمُّ عَاقِبَتُهُ أَكْثَرَ مِنَ الْاِحْتِيَاطِ عَلَى بِلَادِنَا وَالْمُدَارَاةِ عَلَيْهَا ؛ « فَلَا  
الْحِمَارُ سَقَطَ ، وَلَا الزُّقُ انْتَحَرَقَ ! » نَحْنُ مُدْرِكُونَ : لَا يَنْتَبِئِي تَقْدِيمُ  
يَدِهِ سَيِّئَةً إِلَيْهِمْ . \* وَإِنْ غَلَبَ الرُّومِيُّ ، كُنَّا مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ ، وَقَدْ نَعْنَا ٥٠ )  
مَا أَبْرَمْنَاهُ مِنْ هَذَا الْبُنْيَانِ وَالتَّشْيِيدِ ، وَاتِّخَاذِ الْمُدَدِ ؛ فَسَيَكُونُ بِذَلِكَ  
لِلْمُسْلِمِينَ حِمَايَةٌ وَانْجِرَارٌ إِلَى غَدٍ ، إِذَا الْبُنْيَانُ مِنَ الرُّبَاطِ لَا يَنْفَعُ ! ٢٠  
وَلِذَلِكَ أَعَدَدْنَا الْمَنْكَبَ : إِنْ تَغَلَّبَ الرُّومِيُّ ، فَأَكُونُ عَلَى الْبَحْرِ مَتَصِلًا

بالمسلمين ، ندافع منها جهْدنا ، إلى أن نُضطرَّ إلى الجواز وطلب السلامة  
بمُشاشة أنفسنا ونُتَقَب من أموالنا . فشيَّدتها لذلك ، كالذي شهر عتاً .

والجاهل لا يدرى ما أولُ هذا ولا آخره ، إلّا ويخبط [خبط] عشواء :  
فكلُّ يتكلَّم على شهوته . ولم نَمْتَقِدْ في أمر المُرابطين — يعلم الله ذلك —

٥ صَدَّهم عن جهادٍ ، ولا تظافراً مع أحدٍ عليهم ، ولا أردتُ بهم شيئاً من  
مساءة نُيِّبَت إلينا ، أكثر من أني جَزَعْتُ الجزع الشديد مما تقدَّم  
ذِكْرُهُ من تلك للمعانى التي أبصَرْتُها ، وما جرى على ابن رَشِيْق ، مع  
هَلْيَى لذلك ، وتمكَّن السوداء مِنِّي ، وسوء الظنِّ مع معاينة اليقين .

فقلت : « ما دام تتلقَّى القِثَّتَانِ ، نخشى حملة السيل على هذه المدينة :  
١٠ فتحصينها أولى ، ولن يُضِرَّ ذلك » فتي دعاني أمير المسلمين إلى إعطاء

عسكري أو مالٍ ، أو ما أشبه ذلك مما يَجِبُ من مُشاركته وإنجاده ، لم  
نتأخَّر عنه ، فقمم على نفسي الحُجَّة ؛ وتجلب إلى المَصْرَّة إن فعلتُ غيره ؛

غير أنني ، متى دعاني إلى الخروج إليه بنفسى ، نَمْتَذِرُ وندافع ذلك  
جهدى . فمسي [أن] يتركنى ويقبل عذرى ؛ ومتى لم يقبل لى عذراً ، نعلم

١٥ أنه يُريد إخراج أمرى إلى حدود الفعل ؛ فهو إذاً على متَعَسِّفٍ لكلام الأعداء

والكذب ؛ فلا بُدَّ لى عند ذلك من الاحتياط على مُهَجَّتى والتحصين على  
نفسى ، ونجعله إذ ذاك كسائر مَنْ يُريدُ إخراجى من السلاطين ؛ ولّى معه

اللهُ ، إذا لم أنو به سوءاً ، ولا واسَّيتُ عليه أحداً ، ولا صدَّدتُه عن  
جهاده . فبأى شيء يتسبَّب إلى إلّا إن شاء التذنب مع القدرة ؟ فلا

٢٠ طاقة لى بذلك ،\* كالذى صنَّعَ إنسانٌ دَخَلَ على بعض الملوك ، وقد أعدَّ ٥٠ (ب)

لكلامه جواباً ؛ فلما خَرَجَ إلى الثفاف ، سُوِّلَ عن إعدادهِ الجواب وزَعَمِه

أَنَّ ذَلِكَ نَافِعٌ لَهُ ؛ فَقَالَ : « لِكُلِّ كَلِمَةٍ وَجِدْتُ جَوَابًا إِلَّا لِقَوْلِهِ :  
 « خُذُوهُ ! » فَلَمْ أَذِرْ مَا أَقُولُ فِيهَا ؛ فَوَكَّلْتُ الْأَمْرَ إِلَى الْأَقْدَارِ ! »  
 وَكُنْتُ ، أَيَّامِي تِلْكَ ، بَيْنَ الرِّجَاءِ وَالْخَوْفِ ، إِلَّا أَنِّي وَاقِعٌ بِكُلِّ  
 مِنْ مَعَى مِنْ رَجَالِي وَخِدْمَتِي أَنَّهُمْ لَا يَنْدَرُونِي . فَتَوَيَّتْ نَفْسِي لِذَلِكَ بَعْضَ  
 ٥ الْقُوَّةِ ، مَعَ مَا كُنْتُ أَعِدُّنَهُ .

### ٥٨ - معاقبة عبد الله مع البرهانيش وكيل القونش السادس

وَلَا حَانَ انْصِرَافُنَا مِنْ لَيْطٍ ، كَلَّمَنَا أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ فِي عَسْكَرٍ يَتَرُكُهُ  
 عِنْدَنَا بِالْأَنْدَلُسِ ، خَوْفًا مِنَ الرُّومِيِّ أَنْ يَكْلِبَ عَلَيْهَا ، وَيَطْلُبَنَا بِثَأْرِ تِلْكَ  
 ١٠ السَّفَرَةِ وَغَيْرِهَا ؛ فَلَا يَكُونُ عِنْدَنَا بَيْنَ نُدَافِعُ ؛ فَقَالَ : « أَصْلِحُوا نِيَّاتَكُمْ ،  
 تُكْفَرُوا عَدُوَّكُمْ ! » وَلَمْ يَعْطِنَا عَسْكَرًا . فَأَيَّقْنَا أَنَّ الرُّومِيَّ لَا يَدْعُنَا عَلَى  
 هَذِهِ الْفُرْصَةِ دُونَ طَلَبِهِ . كَالَّذِي كَانَ . فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ احْتَضَلَ وَأَتَى طَالِبًا  
 لِلْمَالِ ، مُتَجَنِّيًا عَلَى مَنْ خَالَفَهُ أَنْ يُفْسِدَ بِلَادَهُ . وَعَاقَدَ صَاحِبَ مَرْقُوسَةَ  
 وَمَنْ يَلِيهِ مِنَ الشَّرْقِ ؛ فِدَافَعُوا شَرَّهُ وَدَفَعُوا إِلَيْهِ مَا سَلَفَ لَهُ عِنْدَهُمْ .  
 ١٥ وَبَلَّغْنِي الْخَبَرَ ، وَزَادَ ذَلِكَ فِي عَنِّي ، وَعَلِمْتُ أَنِّي فِيهِ كَرَاكِبِ الْأَسَدِ :  
 إِنْ أَسَلْتُ الْبَلَدَ ، وَلَا عَسْكَرَ عِنْدِي ، هُتِكَ ، وَلَمْ يَنْجِرْ لِي فِيهِ دِرْهَمٌ ،  
 وَلَمْ أَغْذَرْ مَعَ هَذَا ، وَلَا يَقْرَأُ الْمُطَالِبُ بِأَنْ يَقُولَ عَنِّي إِنِّي ضَيَعْتُهُ أَوْ  
 سَقْتُ إِلَيْهِ الْعَدُوَّ ، كَالَّذِي رَأَيْتُ وَسَمِعْتُ قَبْلُ عَنْ ابْنِ رَشِيقٍ — وَخُسَارَةُ  
 بَلَدِي زَائِدَةٌ — وَلَا نَقِيمُ أَوْدًا بِنْكَ لِكُلِّ مَا مُحَاوَلُهُ مِنَ الْغَزْوِ كُلِّ عَامٍ  
 ٢٠ وَضِيَافَاتِ الْمُرَابِطِينَ ؛ فَتَجْتَمِعُ عَلَى الْخُسَارَةِ مِنْ وَجْهَيْنِ . وَإِنْ وَاسَيْتُ الْقَوْمَ

وَأَصْلَحْتُ عَلَى نَفْسِي ، قِيلَ : « قَدْ عَاقَدَ الرُّومِيُّ ! » وَيُسْنَعُ عَلَى مَا لَمْ أَفْعَلْ ، كَالَّذِي كَانَ . فَلَمْ أَنْجُ مِمَّا تَوَقَّعْتُ لِلْقَدَرِ الْمُتَغَيُّبِ .

وَكَانَ أَلْبَرْهَانُ زَعِيمَ جِهَاتِ غَرْنَاطَةَ وَالْمَرْيَةِ ؛ وَكَانَ الْفُونُشُ قَدْ وَكَّلَهُ أَمْرَ الْجِهَتَيْنِ ، \* مِنْ إِقَادِ أَمْرِهِ فِيهَا لِفَسَادٍ عَلَى مَنْ تَعَذَّرَ لَهُ عِنْدَهُ ٥١ (١) شَيْءٌ ، وَلَقَبُضِ مَالٍ وَتَوَسُّطِ مَا يَنْفَعُهُ فِيهَا . فَأَرْسَلَ إِلَى أَوْلَا عَنْ نَفْسِهِ ، يُنْذِرُ بِدُخُولِ وَادِي آتَشَ ، وَأَنَّهُ لَا يَرُدُّهُ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا الْفِدَاءُ لَهَا . فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : « وَمَعَ مَنْ أَتَيْتُ رَأْيَهُ ؟ أَيُّ مَقْدَرٍ بَنَى عَلَى مُدَافَعَتِهِ ؟ لَا عَسْكَرٌ تَرِكَ لَنَا مُدَافِعُ بِهِ ! فَكَمْ يَأْخُذُ فِي هَذِهِ النَّصْبَةِ مِنْ أَمْرِي الْمُسْلِمِينَ ! وَكَمْ يَفْسُدُ فِيهَا مِنَ الْأَمْوَالِ ! مَا لَا يَبْشُرُ قِيَمَةً مَا يُعْطَى كَالَّذِي عَهَدْنَاهُ مِنْهُمْ ! اللَّهُمَّ ! لَوْ كَانَ ، وَفَقَدَ ذَلِكَ ، وَبِئَلْغَا عَنْ أَسْرَى الْمُسْلِمِينَ عِنْدَهُمُ ! أَلَيْسَ مِنَ الصَّلَاحِ إِفْدَاؤُهُمْ <sup>(١)</sup> بِمَا عَزَّ ؟ فَتَحَنُّ جُدْرَاهُ أَنْ نَفْعَلَ ذَلِكَ قَبْلَ رِحْلَتِهِمْ دُونَ فُسَادٍ فِي الْبِلَادِ ! وَتَحْتَسِبُ ذَلِكَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَهُوَ الْعَالَمُ بِالضَّمَائِرِ ! فَإِنَّا لَوْ فَكَلْنَا ذَلِكَ أَشْرًا وَبَطْرًا ، وَعِنْدَنَا بَيْنَ مُدَافِعٍ ، لَكَانَ فِيهِ الْحُجَّةُ عَلَيْنَا ! »

١٥ فَاجْتَمَعَ رَأْيُنَا عَلَى إِرْضَائِهِ بِالْيَسِيرِ ، مَعَ مُعَاقَدَتِهِ إِلَّا يَقْرُبَ لَنَا بِلْدًا بَعْدَ أَخْذِ هَذِهِ الدَّفْعَةِ ، فَارْتَبَطَ إِلَى ذَلِكَ . فَلَمَّا حَصَلَتْ عِنْدَهُ ، قَالَ : « هَا أَنَا قَدْ صَلَحْتُ جَانِبِي ! وَالْأَوْكَدُ عَلَيْكُمْ أَمْرُ الْفُونُشِ ، الَّذِي هُوَ عَلَى الْحَرَكَةِ عَلَيْكُمْ وَإِلَى غَيْرِكُمْ ؛ فَنِ أَنْصَفَهُ نَجَا ، وَمَنْ حَادَ عَنْهُ ، فَسَلَطْنِي عَلَيْهِ ! إِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ ، لَا بُدَّ مِنْ إِيْتَانِ مَرْغُوبِهِ ، وَالْوُقُوفِ عِنْدَ أَمْرِهِ . وَلَا يَنْفَعُكُمْ هَذَا الَّذِي أُعْطِيتُمُونِي إِنْ خَالَفْتُمُوهُ . وَلَيْسَ بِنَافِعٍ إِلَّا فِيمَا يَخْصُنِي دُونَ رَأْيِي ٢٠

(١) أصل : « أَفْدَاؤُهُمْ . »

إِنْ حَدَّ لِي ضِدَّهُ ا « فَعَلِمْنَا أَنَّ قَوْلَهُ حَقٌّ يَقْبَلُهُ الْعَقْل . قُلْنَا : « لَا يُمْكِنُ أَنْ نَوَجَّهَ نَحْنُ إِلَيْهِ وَنَبْدَأْهُ ؛ فَنُوقِظُهُ لِأَكْلِنَا ا وَلَكِنْ ، مَتَى أَرْسَلَ بِأَذْنِ بَذَلِكَ ، سَنَعْتَدِرُ إِلَيْهِ ؛ فَحَسْبُ [أَنْ] يَقْبَلَ رَغْبَتُنَا ، وَلَمْ نَفْتَحْ لَهُ بَابًا فِي إعْطَاءِ شَيْءٍ إِلَّا يَزِيدَ طَمَعَهُ ا أَكْثَرُ مِنْ تَلَوِّي الْقَوْلِ ، عَسَى مِنْ هُنَا إِلَى ذَلِكَ الْوَقْتِ ، [أَنْ] يَأْتِيَ عَسْكَرٌ يُكْسِرُ بِهِ ؛ فَلَا يَسْبَأُ بِقَوْلِهِ . وَإِنْ لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ ، لَمْ نَكُنْ نَقْدِّمُ إِلَيْهِ قَبِيحًا ، فَتَشَقَّى عِنْدَ ذَلِكَ . »

وَدَافَعْنَا الْأَمْرَ عِنْدَ الْبَرْهَانِشْ ، وَأَنَّهُ لَا سَبِيلَ إِلَى أَنْ نَعْطِيَهُ <sup>(١)</sup> شَيْئًا ، \* وَاعْتَذَرْنَا بِالْمُرَابِطِينَ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَزِمْنَا مِنَ النِّفَقَاتِ عَلَيْهِمْ . فَسَكَتَ عَنَّا ٥١ (ب) الْخَنْزِيرُ ، وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبِهِ ، كَالَّذِي يُلْزِمُهُ مِنَ التَّخَدُّمِ لَهُ ، وَسَأَلَهُ أَنْ يُوَجِّهَ لِي رَسُولًا يُطَلِّبُ جِزْيَتَهُ ؛ فَإِنْ أَنْصَرَفَ دُونَ شَيْءٍ ، كَانَ هُوَ الْمُتَنَقِّمَ ١٠ مِنْ جِهَاتِهَا .

## ٥٩ — التَّزَامُ عَبْدَ اللَّهِ عَلَى أَدَاءِ الْجِزْيَةِ لِأَلْفُونُشِ السَّادِسِ

وَعَقْدُ اتِّفَاقٍ جَدِيدٍ مَعَهُ

وَتَأَهَّبَ أَلْفُونُشٌ إِلَى الْحَرَكَةِ ، وَقَدَّمَ رَسُولَهُ بَيْنَ يَدَيْ حَرَكَتِهِ . فَلَمَّا صَحَّتْ عِنْدَنَا ، أَتَانَا مِنْهَا الْمُقِيمُ الْمُقْعِدُ ، وَلَمْ تَذَرِ أَيْنَ الْخَيْرَةِ : إِنْ كَانَ فِي رَفْضِ الْبَلَدِ وَتَرْكِهِ لِيَعْبَثَ فِيهِ ، أَوْ مُدَارَاتِهِ بِمَا تَيْسَّرُ . وَوَقَّتْ مِنْ ذَلِكَ هَيْئَةً فِي النَّاسِ وَرَجَّةً ، حَتَّى بَلَغَ مِنَ الْجَزْعِ أَنَّنَا لَمْ نُصَدِّقْ أَنَّ يَقْبَلَ مِنَّا لِلْمَالِ دُونَ الْمُلَازِمَةِ لَنَا ، طَالِبًا لِإِخْتَارِ لَيْيَطٍ وَمُعَاقَدَةِ الْمُرَابِطِينَ . وَطَمَعْنَا أَنْ يَقْنَعَ رَسُولُهُ بِالْيَسِيرِ ؛ فَقَالَ لِي : « لَمْ آتِ عَنَ ذَلِكَ كَلٌّ ،

(١) الْأَصْلُ ، « نَعْلُوهُ » .

إِلَّا أَنْ نَعْطِيَهُ مَا فَاتَهُ عَنْكَ مِنْ حِزْبِيَّةٍ ثَلَاثَةِ أَهْوَامٍ بِثَلَاثِينَ أَلْفًا ! لَا يُنْقِصُ  
مِنْهَا شَيْءٌ ؛ وَإِلَّا ، فَهَا هُوَ مُقْبِلٌ ! وَاللَّيْ تَقْدِرُ عَلَيْهِ ، فَأَصْنَعْ ! »  
فَرَوَيْتُ الْأَمْرَ فِي نَفْسِي ، وَرَأَيْتُ أَنَّ التَّعَاظِيَّ حَاقَّةٌ لَا تَقِيدُ ، وَقُلْتُ :  
« إِنْ أَخَذْتُ هَذِهِ مِنَ الرِّعْيَةِ ، ضَجَبْتُ وَشَكَّتُ ، وَيَكُونُ مُقَدِّمُهَا  
بِمَرْوُكْشٍ <sup>(١)</sup> شَاكِيَنَّ ، يَقُولُونَ : « أَخَذَ أَمْوَالَنَا وَأَعْطَاهَا لِلنَّصَارَى ! »  
وَلَكِنْ لِهَذَا الْوَقْتُ يَحْتَاجُ الْإِنْسَانُ مَا آذَخَرَ لِيَصُونَهُ بِهِ بَلَدَهُ وَعِرْضَهُ .  
وَأَنَا جَدِيرٌ أَنْ أُعْطِيَ ذَلِكَ مِنْ بَيْتٍ مَالِي ، بِحَيْثُ يَسْلُمُ الْبَلَدُ ، وَبِحَيْثُ  
تَشْكُرُ الرِّعْيَةُ بِمَدَافَعَةِ عَدُوِّهَا دُونَ تَكْلِيفِهَا شَيْئًا ، وَلَا تَقَعُ الشُّنْعَةُ ! »  
فَفَعَلْتُ ذَلِكَ ، وَأَرْسَلْتُ إِلَيْهِ الثَّلَاثِينَ أَلْفًا ، لَمْ أَرْزَأُ أَحَدًا فِيهَا دِرْهَمًا .  
وَرَأَيْتُ مَعَ ذَلِكَ أَنَّ أَجْدَدَ مَعَهُ عَقْدًا أَلَّا يَسْتَرْضَ لِي بَلَدًا ، وَلَا يَغْدِرَنِي ١٠  
بَعْدَهَا ، خَوْفًا أَنْ يَقْتَلِبَ عَلَيَّ ؛ فَأَجَابَ إِلَى الْعَقْدِ . وَقُلْتُ فِي نَفْسِي :  
« إِذَا لَا بُدَّ مِنْ دَفْعِهَا ، فَبِالْعَقْدِ أَوْلَى . فَإِنْ حُوجِّجْنَا إِلَيْهِ ، وَجَدْنَاهُ ،  
وَلَمْ يَضُرَّ ؛ وَإِنْ أَسْتُغْنِيَ عَنْهُ ، كَانَ مَكَانَهُ مُتَمَرُّ الْقَتَى وَالْبَيْضِ الرَّقَاقِ ، إِنْ  
تَدَارَكْنَا \* اللَّهُ بِمُسْكِرٍ يَدْفَعُهُ ؛ وَالْحَرْبُ خُدْعَةٌ ! » وَإِذَا لَمْ تَغْلِبْ ، ٥٢ (ب)  
فَأَخْلِبْ ! ١٥

فَأَجَابَ إِلَى تِلْكَ لِلْعَاقِدَةِ ، حِرْصًا عَلَى أَخْذِ الْمَالِ ، وَنَحْنُ لَا نَشْكُ أَنَّه  
يَقْدِرُ ، كَالْخَاطِرِ لِنَفْسِهِ لِلضَّرُورَةِ الَّتِي لَا سَبِيلَ إِلَى سِوَاهَا . وَقَالَ لِي عِنْدَ  
ذَلِكَ رَسُولُهُ : « يَقُولُ لَكَ أَلْفُونْشُ : « إِنْ كُنْتَ تُرِيدُ تَحْلُطَ مَعَ هَذِهِ

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ ، عَرْضُ « مَرَاكْشٍ » ؛ وَلَيْسَ بِتَصْغِيفٍ ، إِذْ عِبَارَةٌ « مَرْوُكْشٍ » كَانَتْ

تَمْتَمِلُ دُونَ فِئْرَهَا أَيَّامَ الْمُرَابِطِينَ مُؤَسَّسِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ ؛ وَهِيَ الَّتِي انْتَقَلَتْ إِلَى الْفَلَاةِ الْإِسْبَانِيَّةِ دُونَ عِبَارَةِ

« مَرَاكْشٍ » ؛ وَاسْمُهَا بِالْإِسْبَانِيَّةِ إِلَى الْيَوْمِ Marruccos .



- لِلْمُعَادَةِ اسْتِعَانَةً بِهِ عَلَى شَيْءٍ مِنْ بِلَادِكَ الَّتِي عِنْدَ ابْنِ عَبَّادٍ ، فَهُوَ يَجِدُ  
لَكَ فِيهَا فِي وَجْهِهِ هَذِهِ . « فَأَجَبْتُهُ : « إِنِّي لَا أَعِينُ عَلَى مُسَلِّمٍ أَحَدًا !  
وَإِنَّ الَّذِي دَعَانِي إِلَى هَذِهِ الْمُعَادَةِ الْمُدَافَعَةُ عَلَى بَلَدِي وَأَهْلِي مِلَّتِي . فَإِنْ  
وَقَّيْتُمْ بِذَلِكَ ، فَهُوَ الْمُرَادُ الَّذِي إِلَيْهِ قَصَدْنَا . » وَكَانَ مِنْ نَيْتِهِ أَنْ يَخْلُطَ  
الْفِتْنَةُ بَيْنَنَا وَيَيْنَ ابْنَ عَبَّادٍ ، لِيَجِدَ بِذَلِكَ السَّبِيلَ إِلَى بِلَادِهِ ، وَيَقْوَى  
عَلَيْهَا بِأَمْوَالِنَا ، وَيَتَسَبَّبَ إِلَى طَلَبِ كَثِيرٍ مِنْ أَمْوَالِنَا ، إِذْ كَانَتْ تِلْكَ  
الثَّلَاثُونَ أَلْفًا عَلَى وَجْهِ الدِّينِ الْمُسَالَمَةِ فَقَطْ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ اسْتِثْنَاءَ عَمَلٍ .  
وَكَانَ مَعَ هَذَا لَا يَتَّقِي يَقُولِنَا <sup>(١)</sup> ، وَيَحْسِبُ ذَلِكَ مِنَّا خُدْعَةً . وَقُلْنَا  
لَهُ : « إِنَّا مُتَرَدِّدُونَ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ مَعَكَ ، وَنَسْتَدْرِكُنَا تَبَاعُثُهَا عِنْدَ  
الرَّابِطِينَ ، وَنَطَالِبُ بِذَلِكَ ! » فَقَالَ ، تَسْهِيلاً لِأَخْذِ مَالِهِ : « مَتَى  
أَذْرَكُكُمْ فِي ذَلِكَ مِنْهُ طَلَبٌ ، فَقَلَى اللَّذْبُ عَنْ مَدِينَتِكُمْ . » فَأَجَبْنَاهُ :  
« بَلْ ، هُوَ يَرَى عِزَّنَا ؛ وَقَبُولُهُ وَعِظْفُهُ أَرْجَى عِنْدَنَا مِنْ مَوْتِكُمْ . »  
فَانْفَصَلَتْ الْحَالُ عَلَى ذَلِكَ ، وَقَالَ [ لِي رَسُولُهُ ] : « لَا بُدَّ لَهُ مِنْ  
تَدْوِيخِ سَائِرِ الْبِلَادِ مِنْ نَظَرِ ابْنِ عَبَّادٍ وَغَيْرِهِ ، إِنْ لَمْ يَنْطَلِقْ ! » فَقُلْتُ :  
« هَذَا أَمْرٌ لَا يَسْأَلُنَا اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ! كُلُّ أَحَدٍ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ !  
نَحْنُ قَدْ اخْتَلَنَّا عَلَى مَنْ قَلَدْنَا اللَّهَ أَمْرَهُ ، وَقَدَرْنَا أَرْوَاحَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ! وَمَنْ لَهُ  
حَاجَةٌ مِنْ سَائِرِ السَّلَاطِينِ يُقَابِلُ أَمْرَكُمْ حَسَبَ مَقْدَرِهِ ، إِنْ شَاءَ بِقِدَاءِ  
أَوْ قِتَالٍ . لَا تَكَلِّمْ نَحْنُ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا ، وَلَا يَنْبَغِي لَنَا ؛ وَلَا أَنْتُمْ  
وَاقِعُونَ تَحْتَ أَوْامِرِنَا ، فَهَذَا كُمْ عَنْ \* ذَلِكَ . وَنَحْنُ لَمْ نَتَخَلَّصْ مِنْ ٥٢ (ب)  
التَّحْصِينِ عَلَى مَا يَخْصُنَا إِلَّا بَعْدَ كَدٍّ ؛ وَمَا كَدُّنَا ، فَشَأْنُكُمْ ! وَأَنَا ٢٠

(١) أصل : « يثيق قولنا » .

يبرئ ، لا أنغسُ في ذلك يداً ولا لساناً . »

ولم أجدَ وَجْهاً نرجو به بعضَ الدِّفاعِ عن إخواننا المسلمين أكثرَ من  
مُخاطبةِ الْمُعتَمِدِ ، نُعلمه بِجَلِيَّةِ حالنا معهم ، وما ذكروه من إبطاءِ بلاده ،  
ونُنذِرُه بذلك ، لِكَيْ يَقلعَ ، ويُدْرِعَ الحِزمَ ، ويُقدِّمَ للأمرِ أهْبَتَه .

٦٠ - تهديد يوسف بن تاشفين إلى عبد الله

عبد الله يبرر مسلكه

ثمَّ خاطَبنا أُمَيدَ المسلمين ، ننصُّ عليه جميع ما وَقَعَ وما دَفَعَتِ الضَّرورةُ  
إليه ، وأنَّ الحاضرَ أبصرَ من الغائبِ ، ولو الحال يقتضى بِمَطلِها ، ولو بِمِقدارِ  
وصولِ الخطابِ بِمشورتهِ سلامةً للمسلمين ، لم أقدمُ شيئاً في ذلك ولا أخزتهُ  
إِلَّا عن رأيهِ ، كاللّهي يلزم ؛ غَيْرَ أَنَّ الحُفَرَ كان أشدَّ ، لم أَرِ التَّغْيِيرَ  
بالمسلمين ، وإنَّ الانتقامَ منهم مُدْرِكٌ بِحَوْلِ اللَّهِ على يديه . ولم نشكْ في  
أنَّ الجوابَ يَردُّنا بالشكرِ على ما نَظَرناهُ وسَدَدناهُ ، لا سيما إِذ كان  
القداءُ من عندي ولا أَكَلَفَ فيها مُسْلِماً دِرْهماً . فوردني جَوابُهُ مع  
ما أُمْلِيتُ نَفْسُهُ من الطَّلَبِ لي ، وصوَّرتُ عنده الأمورَ على غيرِ حَقائِقِها ،  
بما زاد في جِزْعِي ، يقول : « أَمَّا مُدَاهَنَتُكَ وَقَوْلُكَ الباطِلُ ، قد عَلِمناهُ !  
وسنَعلَمُ عن قَريبٍ كيفَ تَرْضَى الرعيَّةُ ، وما تَصْنَعُ إِذ زَعَمْتَ أَنَّكَ نَظَرْتَ  
لها . ولا تُسَوِّفُ : فَإِنَّ هذا قَريبٌ غَيْرُ بعيدٍ ! »

فلم أَقْطَعْ مع هذا ، وَقُلْتُ ، عند الحقائقِ وتَبَيَّانِ ما وَقَعَ ، على لسانِ  
رَسُولٍ : « يَزِيلُ عن بَالِهِ كَلامَ الأَعادِي ! وهذا من بَغْيِ التُّلَعِي »  
٢٠ وأبى بَكرُ بن مُسَكِّن ! فَإِنَّهم لا يَنقلِبونَ إِلَّا على شَهواتِهِمْ ! » وكان

- أبو بكر بن مُسَكِّن قد بلغ من طغيانه على<sup>١</sup> ، وسَبَّو لي ، ورجائه<sup>(١)</sup> في أن يسهمه أمير المسلمين من البلاد ما يكون قرني أو أكثر<sup>٢</sup> ؛ فإنه اتقى إلى بني زيري ، وجعل يهذي بذلك ويفتخر به ، لا يرى لأحد عليه فضلاً ، ويسعى في نقص ما نهرم من أحوال الدولة ما لا يتم معه ملك ولا أمر<sup>٣</sup> . فجعلت الذنب فيه سواه كما في \* القلبي<sup>٤</sup> ، إذ مقالته لا تظني (١) ٥ ما أشمل القلبي لو أراد الخير ، كما أن تركه لا ينقص ولا يفتر عن ذلك . فجعلت لهم<sup>٥</sup> فيها كهما واحداً .
- ولما تشددت عليه ، وأمرته بالكف ، أحرق ، وهرب دون نفي ، ومضى قاصداً إلى الرابطة ، يرى في<sup>٦</sup> ، ويسعى على<sup>٧</sup> ، ويكذب ، ويصور الأمور على غير وجوها . فتكررت مخاطبتي على أمير المسلمين ، نبين له جميع ما وقع ، ونشكو بما دهيت به من هؤلاء الفسقة . وهو ، في ذلك كله ، لا يراجعني إلا بالشدّة ، وقبول قولهم على<sup>٨</sup> . فقيت تلك الأيام على أسوأ حال . لا ندرى أين الخيرة ، ولا كيف التخلص .
- وساء ظن المعتد بي في دخول النصارى إلى بلاده ، وكفه عن بلادنا ؛ واعتقد أن ذلك عن اتفاق ؛ ولو كان عن اتفاق ، لأدبته عليه مالا فوق الجزية ؛ فليس لهم إلا بني الكرى غير منطاعين لقول أحد . ولم يات عسكر الرابطين إلى إشبيلية إلا والبلاد قد أفسد .
- والله تعالى يعلم أني ما واسيت في تلك النصبة ، ولا يسألني الله عن كلمة طعنت فيها على مسلم . فاتفقت الأفاويل عند أمير المسلمين بكثرة الطلب ؛ ولو أني أريد ذلك ، والانحيلش إلى النصارى ، كالذي قيل ، لم

(١) أصل : « رجاء » .

يَصِلُ الرُّابِطُونَ إِلَى سَبْتَةَ إِلَّا وَمَدِينَةُ غَرْنَاةٍ مَمْلُوءَةٌ مِنْهُمْ ؛ وَكَانَتْ  
 أَسْتَطِيعَ عَلَى ذَلِكَ ، وَكَانَتْ لِي فِي الْمَدَّةِ بَرَهَةٌ وَفَسْحَةٌ طَوِيلَةٌ ؛ إِلَّا أَنْ  
 الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَتِلْكَ الْقَالَةُ إِنَّمَا كَانَتْ سَبَبًا لِلَّذِي قُدِّرَ ؛ وَلَوْ أَنَّ قَضِيَّتِي  
 تُسْتَوْضَحُ ، كَوُجِدَ فِيهَا مَا لَا مَطْعَنَ فِيهِ ، وَلَا مَقَالُ يُنْتَهَى ، وَلَا إِسْرَارُ فِي  
 مَثِيلٍ عَلَى مُسْلِمٍ ، وَلَا إِدْخَالُ دَاخِلَةٍ . وَكَيْفَ يَصِحُّ هَذَا قَبْلَنَا ، وَأَوَّلُ  
 سَيْفٍ سُلِّ عَلَى الرُّومِ إِنَّمَا كَانَ مِنْ قَبْلِنَا ، وَهِيَ الْوَقِيعَةُ الْمَشْهُورَةُ بِالنَّبِيلِ ،  
 مِنْ طَاعَتِنَا ، فِي حِينَ تَطَرَّقَ النَّصَارَى إِلَيْهَا عَلَى حِينِ غَفَلَةٍ ؛ وَوَافَقَ ذَلِكَ  
 أَوَّلَ ظَهْرِ الرُّابِطِينَ وَوُصُولَهُمْ سَبْتَةَ ؛ وَوَرَدَنَا إِذْ ذَاكَ\* رَسُولُ الْفُونَشِ ٥٣(ب)  
 مُعْتَذِرًا مِنَ الْأَمْرِ ؛ فَصَرَفْنَاهُ عَنِ الطَّرِيقِ ، قَطْمًا لَهُ ، وَإِشَارًا لِأَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ .  
 ١٠ - وَعِنْدَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ الْخُصُومُ !

## الفصل التاسع

إمارة الأمير عبد الله بن بُلُقَيْن بن باديس ، مؤلف هذا الكتاب  
( ٥ ) الحوادث الأخيرة قبل النزاع ونُذُر الكارثة

### ٦١ - ثورة يهود مدينة اليُسَّانة

ولما كُنْتُ في تلك الفترة ، بَدَتْ أُمُورٌ وأسبابٌ دَلَّتْ على ما كان من  
الانتفال ومُتَعَدِّماتٍ أَذَنْتْ بِالزَّوَالِ . فأَوَّلُ ذلك نفاق أهل اليُسَّانة لِمَلَّةٍ  
نَذَرُهَا ، وأَرَقَّ سببٌ لَمْ يُوبَهُ لَهُ . وذلك أَنِّي ، لما أَمَرْتُ بُبْنِيانَ السُّورِ  
لِلتَّصُلِ بِالْحَمَاءِ ، ودَبَّرْتُهُ على تلك النِّصْبَةِ الَّتِي أَضْرَبْتُ عَنْ شَرِّحِهَا لِاشْتِهَارِهَا  
هَيَأَتِ السَّعَادَةِ أَنْ وَجَدَ الْبَنَّاؤُونَ فِي الْأَسَاسِ قُمُومًا مَمْلُوءًا ذَهَبًا أَغْلُوفِي بِهِ .  
فلما وَقَفْتُ عَلَيْهِ ، لَقِيتُ فِيهِ ثَلَاثَةَ آلَافٍ مِثْقَالٍ جَعْفَرِيَّةٍ . فاستبشرتُ بِهَا  
١٠ وتفاءَلْتُ بِنَجَاحِ الطَّلَبَةِ ، والدُّنْيَا تَسْخَرُ بِنَا كَمَا سَخَرَتْ بِمَنْ كَانَ قَبْلَنَا . فقلتُ :  
« مِنْ أَسَاسِهِ يَكُونُ بُنْيَانُهُ ! »

وكانت دارُ أَبِي الرَّيِّعِ الْيَهُودِيِّ الْخَازِنِ لِلْأَمْوَالِ فِي دَوْلَةِ جُدِّي  
— رَحِمَهُ اللَّهُ — مَبْنِيَّةً عَلَى ذَلِكَ الْأَسَاسِ ؛ فَلَمَّا أَنَّهُ مِنْ مَالِهِ لِلدَّفُونِ .  
فَأَتَى ابْنُ الْمَرْءِ مُتَنَصِّحًا بِالْأَمْرِ ، وَيَقُولُ : « أَرْسَلُوا عَنْ ابْنِهِ ، يَكْشِفُ لَكُمْ  
١٥ سَائِرَ دَقَائِقِهِ » فَخَطَبْنَا عَنْهُ لِيَرِدَ عَلَيْنَا فِي بَعْضِ الْأَمْرِ . وَكَانَ صِهْرُهُ ابْنُ  
مَيْمُونٍ ، كُنَّا قَدْ قَدَّمْنَاهُ عَلَى يَهُودِ الْيُسَّانَةِ بِوَجْهِ الْأَمَانَةِ ، وَأَسَدَيْنَا إِلَيْهِ جِيلًا

من التنويه به ؛ فاستال بها أقواماً من الغرباء ، يصول بهم على أهل ملته ؛ وكان خبيثاً . فأحسن بالقصة ، ووجست نفسه منها ، واعتذر عن صهره ، وساء لذلك ظنّه ، وخشى أن يُعذّب على مال أبيه .

ووافقَ قبلَ ذلك ، عند انصرافنا من لييط ، أن فرَضنا على أهل اليُسانة ذهباً كثيراً باسم التَّقوية ، لم تَجِرِ عادتهم به ، وحلّناهم في ذلك على الصّحة والانطباع ؛ فنَفَرَتِ لذلك أنفُسُهم . ووجد ابنُ مَيْمون المذكور السبيلَ إلى إغرائهم وتحليلهم على النفاق ؛ فأجابوه ، ودخلوا في السلاح ؛ ونادى فيهم أن : « جدّوا ، مَعَشَرَ بنى إسرائيل ، في حاية أموالكم ! » وافضح بذلك ابن مَيْمون . وسبّغت له جنابةٌ في قتل \* عاملنا ابن أبي لؤلا ٥٤ (١) على المُستخْلَص رياسةً وعدواناً . وامتنعت اليُسانة بالجملة . ١٠

فلما رأيتُ ذلك ، لم أجِدْ بُدّاً من مُداراة الأمر . واشترطَ مُؤمِّلٌ بإصلاحه ، ونهص . ثمَّ إِنِّي علّمت رأى بَعْدَه ، وعَلِمْتُ أَنَّهُ لا يَلِيقُ إلّا أَحَدَ جِهَيْنِ : إمّا طاعةً على غَشٍّ ، أو عصياناً ؛ وأيهما كان ، فإرسالُ العسكر إليه واجبٌ ، وشدةٌ وترهيبٌ ، ليعلموا قَدْرَ ما جَنَوْهُ . وخرَجْتُ بنفسى في أثره ، وقد اجتمعت إلى الأنداب . فإذا بمُؤمِّلٍ قد أَقْبَلَ مُنْصَرَفًا ، وردّنا عن ذلك للذهَب ، وقال لى : « قد أَصْلَحْتُ الأمر مع ابن مَيْمون . ونهوضك إليه لا يزيد القوم إلّا فِاراً ، وربما استعانوا بعسكر ابن عُبّاد ، لاسيّما أَنَّهُ الآن بِقُرْطُبة ، وليست تُؤْخَذُ بإحْصار ولا قتال ! » على أَنّى قد عَلِمْتُ أَنَّ ابنَ عُبّاد لا يَحْيِيهم في ذلك الوقت كُلّه ، ولا اشتهر بذلك إلّا ما كان الناسُ يذكرونه ، وابن مَيْمون يفتخر به ويُطَمِع به ٢٠ أهل اليُسانة .

فقبلتُ قولَ ابنِ مؤمِّلٍ ، وانصرفتُ على مقربة من الحضرة ؛ وقلتُ :  
 « خُروجي إلى هنا أو وصُولي إليهم سَوَاء ! إذا أردنا التَّهَيُّب ، فقد  
 وَصَلْنَاهُ ! » ثُمَّ قُلْتُ لِمُؤَمِّلٍ : « صِفْ عَلَيَّ مَا انفَصَلْتَ ! » قَالَ :  
 « إِنَّ ابنَ مَئِمُونٍ زَعِيْمُهُمَا عَدَدَ أَشْيَاءٍ أَنْكَرَهَا مِنَ الْإِرْسَالِ فِي صَهْرِهِ ،  
 ٥ وَهَذِهِ الْفَرْضَةُ الْعَظِيمَةُ ، وَسَائِرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَلْقَابِ الْإِلَازِمَةِ . فَضَمَنْتُ لَهُمْ  
 الصَّكُوكَ بِرَفْعِ ذَلِكَ عَنْهُمْ ، وَلابْنَ مِيمُونٍ فِي خَاصَّتِهِ . » وَأَمَرْتُ بِعَقْدِهَا  
 وَالْإِرْسَالِ بِهَا . وَقَرَّتِ الْجِبَالُ قَرَارَهَا .

وَوَجَسَتْ نَفْسِي مِنْ ابْنِ مَئِمُونٍ لِإِظْهَارِهِ الْخِلَافَ وَالْإِعْلَانِ بِذَلِكَ ،  
 وَعَلِمْتُ أَنَّ هَذِهِ هُدًى عَلَى دَخَنِ ، وَأَنْ لَا طَاعَةَ تَصِحُّ لِي مَعَهُ ، وَسَيُؤَثِّرُ  
 ١٠ أَمْثَالُ هَذِهِ . قَدَبْتُ إِلَى الْمُدَاخَلَةِ مِنَ الْيَهُودِ الْمُخْمُولِينَ فِي زَمَانِهِ ، وَوَعَدْتُهُمْ  
 بِالْإِحْسَانِ ؛ وَتَكَرَّرَ فِي الْوَسَاطَةِ ابْنُ سَيْبِقِي ، حَتَّى أَبْرَمْتُ مِنْ ذَلِكَ  
 مَا أَمَلْتُهُ . وَكَانَ أَخَذُ ابْنَ مَئِمُونٍ يَسِيرًا ، لَا عُصْبَةَ لَهُ ، وَهُوَ غَافِلٌ . وَكَانَ  
 الْوَسَاطَةُ أَيْضًا ابْنُ الْمَرَّةِ مَعَ أَبِي الْمُبَاسِ الْحَكِيمِ . وَكَانَ \* ذَلِكَ بِمَا نَقَعَهُ ٥٤ (ب)  
 مُؤَمِّلٌ لِأَنْخِيَاثِهِ عَنْ ذَلِكَ ، إِلَى أَنْ وَرَدُوا الْحَضْرَةَ عَلَى عَادَتِهِمْ ، وَأَمَرْتُ  
 ١٥ بِتَقَافِهِ مَعَ ابْنِهِ بَرَضَاءٍ مِنَ الشَّيُوخِ ، وَأَمَرْتُ أَنْ لَا زَعِيمَ فِيهِمْ بَعْدَ الْيَوْمِ  
 إِلَّا الْكُلُّ مِنْهُمْ أَمْنَاءُ مَتَّوْهَ بِهِمْ ؛ فَشَكَرُوا وَرَضَوْا . وَخَاطَبْتُ طَائِفَتَهُمْ  
 نُفْلِهِمْ بِمَا لَمْ فِي ذَلِكَ مِنَ الصَّلَاحِ . وَتَهَدَّيْتُ الْأَحْوَالَ وَقَرَّتْ ، إِلَى أَنْ  
 تَلَفَ الْكُلُّ .

## ٦٢ - قضية زناة

وقضية أخرى بعد هذه في أمر زناة : إنه ، لما أعلتُ الفكرة في عاقبة الأمر في هذه الفتن<sup>(١)</sup> العارضة ، رأيت أن الاحتيال بالمعاقل من آكد ما يجب النظر فيه ، كالذي تقدم ذكره من النظر في عُدِّها وما يُصلحها ، وأن الأولى استصلاح ما قسد من نفوس قوادِها . وذلك أنه لم يكن يلي لنا متعللاً قط غير صنهاجة والوصفان والعبيد ، ما خلا زناة : فإنهم كانوا أجناد الحضرة .

وكان الصنف المذكور قد ضعف ؛ واستولى عليه النقصان لمطالبات جرت عليهم من قبل وزراء الدولة كاليهودي وغيره ؛ فإنهم كانوا يرون ألا ولاية تنهياً لهم مع صنهاجة لاحتقارهم إياهم وأنفسهم من تولية مثلهم ، فكانوا يميلون إلى الصنف البراني كله ، ولما جرى على اليهودي ما جرى منهم ، اعتدّها الناية في نفسه ، وخشى مثل ذلك ، فجعل نفسه في مطالبتهم ، وتبديدهم ، وإنزالهم على الإنزالات الضعيفة ؛ ومن كان بيده شيء ، تسبب إليه وأزيل عن يده . فأذركم النقصان والقلة ، وزاد في زناة ، وقويت أحوالهم وإنزالاتهم ، على أنهم كانوا على الحقيقة خيرة جند الأندلس ، والموثوق بهم في الشجاعة والنجدة . وكان الصنف كثيراً ، لا يعدم ضمهم من له مال . قلتُ في نفسي : « هؤلاء القواد الذين على الحصون ، وإذا كانت أنفسهم فاسدة ، ولا يتذكرون معنا على نعمة طائلة ، فكيف يُمكنون المعاقل ، أو بأي قلب يجدون معي ؟ وإنه لا عِوضَ منهم في الثقة

(١) أصل : « الفتن » .



للمحصون \* وإن زناة هؤلاء المتأصلين لا تمة فيهم للمدينة الفوقى ولا ٥٥ (١)  
 للمحصون ، أكثر من خدمة الجندية ، لا يعدم منهم أحد . فأنا جدير  
 أن أشرك من ضعف من صنهاجة بهؤلاء الأقوياء الذين أدركتهم العناية  
 ويمسك واحد منهم أنزال خمسة فرسان وستة . ثم من قنع بما بيده بقي ؛  
 ومن لم يبرد ، لم نعدم منه الموضع ! « ففعلت ذلك ، وأشركتهم . وكان في  
 هذا كله تحريك للشرك والتقال :

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأكثر ما يجتنى عليه اجتباؤه<sup>(٢)</sup>  
 فلما رأى كبار زناة ذلك ، قلقوا ، وساءت ظنونهم ؛ فكنت ،  
 متى دعوتهم إلى خدمة ، تخدم عنها عاجزين : من أشرك ومن لم يشرك ؛  
 فامتنعت على ذلك ؛ فقبل لى : « إن كبارهم يفسدون صغارهم ! ولو أنك  
 تخرج غوغاتهم<sup>(٣)</sup> من البلدة ، لصلح لك سائرهم ! »

فأمرت بإخراج ثلاثة أنفس ممن يتهم منهم . وكان الأمور بذلك كئيب  
 النحى ، صاحب المدينة ذلك الوقت ، وقتناه لتربيتنا له . وكان في المجلس  
 أقوام يحسدوهم ويقتلهم على نفسه أن ينقلوا طريقته السيئة ؛ فأصاب الفرصة  
 للخراب ، وأرسل من قبله إلى أولئك المخرجين ، وإلى من سيواهم من بني  
 عمهم ، يقول لهم : « إن الطلب قد وقع فيكم من مجلس السلطان ؛ وأمرت  
 بإخراجكم . فلا توهنوا ، واجتهدوا في التمسك عليه وتزويده ! وأنا معكم  
 فإنه ، إذا رأى جماعتكم ، رجع إلى قولكم ! » فلم يكن إلا بعد الأمر  
 بساعة ، وإذا بجماعة الجند قد أقبلوا إلى باب المدينة ، يقولون : « إنا أن  
 يورد شركتنا ، وإنا فالكل راحلون عنه ، منتقلون إلى غيره ! » وأتى

(١) ورد هذا البيت أعلاه . (٢) كذا في الأصل ، عوضاً عن « غوغاتهم » .

الفاسقُ لبيبٌ وأصحابُه المتفقون معه ، يقيمُ حُجَّتَهُمْ ، ويُعْضِدُ قَوْلَهُمْ ، ويخوِّفُ منهم . فَبَيَزَتْ الأَمْرَ ، وَعَلِمَتْ أَنَّ هَذِهِ جَمْعَةٌ لَا يُرْجَعُ فِيهَا إِلَّا إِلَى رَأْيٍ ؛ فَأَظْهَرَتْ الشَّدَّةَ ، وَقَلَّتْ : « لَسْتُ بِرَاجِعٍ عَمَّا أَمَرْتُ ؛ فَتَكُونُ نَفُوسُ الَّذِينَ أَشْرَكْتُ مَعَهُمْ مُنْصَرِفَةً \* إِلَى مِثْلِ نَفُوسِهِمْ ! فَمَنْ شَاءَ ، فَلْيُؤَمِّرْ ، وَمَنْ شَاءَ ٥٥ (ب) فَلْيَبْقَ ! » فَلَمَّا سَمِعُوا بِذَلِكَ ، خَرَجَ الْكَلُّ .

وَمُؤَمِّلٌ ، فِي هَذَا كَأَنَّ ، عَلَى اتِّفَاقٍ مَعَ لَيْبٍ ، يَدْخُلُ فِي رَوْثِ الْجُنْدِ وَيَقُولُونَ لَهُمْ : « إِنَّ هَذَا مِنْ قَبْلِ غَيْرِنَا ؛ وَنَحْنُ أَبْرِيَاءُ ! » وَيُرَوِّهِمُ الشَّقَّةَ مِنَ الأَمْرِ وَالطَّمَنِ عَلَى . وَصَحَّ ذَلِكَ عِنْدِي مَعَ طَائِفَةٍ مِنْ شِيُوخِ الْعَبِيدِ أَصْحَابِ مُؤَمِّلٍ ، وَعَلِمْتُ حَسَابَ زَنَاتِهِ أَنَّهُمْ لَا يَزُولُونَ بِالْكَلِّ ، وَأَنَّ ذَلِكَ تَرْهِيْبٌ ، وَأَنَّ الرُّجُوعَ عَمَّا أَمَرْتُ بِهِ يَضُرُّهُمْ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُخْلُ بِالرَّأْيِ ١٠ وَيَكُونُ لَهُمُ الضُّوْلَةُ وَالْحَاقَّةُ فِي النَّصِيَةِ ، وَأَنَّ انْقِيَادَهُمْ لِلأَمْرِ وَاسْتِعْذَارَهُمْ بَعْدَهُ أَشْبَهُ ، وَلِلْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ أَعَزُّ وَأَبْعَى .

فَلَمَّا كَانَ يَوْمٌ آخَرُ ، خَرَجْتُ بِنَفْسِي إِلَى عَرَضِهِمْ كَيْ لَا يُبْطِنَ عَلَيَّ مِنْ تَقَدُّمِ ذِكْرِهِ . فَأَمَرْتُ بِالْبَرِيحِ عَلَيْهِمْ وَابْحَضَارِ الزَّمَامِ ، لِنَعْلَمَ مِنْ صَحِّ مُضِيئِهِ وَقَعُودِهِ . ١٥ فَوَجَدْتُ الْكَلَّ مُجْتَمِعِينَ ، قَدْ انْصَرَفُوا مُتَقَطِّعِينَ لَيْلًا ، لَمْ يَنْبِ مِنْهُمْ أَحَدٌ فَوْقَ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ أَمَرْتُ بِإِخْرَاجِهِمْ ، وَجَعَلُوا يَمْتَذِرُونَ وَيَتَنَصَّلُونَ . فَقُلْتُ : « اللَّهُ أَكْبَرُ ! هَذَا أَشْبَهُ وَالْتَبَقَ بِالْمَلِكَةِ ! » وَرَأَيْتُ مُؤَمِّلًا وَلَيْبِيًّا وَغَيْرَهُمَا قَدْ عَزَّتْ عَلَيْهِمْ طَاعَتُهُمْ مُؤَمِّلِينَ أَنَّ لَوْ كَانَتْ طَائِفَةٌ لَا تَرْفَعُ .

وَالْعَيْنُ تُبْصِرُ فِي عَيْنِي مُحَدِّثَهَا إِنْ كَانَ مِنْ حَزْبِهَا أَوْ مِنْ أَعَادِيهَا

### ٦٣ - انقلاب مؤمل وثورته في لوشة

- ولما قرأ أمرهم قراره ، جاء مؤمل في إثر ذلك يقول : « إن هذا الانطباع منهم ليس لرغبة في البقاء معك ! غير أنهم يدأرونك حتى يحصلوا على فائد إنزالاتهم ، ويتزودوا به ! فلا فائد تنزل عليه غيرهم ، ولا رجال بقوا معك ؟ » وكنتم إذ ذاك ناظرًا منه بيمين الثقة ؟ فعل قوله في نفسى ، وقلت : « لا يخلو هذا القول عن وجهين : إنا قد اطلع على ذلك منهم ، فهي نصيحة ، أو لم يطلع ، فهو بغالته لا يدعهم ، ويدخل هذا في رؤوسهم ، وتكون على في ذلك الخسارة . وإن احتجت إلى العوض ، لم يكن لى على ما ننزله ولا في بيت المال الكفاية لما نحن بسبيله \* من النفقات على سائر الأمم ! » فلم ٥٦ (١)
- يأتنى من هذه الكلمة نعاس . وأمرت بإخراج كل من في رأسه حاقة . فبلغ عدتهم نحو المائة فارس ؛ فخرجوا عن المدينة ، وتصفّت ، ولم يبق فيها إلا من ينطاع لكل أمر .
- وعمل في نفسى قتل كبيب وشيوخ العبيد ، وصح عندى منهم وفيهم أنهم عوجوا زنانة ؛ وكانوا أشد على من كل أحد . وجعل زنانة يذكرون ذلك ، ويقولون وقت اعتذارهم : « لا ذنب لنا ! إنما نحن جند ، ولولا ثقاته وعبيده الذين حملونا على ذلك ، لم نجترم<sup>(١)</sup> عليه ! » وجعلهم في وقت قيامهم يمشون على الأسواق ، ويأمرون الناس بالقيام ، ويقولون لهم : « لم ندفع نحن ، إلا وهو يريد إدخال النصارى ! » فلم يلتفت الناس إلى قولهم ، إذ لم يروا ذلك من ثقات الدولة وصنهاجة .

(١) أصل : « نجترنا » .

ولما أخرجَ زَنَانَةَ ، أمرتُ بعد ذلك بإخراج اثْنَيْنِ من شيوخ السبيد  
الذين صحَّ عندي إشْمَالُهم لهذه القضية ، وَتَقَفْتُ لَبِيًّا . فوافقَ إِخْرَاجَهُمْ  
مُؤَمِّلٌ خَارِجَ المدينة ؛ فلتحقوا به ، وقالوا له : « قد أَخْرَجْنَا ! وَغَدَا  
بِكَ هَكَذَا ! فَانْظُرْ لِنَفْسِكَ ! » فَخَرَجَ معهم من قَوْرِهِ ذلك ، قاصِداً إلى  
لَوْشَةٍ ، مع مَنْ اتَّفَقَ معه مِثْلُ ابن البراء الكاتب وَغَيْرِهِ .

وكانت هذه تَقَفَّةً قَدِيمَةً بَيْنَهُمْ مع بنى مالك عُمَالِ لَوْشَةٍ ، أَنَّهُ ، متى  
دهمهم أمرٌ ، لَجَؤُوا إليها . فنهضوا من قَوْرِهِمْ ذلك قاصدين إلى لَوْشَةٍ ،  
ولحقوا بها ليلاً . ودخل المدينة ، ولم يمنعه أَحَدٌ لِمَكَاتِهِ مِثْلًا ؛ وحسب القائدُ  
ومن فيها أَنَّهُ رَسُولٌ . فصار في قَصَبَتِهَا ، وجمع الجُنْدَ والرعيَّةَ ،  
١٠ وصرخَ فيهم بالبكاء ، وافعل الكذب ، وقال لهم : « لم أَخْرُجْ من  
غُرْنَاطَةٍ إِلَّا كَمَا تَرَوْنَ : « بَطَلَوْنِي عَلَى عُنُقِي » ! وتركْتُ فيها النصارى  
قد استَخَوْذُوا عليها ؛ وكُشِفَ عَنِّي ! فَاتَّبَعُوا معي وَنُوجُّهُ إِلَى كُلِّ  
سلطان : فمن أَجَابْنَا ، اعتَصَدْنَا به ! » وخاطَبَ بذلك حُصُونَ القَرْبِ ، بِأَمْرِهِمْ

بِالْخِلَافِ ؛ وأرسل إلى زَنَانَةَ الْمُخْرَجِينَ ، لِيَكُونُوا معه مُضَيِّقِينَ عَلَى \* غُرْنَاطَةٍ . ٥٦ (ب)

١٥ وَإِنَّ أَهْلَ الحِمَّةِ مع أَهْلَ الحِصُونِ ، لَمَّا سَمِعُوا ذلك ، دَبَّرُوا رَأْيَهُمْ .  
وأرسل كلُّ حِصْنٍ من كبارهم إلى الحَضْرَةِ مَنْ يَطْلُعُ صُورَةَ الأَمْرِ ؛ فَإِنْ  
وَجَدَ خِلَافَ قَوْلِهِ ، لم يُخْرِبُوا وجوههم معنا ؛ وَإِنْ أَلْفَوْهُ سَحًّا ، نظروا  
لأنفُسِهِمْ . فَاتَوْنِي أَفْوَاجًا مُعَزِّينَ وَمُهَيِّئِينَ عَلَى السَّلَامَةِ من النصارى ،  
وَمُسْتَفْهِمِينَ جَلِيَّةَ الحَالِ . فَأَخْبَرْتُهُمْ بالأمر على وَجْهِهِ ، ولم يروا شَيْئًا  
٢٠ يَمَّا ذَكَرَ مُؤَمِّلٌ . فَطَابَتْ أَنفُسُهُمْ ، وَعَلِمُوا أَنَّهُ مُخَالِفٌ مُنَافِقٌ . فبادَرَ  
الكلُّ إلى مُنَازَلَتِهِ ، وسألُونِي عَشَكَرَ الحَضْرَةِ .

وَكُنْتُ ، لَمَّا صَحَّ نَفَاقُهُمْ بِلَوْشَةٍ ، قَدْ أَبْلَيْتُ لَهُمْ عُذْرًا ، وَأَرْسَلْتُ  
إِلَيْهِمْ كُتُبًا وَرُسُلًا تَأْمَنُهُمْ بِمَا خَافُوا ، وَتَحَذِّرُهُمْ قَبِيحِ الْعَاقِبَةِ فِي إِشَارِ  
الْفِتْنَةِ ، وَأَنِّي مُطْلِقٌ إِلَيْهِمْ أَهَالِيَهُمْ ، وَيَجْرُوجُونَ عَنِ الْحَصُونِ حَيْثُ شَاؤُوا  
بِأَمَانٍ وَوَثَاقٍ ؛ وَهُمْ فِي هَذَا كُلِّهِ ، لَا يَزِيدُونَ إِلَّا طُغْيَانًا وَتَهْدُدًا ، بِإِزْنِ  
عَلَى الشَّرِّ ، طَالِبِينَ لِلثَّارِ بِلَا ثَارٍ . فَلَمَّا يَسْتُ مِنْهُمْ ، مَعَ اتِّفَاقِ الْحَصُونِ  
عَلَيْهِمْ ، أَرْسَلْتُ بِالْعَسْكَرِ ، وَقَوَّدْتُ عَلَيْهِمْ يُوسُفَ بْنَ حَجَّاجٍ ، سَنَدُكُرُ  
وَجَهَّ مُصَاهَرَتِهِ لَنَا بَعْدَ هَذَا ؛ فَهَضَّ ؛ فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا سَاعَةً وَصُولِهِ ، وَجَزَعَ  
مَنْ مَعَهُ فِي الْقَصْبَةِ ، وَخَلَّتْ عَلَيْهِمْ ؛ وَدَخَلَهَا الْعَسْكَرُ ، وَأَمَرَ فِيهَا هُوَ  
وَكُلُّ مَنْ مَعَهُ . وَأَتَانَا مِنْ ذَلِكَ فَتْحٌ عَظِيمٌ .

١٠ وَأَمَرْنَا بِتِقَافِهَا وَسَوْقَانِ الْأَسْرَى ، وَتَقْنَانِهِمْ مُسْتَعْتِقِينَ فِي أَمْرِهِمْ ؛  
فَأَفْتَتِ السَّنَةُ أَنَّ قَتْلَهُمْ غَيْرُ جَائِزٍ إِذْ كَانَ تَقَارُؤُهُمْ جَزْعًا ، عَلَى أَنَّهُمْ  
كَانَتْ لَهُمْ سَعَةٌ فِي الْأَرْضِ غَيْرَ لَوْشَةٍ ، وَإِنَّمَا أَرَادُوا النِّسَادَ فِي الْأَرْضِ ؛  
وآخَرُونَ يَقُولُونَ بِقَتْلِهِمْ . فَأَثَرَتِ الْأَلَيْقُ وَالْأَبْعَدُ مِنَ الْأَنَامِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ  
لَا يَفُوتُ ؛ وَمِنْ أَخْلَاقِ الْكِرَامِ النَّائِي وَالْعَفْوُ عِنْدَ الْمَغْدِرَةِ . فَأَوْجَبَتْ  
السياسة تَقْيِيفَهُمْ وَالشَّدَّةَ عَلَيْهِمْ ، لِئَلَّا تَكُونَ طَرِيقَةً لَعِيرِهِمْ ؛ وَهُوَ بَابُ فَتْحِهِ  
عَلَى الدَّوْلَةِ مِنْ أَضَرِّ الْأَشْيَاءِ ؛ فَلَا غَفْلَةَ لِمَلِكٍ يَقْظَانِ فِيهِ .

وَخَاطَبُوا ، مُدَّةَ كَوْنِهِمْ بِلَوْشَةٍ ، كُلَّ رَئِيسٍ بِالْأَنْدَلُسِ ، حَتَّى صَاحِبِ  
مَالَقَةِ . فَلَمْ يَجِبْهُمْ \* أَحَدٌ . فَلَمَّا يَتَيْسَ مُؤَمِّلٌ مِنْهُمْ ، أَرْسَلَ إِلَى أَمِيرِ ٥٧ (١)  
الْمُسْلِمِينَ ، بِزَوْرٍ عِنْدَهُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ، وَبِكَذِبٍ ، وَيَقُولُ لَهُ : « لَمْ تُؤْتِ  
٢٠ إِلَّا مِنْ لِنْكَارِي أَمَرَ النَّصَارَى ، وَالْقِيَامِ بِدَعْوَتِكَ » حُجَّةٌ لَا تَقُومُ عَلَى  
سَاقٍ . وَكَانَ الْعَسْكَرُ إِلَيْهَا مُقْبِلًا مَعَ ثَمَانٍ ؛ فَانْصَرَفَ لَنَا عَمَلٌ بِأَخْذِهَا .

## ٦٤ - وَصَفَ الثَّائِرُ ثَمَانُ وَسِيرَتُهُ ضِدَّ عَبْدِ اللَّهِ

وكان ثمانُ المذكور ممن فعلنا معه جيلاً ، وأحسننا إليه مُحَرَمَةَ القَرَابَةِ والاطِّعَاعِ إلينا من المُرابطين ؛ وزال عَنَّا بعد إعماله الدواخِلَ علينا في حصوننا الغربِيَّةِ ، وعَقَدِهِ مع أهلها أن يصيروا في طاعة المُرابطين متى دُعُوا . وكان له بتلك الجهة إنزالٌ ؛ فتمكَّن من القُربِ والعَمَلِ بذلك ، وخرج عَنَّا بِسَراحٍ ادَّعى من أَجْلِهِ أَنَّ له بِالْعِدُوَّةِ مِيراثاً ومالاً يُريد اقتضاه ؛ فأبجنا له النهوضَ ؛ وإذا به يَسْتَعِي علينا . وقال للأمير : « نُفِيتُ من البَلَدِ من أَجْلِ نصيحتي لك وَتَحَبُّبِي في دولتك ! » أَمَرَ لم يكن منه حَرْفٌ ، حتَّى إِنَّ أَطْواقِي ، إِنَّ تَكَلَّمْتُ ، لَسَعَتْ عليَّ ، للقَدَرِ الذي شاءَهُ اللهُ ، عسى لعاقبةٍ مَحْمُودَةٍ إِنْ شاءَ اللهُ . ١٠

فَعَمِلْتُ هذه الماعى كُلَّها في نفس أمير السَّلمين ، مع ما صُوِّرَتْ عنده بكثرة الأموالِ الكذوبِ عليها والمُنْتَفَعَةِ في طاعته والجهاد معه لو بَقِيَتِ الحال .

## ٦٥ - مَسْأَلَةُ زَوَاجِ الْأَمِيرَتَيْنِ أُخْتَيْ عَبْدِ اللَّهِ

وإِنَّا في تلك الفترة ، رأينا من الصَّلاحِ النَّظَرَ لِمَنْ مَعَنَا من النِّبَاتِ وَتَزَوَّيجَهُنَّ قَبْلَ أَنْ يَفْجَأَ أَمْرٌ ، فَيَكُنَّ على غيرِ عِصْمَةٍ ولا كَفِيلٍ . ١٥ فتخيَّرنا لهُمَا من بنى عَمَّهُما شَاكِلَةً ، منهم مَعْدُ بْنُ يَعْلَى ، للذى كان عليه من النِّجَابَةِ والعقلِ وَلَحَّجَّةٍ ؛ فَصَدَّنا عن ذلك أَهْلُ دَوْلَتنا ، وقالوا نصيحةً وَحَسَنَةً : « إِنَّ أَنْتَ تَصَاهَرْتَ إلى بنى عَمِّكَ ، سَحَلْتَهُمْ دَالَّةُ القَرَابَةِ مع المُصَاهَرَةِ على الظهورِ عليك وفسادِ حالِكَ بِصَلاحِهِمْ . فَإِنَّكَ ! وعليك بَمَنْ

هو دون قِيَمَتِكَ ؛ فِرَاعِي إِحْسَانَكَ ، وَيَرَى هَذَا مِنْكَ كَثِيرًا ، وَيَرَى  
عِيَالَهُ بَيْنَ مَوَلَاةٍ ؛ وَإِنْ هُوَ تَحَرَّكَ إِلَى شَيْءٍ ، قَعَدَتْ بِهِ دَقَّةُ شَأْنِهِ ؛ فَلَا  
أَتْبَاعَ يُهَادِدُونَهُ . « قَبَلْنَا ذَلِكَ حَذَرًا \* عَلَى الدُّوَلَةِ ، وَقُلْنَا : « مِنْ صَلَاحِ  
مَنْ قَرَابَتَنَا ، نُذَرِكَ فُضْلَ الْخَيْرِ فِيهِ دُونَ مُصَاهَرَةٍ تُطْفِئُهُ ! »

وكان من بعض خَدَمَتِنَا مَنْ حَضَّنَا عَلَى يَوْسُفَ بْنِ حَجَّاجٍ ، لِعِلْمِهِ  
بِأَخْلَاقِهِ مَدَّةَ صَحْبَتِهِ لَهُ ؛ وَوَصَفَهُ بِصِفَاتٍ ظَاهِرُهَا يُشَبِّهُ الْمَشَاكِلَةَ . وَذَلِكَ أَنَّهُ  
قَالَ : « فِي الرَّجُلِ انْقِبَاضٌ وَاسْتِيحَاشٌ مِنَ النَّاسِ ؛ وَبِذَلِكَ تَأْمَنُ مِنْ  
إِجْمَاعِهِ عَلَيْكَ ؛ وَفِيهِ شُحٌّ كَثِيرٌ ، لَا يُخْرِجُ خَيْرَهُ مِنْ مَنْزِلِهِ ؛ وَفِيهِ غِيَرَةٌ شَدِيدَةٌ  
تُؤَافِقُ مُعَاشَرَةَ الْعِيَالِ ؛ وَبِهِ حَرَجٌ وَتَزَقُّ ، لَا تَصِحُّ بِهِ وَلَايَةٌ ؛ وَهُوَ مِنْ  
نَقْصَانِ الْبَيَانِ وَعِىُّ اللِّسَانِ مَا لَا يَطْبِئُ بِذَلِكَ النَّاسُ لَتَأَلُّبٍ ، إِنْ شَاءَ

عَلَيْكَ ، وَلَا تَقْضُ لِعَمَالِكَ أَوْ مَقَالِكَ وَالرَّجُلُ مِنْ أَوْسَاطِ النَّاسِ وَسِمَنٌ لَا يَنْتَمِي  
إِلَى مَلَكَ ، وَلَا تُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ بِمَا لَا أَصْلَ لَهُ فِيهِ . فَهُوَ بَيْنَ يَدَيْكَ كَالْكَأَةِ الَّتِي إِنْ  
شِئْتَ قَلَمْتَهَا ، لَمْ تَعْتَذِرْ عَلَيْكَ مِنْ أَصْلِهَا ، أَوْ كَالصَّمْغَةِ ، إِنْ شِئْتَ فَرَّقْتَهَا ،  
ظَهَرَتْ ؛ وَكَانَتْ لَكَ الْمَنَّةُ وَالْخِيَارُ ! وَالْآخَرُ هُوَ تَرَبُّبَتُكَ وَنَشَأَتُكَ ، وَابْنُ  
وَزِيرٍ جَدُّكَ ، وَلَهُ مِنْ بُعْدِ الْهِمَّةِ وَكَرَمِ النَّفْسِ وَحُسْنِ السَّمْتِ وَالْوَقَارِ عَلَى  
حَالِ الْحَدَاثَةِ مَا تُرْجَى بَرَكَتُهُ ؛ وَلَيْسَ بِمُنْقَدٍ قَلْبُهُ . وَإِنْ أَنَهَضْتَهُ إِلَى  
أَمْرٍ ، جَدَّ فِيهِ ، وَأَنْتَ آمِنٌ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ ، وَإِنَّمَا هُوَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ أَنَهَضَ  
ابْنَهُ إِلَى دَرَجَةِ يُتَرَقَّى عَيْنَهُ . وَالْأَوَّلَى أَنْ يَدْعُوكَ صِهْرُكَ « مَوَلَايَ » ،  
مَنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلًا ؛ فَتَشْقَى أَنْتَ وَتَحْنُ ، إِذَ الْغَدُ لَا يَحْتَمِلُ سَيِّئَيْنِ ،  
وَلَا تَدْرِي مَنْ السُّلْطَانُ فِيكُمْ ، إِلَّا مَنْ ارْتَضَيْتَهُ وَقَدَّمْتَهُ . »

فَقَدْتُ لَهَا النِّكَاحَ عَلَى أَتَمِّ مَا يُمْكِنُ ، وَاسْتَعَدَدْتُ فِي سَائِرِ أَمْرِي

بالأخزم ، ووَكَلْتُ ذلك إلى الأقدار ، وقلتُ : « هذا جُهدُ الاستطاعة ؛ ودون جُهدِك لا تُلام . والله أن يقضى بما شاء ! »  
ولمَّا صار وَلَدُ حَجَّاجٍ بِنْتُكَ لِلنِّزْلَةِ ، شَرِهَتْ نَفْسُهُ إلى وزارة الدولة ،  
مُتَّطِعٌ مِنْ لَمْ يَمِيزِ المذهب . ولم نكن بعد وزارة سِمَاجَةٍ نستعمل لذلك أَحَدًا .  
٥ فكَأَنَّهُ وَقَعَ فِي نَفْسِهِ التَّقْصِيرُ بِهِ ، جِهَالَةً مِنَ الْإِنْسَانِ \* بِقَدْرِهِ لَهُ مُهْلِكَةٌ ، ٥٨ (١)  
وَتَرْكُهُ صِيَانَةَ قَدْرِهِ لَهُ فَاضِحَةٌ .

### ٦٦ — حديث معترض عن نصحاء الأمير عبد الله

وكان أهلُ دولتنا على مَذْهَبِ جِهَالَةٍ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ : إِنْ كُلُّ أَحَدٍ مِنْهُمْ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ بِرَأْيِهِ ، وَأَنْ تَجْرِيَ الْأُمُورُ عَلَى هَوَاهُ ؛ فَإِنْ لَمْ يَتَّفَقْ ١٠  
ذَلِكَ لَهُ ، صَارَ فِي حَيْزِ الْأَعْدَاءِ ؛ وَلَوْ كَانَ عَلَى مَرْغُوبِهِمْ ، مَا تَّفَقَّ لِرئيسِ  
عَمَلٍ ، وَلَا تَمَّ لَهُ شَيْءٌ . وَكَانُوا قَبْلَ آيَاتِنَا قَدْ شَغَلَهُمُ الْخَوْفُ مِنْ صَوْلَةِ  
رُؤَسَائِهِمْ : مَا كَانُوا يَرَوْنَ السَّلَامَةَ غَنِيمَةً . وَلَمَّا تَمَّ لَهُمْ فِي آيَاتِنَا الْأَمْنُ ،  
وَأَنْسَيْنَاهُمْ مَا مَضَى ، أَدْرَكَهُمُ الْأَشْرُ وَالْبَطَرُ ، إِلَى أَنْ تَطْمَحَ أَنْفُسُهُمْ لِغَيْرِ  
ذَلِكَ . وَكُنَّا نَحْنُ نَظُنُّ أَنْ بِالْأَمْنِ نَسْلَمُ مِنَ اللَّاعِمَةِ وَالْعِدَاوَةِ . وَخَانَنَا ١٥  
الْقِيَاسُ ؛ وَكَذَلِكَ الْعَاقِلُ الْمُتَمَرِّزُ لَا يَجِبُ لَهُ أَنْ يَظُنَّ بِالنَّاسِ ظَنَّهُ بِنَفْسِهِ ،  
وَلَا يَعْمَلَ حِسَابَهُ وَحْدَهُ . فَلَيْسَ كُلُّ النَّاسِ عَلَى مَذْهَبِكَ ، وَلَا هَوَاهُ مُطَابِقٌ  
لهَوَاكَ ! وَلَا عَمَلُهُ أَنْ يَخْتَلَفَ الْأَهْوَاءُ تَقَعَ الْعِدَاوَاتُ ، وَبِاتِّفَاقِنَا تَكُونُ  
الْمُصَاحَبَةُ وَحُسْنُ الْمُعَاشَرَةِ . وَأَصْدَقُ النَّاسِ لَكَ مَنْ يَكَابِدُ مَعَكَ ، وَدِهَاهُ  
مِثْلُ الَّذِي دِهَاكَ ، وَإِنْ كَانَ مِنَ الْأَبَاعِدِ ؛ فَلَا تَسْتَرِيحُ إِلَّا إِلَيْهِ ؛ وَلَا تَشْكُ ٢٠  
هَمَّكَ مَعَ مَنْ لَمْ يَفِيهِ مَا عِنَّاكَ : فَإِنَّمَا سَأَلَ عَنْ حَدِيثِكَ ، وَقَدْ أَكْثَرَتْ



عليه ، وإِنَّمَا مُخَالَفٌ لِمَذْهَبِكَ ، قد استهدفتَ إلى عَدَوَاتِهِ ، وأُحْدِثْتَ فِي نَفْسِهِ مَا كُنْتَ غَنِيًّا عَنْهُ .

- هَذَا طَبِيعُ الْبَشَرِيَّةِ : فَلَا تَسْمَعْ مِمَّنْ يُرِيكَ التَّحْقِيقَ بِكَلَامِهِ ؛ فَإِنَّ الْحَقَّ ثَقِيلٌ عَلَى النُّفُوسِ ، وَالْبَاطِلَ إِلَيْهَا أَسْرَعُ ، وَعَلَيْهَا أَخَفٌ . وَلَمَّا عَلِمَ الشَّيْطَانُ حِيلَ الْإِنْسَانِ ، لَمَجْرَاهُ مِنْهُ بِمَنْزِلَةِ النَّفَمِ ، أَتَاهُ مِنْ قِبَلِ هَوَاهُ .  
 ٥ وَلَا سَبِيلَ أَنْ تَلْقَى أَحَدًا عَدِيمَ الْعَقْلِ : كُلُّ قَدْ أَخَذَ مِنَ التَّجَرُّبَةِ حِصَّتَهُ ، وَحَازَ اخْتِيَارَهُ ؛ وَعَرَضُكَ عَلَيْهِ مَا يَبْدُو إِلَيْكَ عَجْزٌ وَكَلْفَةٌ : فَإِنْ كَانَ رَيْضًا ، فَهُوَ بِشَأْنِهِ أَبْصَرُ ؛ وَلَمَّا لَهُ عَذْرًا ، وَأَنْتَ تُلُومٌ ؛ فَتَوَلَّاهُ عَلَيْهِ انْقِبَاضًا مِنْكَ وَتَحَفُّظًا لِنَفْسِكَ الْخِلَافَ حَتَّى يَأْتِيَ بِمَا اعْتَزَمَ عَلَيْهِ . وَإِنْ أَلْفَنِيَّتُهُ جَاهِلًا ، فَمِنْ الْعَنَاءِ رِيَاضَةُ الْهَرَمِ ، لَمْ تَزِدْهُ أَكْثَرَ مِنْ قَلْبِهِ\* عَنْ ٥٨ (ب) وَدَّ ، وَلَا يَنْتَقِلُ عَنْ طَبْعِهِ .

- كَيْفَ مَا رَوَيْتُ فِي الْأَمْرِ ، أَجِدُهُ جَهْلًا مِنْ فَاعِلِهِ وَكُلْفَةً ، إِذْ لَا تَأْدِيبَ يَحْمِلُ بِالْمَعْلَمِ وَلَا الْمَعْلَمُ . اللَّهُمَّ إِلَّا مِنْ شُورٍ فِي أَمْرٍ ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَعْطَى مَا عِنْدَهُ مِنْ غَيْرِ الْحَاجِ ، وَلَا يَتِمَّرَنَّ فِي انْتِظَارِ طَاعَةٍ ؛ فَيَكُونُ النَّاصِحُ ، إِنْ سُمِعَ مِنْهُ ، تَمَادَى عَلَى صِدَاقِهِ وَخُولَفَ فِي غِيْشٍ . فَمَا قَامَ خَيْرُكَ ، يَا زَمَانَ ، بِشَرِّكَ ا

- لَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنَّ بَخْلَافِي بِسِيرٍ عَلَى الْعَائِلِ يُنْتَقَلُ إِلَى حِزِّ الْعِدَاوَةِ ، لَمْ أَشَاوِرْهُ فِي أَمْرٍ أَبَدًا : وَأَكُونُ قَبْلَ مُشَاوَرَتِهِ مُخَاطِرًا حَذِرًا الَّذِي تَخْشَى مِنْهُ ، أَسْتَدُّ عَلَى مَنْ عَاقَبَتِ الْأَمْرَ الْمَعْرُوضُ عَلَيْهِ . فَالْعَاقِلُ يُقَيِّسُ عَلَى هَذِهِ الْعَانِي وَيَحْزَنُ بِهَا صَدِيقَهُ . فَرُبَّ عِدَاوَةٍ تَتَوَلَّى بِأَرْقٍ سَبَبٍ ، أَوْ عِدَاوَةٍ تَعُودُ إِلَى مُوَدَّةٍ ، عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى التَّعَاوُنِ أَوْ الْإِنْخِرَاطِ فِي سَلَكٍ وَاحِدٍ ٢٠

من عارضٍ يعمُّ أو مرغوبٍ يُرامُ ؟ تكون الحاجة فيه سواء .  
ولا خَيْرَ في عقلٍ لا يتصرف تارات ؛ وللذهب السرمدي ركب  
طريقة الجهل ، واقع في الورطات . ومن الحق ما يسبح ، فلا تقوم  
حلاوته وفرضه بما يعقب من المشقة ؛ والعاقِلُ يتخير الأمور ؛ فيتجنب معسورها ،  
ويتوخي ميسورها . ٥

### ٦٧ - رجع الحديث عن زواج الأميرتين أختي المؤلف

وللقائل ، إن محتج على هذا التكاح : ما أريد به ؟ إن كنا  
غالبين ، فقد استغنينا عنه ؛ وإن كنا مغلوبين ، لم يقد ذلك ! يعترض  
هذا بعد تبیان ما وقع !

١٠. وإنما أردنا اكتساب الحسنة مع السر ؛ وإنه ، متى عرض عارض ،  
كان البملُ مكتفياً بمراته ، يُقلعها إذا أخرج ما تكون فيه عند ذلك ،  
وتكون لنا منهم عدة ، ويُقل طمع كل من يشره إلى خطبتها . فقد  
كان كثير من سلاطين الأندلس رام ذلك ؛ وتوقعنا العاقبة إن فعلنا :  
نشئنا فيما لا مرد فيه ، ولا يُنفك عنه إلا بالأموال الجسيمة التي هي  
أولى بالبذل في إقامة أود الملكة وما كنا بسيله من الجهاد ؛ وإن أبينا ،  
وقع الخلاف والحد من الطالب ، بحيث لا يوافق ؛ على أنه لم نحسب  
حساب ما جرى \* . ولو كنت أعلم الغيب ، لاستكثرت من الخير . وكان ٥٩ (١)
١٥. زماناً لم نحسب فيه حساب خیر خرج منه مثقال ذرة ، ولا قسنا على  
شيء من الشر إلا ولم نبلغ معشاك ما يكون منه ، بل يدهى منه أمره وأفظمه .  
٢٠. ولقد قال المطالبون إن أمير المسلمين كان أحق بها ، وإنما فعلنا

ذلك فراراً منه . وهذا من المحال أن يكون أحدٌ يتبع الشرف ، ويدعى إلى ما فيه حياته ، فيأباه ! ولو أنني أشعر بشيء من ذلك ، ونزى أن المذهب في هذا ، لكنتُ أشدَّ الناس اغتباطاً بالأمر ، وإليه مسارعةً ، وعليه حرصاً .

٥ ولم يكن من ألح في ذلك أكثر من المعتصم — رحمه الله — ؛ فبادرتُ إلى ما تقدم ذكره ، خوفاً من كل ما ذكرناه . وإنه ، لما تواترتُ على أمير المسلمين هذه الأنباء ، وصورتُ عنده على غير ما هي ، عملتُ في نفسه .

١٠ وانقطع رجاء مؤمل بلوثة من أن يجيبه سلطان من الأندلس ؛ وعند ذلك ، خاطبَ أميرَ المسلمين ؛ فلم يصل الخطاب ، وهياً المسكر إليها مع نعمان ، حتى انقضى خبرها ، على ما وصفناه .

٦٨ — تدخل عبد الله في مسألة مُرسية وغضب المعتد

واعتقد المعتد دخول النصارى بلده ومحاشاتهم لجهاتي ، مع ما كان في نفسه من أمر مُرسية . فإن ابن رشيقي قال لي مشافهةً ، ونحن على لييط : « أريدُ أن أكون صديقك وأدخل في مجلتك . » وقال لي رسولُه بعد ثقافه : « لو أنك تقبل من تخلف فيها ، لأقام الخطبة باسمك ، وكانت في طاعتك ! تجده ومجدك ! فأيت هذا القول جُملةً ، وقلتُ في نفسي : « هذه نصبة لم يكذب أصحابنا يتخلصون منها إلا بعد المرام الشديد والكذب العظيم ! ردَّ منهم هذه اللشقات ! فلا يفترضها هذا الوقت إلا جاهل بالزمان ! وليت لو سلطنا من هذا كله ! وإنه من أمل

أَنْ يُبْقِيَ بَلَدَهُ يَدَهُ ، فَقَدْ شَرِهَ إِلَى كَثِيرٍ ، فَكَيْفَ لِقُضُولِ الْعَمَلِ الَّذِي كُنْتُ أَرَى وَأُمَيِّزُ ؟

وَلَمَّا طَمَت عَلَيْنَا الْيُسَانَةَ ، عَلَى مَا قَدَّمْنَا ذِكْرَهُ ، كَانَ ابْنُ الْأَحْمَرِ يُدَاخِلُهَا ، وَيَعِدُّهُمْ وَيَأْمُرُهُم بِالْتَّحَبُّثِ ، حَتَّى تَبْدُو إِلَيْهِمُ الْأَحْوَالُ ؛ وَيَبْلُغُنِي \* ٥٩ (ب) مِنْ ذَلِكَ مَا يُثْقِلُ . فَأَرَدْتُ بَعْضَ الْمَكَافَأَةِ عَلَى ذَلِكَ ، وَأَنْ نُوَجِّهَ إِلَى مُرْسِيَةِ مَنْ يَعْقِدُ مَا ابْتَدَأْنِي بِهِ رَسُولُهُمْ ابْنُ يَكُونُ ، الْمُتَصَرِّفُ فِي خِدْمَتِهِمْ ، وَيَقُولُ لَمْ أَنْ يُبَيِّنُوا كَيْفَ يَرِيدُونَ مُحَاوَلَةَ هَذَا الْأَمْرِ : إِنْ أَرَادُوا الْقِيَامَ بِدَعْوَتِنَا لِمِلَّةٍ مَتَى كَانَتْ ، نَغِيثُهُمْ فِيهَا بِأَمْوَالِنَا وَرِجَالِنَا ؛ وَمَا فَائِدَةُ ذَلِكَ وَثَمَرَتُهُ فِيمَا نَشْتَرِطُ نَحْنُ بِهِ ؟

١٠ وَلَمَّا تَوَجَّهَ مِنْ ثِقَاتِنَا لِتِلْكَ مَنْ أَنْفَذْنَاهُ ، اعْتَقَدَهَا الْمُتَعَمِّدُ فِي نَفْسِهِ ؛ عَلَى أَنَّنَا لَمْ نَكُنْ نَعْرِمُ عَلَى ذَلِكَ أَبَدًا أَكْثَرَ مِنْ طَلَبِ التَّعَلَّاتِ عَلَيْهِ آخَرَ ذَلِكَ بِأَنْ نَسْمَعَ مِنْهُ مَا لَا يُوَافِقُ ؛ فَيَنْقُضُ الْعَمَلَ بِسَيِّئِهِ ، أَوْ تُوقَفَ الْحَالُ إِلَى أَمْدٍ مَا ؛ كَالَّذِي يَقَعُ بَيْنَ الْمُلُوكِ مِنَ الْمُدَاخَلَاتِ وَالْأَعْمَالِ : فَتَنْهَا مَا لَا يَتِمُّ ، أَوْ يَتِمَّ إِلَى حِينٍ .

٦٩ — إِرْسَالُ سَفَارَةٍ إِلَى يُوسُفَ بْنِ تَاشَفِينِ

١٥

بِسَبْتَةِ مَنْ قَبَلَ عَبْدُ اللَّهِ وَإِيْقَاعِ الْخَوْفِ فِي نَفْسِهِ بَعْدَ رَجُوعِهَا

وَإِنَّ أَمِيرَ السُّلَيْنِ ، لَمَّا أَتَى سَبْتَةَ ، وَهُوَ قَدْ أَحْشَدَ وَأَعَدَّ ، فَاصِدًا إِلَى جِهَتِنَا ، لَا يَرِيدُ غَيْرَهَا ، أَرْسَلْنَا إِلَيْهِ رُسُلًا مُقَدِّمَةً ، بَعْدَ عِتَابِ (١٠)

كبير جرى بيننا وبين المعتد على خبر مرسية ، لم يرد به مفاسدة أكثر مما وصفناه .

وحان وصول أمير المسلمين إلى سبته ، وقدم رسلنا عليه ، وهم : ابن سهل القاضي المتقدم ذكره ، المستعمل للعملة الموصوفة ، وباديس بن وازوي من تلكاتة ، يهتونه على سلامته ويتلقون بالرحب قدومه ومسارعتنا إلى ما يذهب إليه في جهاده ، وما أشبه ذلك .

فانصرف الرسولان المذكوران ، يملأن أن أمير المسلمين قابل لكل ما ذكرناه ؛ قد أعرض عليهما من الجليل ولطيف القول ما لا شك في تحبته . فسرنا ذلك . وكان فيما قال لم : « يصنع ما شاء ! لست ممن يكلف أحدا إلا طاقته ! » فكان ذلك منه دهاء وحذقا ، مع ما نبه عليه قبل ، من قبل ابن سهل بالمخاطبة وغيره ، أن نغارنا عنه إنما كان من خشونة الكتبة الواردة من عنده ، وأن للدارة بالقول أولى ، حتى يظهر ما شاء ويمهد لعمله بذلك .

وإن ابن سهل\* . لما رأى من خلاف الجند ، واطلع عليه من أنف (١) ٦٠  
 ١٥ أهل البلد ما اطلع ، قدم لنفسه ، ورأى ألا ينجلي من عمل بقره فيمن تقرب . وأعلمه أن البلدة ليس عليه فيها مختلِف ، ونفث بذلك باديس المذكور . وصح عندي وقت انصرافهما أن ابن وازوي قال : « أرسلنا للخدمة له في زعمه ، ولم نصنع غير أني كتفته ، والقاضي ضرب عنقه ! » إلى أن وصل أمير المسلمين قرطبة .

## الفصل العاشر

إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس ، مؤلف هذا الكتاب

( ٦ ) استسلامه للسلطان المرابطي . سجنه .

إخراجه من الأندلس ونفيه

٧٠ — عبور يوسف بن تاشفين إلى الأندلس

وبدء مقاتلته إياه

[ وعند وصوله قرطبة ، ] اجتمع [ أمير المسلمين ] بالمعتد ، وسأله عما لِهَجَّ الناسُ به من مُدَاخَلَةِ الرومي ؛ فشهد بذلك ، للذي كان في نفسه من كلِّ ما وصفناه . وأرسل أمير المسلمين إلينا كتاباً يقول فيه : « اقبل إلينا ، ولا تتأخر ساعة واحدة ! »

١٠ فرائبى ذلك ، وهو موضعُ الانقياض ، لِمَا تقدّم من الطلب ، وأنَّ بمَحْضَرِهِ جميعُ أعدائنا ، وإلحاحُهُ علينا في الوصول . واعتذرتُ إليه بتوجيه رُسلٍ : أحدهما وَلَدٌ حَجَّاجٌ ، والآخر ابنُ ما شاء الله . فساعة وصولهما ، قرعَهما بكلِّ ما نُقِلَ إليه ، وأمر بتماضهما في الحديد على المقام ؛ وقال لهما : « بالله ! إني غزوتُهُ كما نفزو الفُونشَ ! والذى يقدر عليه ، فَلْيَصْنَعْ ! »

١٥ وأتاني بعضُ الفرسانِ الناهضين مع الرُّسل على أسوأِ حالَةٍ ، مضروبين

ملهوفين ، أطلقهم قَرُورٌ لِيُعْلِمُونِي بِالْقِصَّةِ ، ويقول : « بالله ! أن أطلقهما الأميرُ حتَّى ينطلق مؤمِّلٌ وأصحابه ! » فدهمني من هذا الأمر ما لا مَرَفَع فيه ولا حيلة . ولا ظَنَنْتُهُ أن يجرى على هذه الرتبة .

وأرسلَ على المقام كُتُبًا إلى اليُسَانَةِ — فأول ما طاعتَ له — وإلى جميع حصون الغرب ، على يدى ثَمانٍ للذكور ، الساعى فى مُداخَلَتِها قديمًا .  
 ٥ وكان من كُتُبِهِ إليهم : « أما بَعْدُ ، فقد جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا <sup>(١)</sup> » . إن لم تُطَوِّعُونَا ، فَأَذْنُوا بِمُحَرِّبٍ مِنْ أَهْلِ وَرَسُولٍ <sup>(٢)</sup> . وإنَّ خِطَابَهُ لم يَرِدْ على مَعْقِلٍ منها إِلَّا وأَلْقَى بِيَدِهِ ، وقام أَهْلُهُ على إِخْرَاجِ قَائِدِهِمْ ، حتَّى تَنَازَرَتِ الْمَعَاقِلُ كُلُّهَا كَانْتِشَارِ الْعِقْدِ ؛ إلى أن وصل الأمير إلى بَيْلِيشْ ؛ ومن امتنعَ منها ، قَاتَلْتُهُ الرِّعْيَةَ معهم ، حتَّى يلقى يده .

فلم تَدْرِ ما \* نصنع ، « واتَّسع الْخَرْقُ على الرَاقِعِ » ؛ وقلتُ : ٦٠  
 « لا طاقة لى بجميع أهل البلاد ، إذ غلبوا وخرجوا عن الطاعة ! فَيَمْنُ نُمَسِّكُ الْخِصْرَةَ ؟ ليس فيها خلقٌ من غيرِ جِنْسٍ مِمَّنْ كان فى الْمَعَاقِلِ .  
 ١٥ « ولا يَتِمَّكَنُ لِلْخِباءِ أَنْ يَتَفَّ حُونَ أَوْتَادِ ! » ولا فى الأمر من مُدَارَاقٍ ولا حيلةٍ مع الرَّجُلِ أَكْثَرَ من رَغْبَتِهِ فى خَلْعِنَا ! ولا نَمَّ غَيْرُهُ يُسْتَدُّ إِلَيْهِ ، فَتُسْتَرِجَحُ فيه من هذه الداهية الْعُظْمَى والطَّامَّةِ الْكُبْرَى ! ولا فى الْمُتَمَكِّنِ أَنْ نَوَجَّهَ إِلَى الرُّومِ ، فيكون ذلك فسادًا فى الدين ، واستعجالًا لِلْمَكْرُوهِ ؟ وإنْ شعر بذلك أَهْلُ حَضْرَتِنَا ، كانوا أوَّلَ من يقاتِلُنَا قبل

(١) سورة الإسراء : ٨١ .

(٢) سورة البقرة : ٢٧٩ .

المُرَابِطِينَ ! ما دام السَّامُرُ يَنْتَنَّا وَبَيْنَهُمْ ، فَيَكْشِفُونَ لَنَا الْقِنَاعَ عَلَى بَصِيرَةٍ ! «  
فَمَا عَهْدُنَا أَيَّامًا وَلِيَالِي كَانَتْ أَفْجَعَ لِقُلُوبِنَا ، وَأَذْهَى لِنَفُوسِنَا مِنْ تِلْكَ الْأَيَّامِ .

## ٧١ - وصول الجيش المُرابطي قبالة غرناطة

وقدَّم أمير المسلمين عَسْكَرًا إِلَى غرناطة ، ما دامَ مُحَاوَلَتُهُ لِلْحَصُونِ ،  
٥ يَحْرُسُونَهَا مِنْ دُخُولِ عَسْكَرِ بَرَّانِيٍّ ، إِلَى أَنْ يَرِدَ عَلَيْهَا بِنَفْسِهِ . وَأَرْسَلَ  
الْقَوَادُ إِلَيْنَا أَنْ نُبَيِّحَ لَهُمُ الْقُوتَ وَالْمَلْفَ بِالْمَدِينَةِ ؛ فَأَجَبْنَاهُمْ ، لثَلَا يَقَعَ  
مِنَّا شَيْءٌ مِنْ اِخْتِلَافٍ ، يَتَسَبَّبُ بِهِ إِلَى مَا هُوَ أَكْثَرُ .

وَأَرْسَلْتُ آخَرِينَ مِنَ الْفُقَهَاءِ إِلَى أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ بِحَالٍ ، وَيُفْلِسُونَهُ أَنِّي  
ابْنُهُ ، وَغَيْرُ مُخَالِفٍ عَلَيْهِ ، وَالطَّاعَةُ مِنَّا لَهُ عَلَى مَرْغُوبِهِ ، دُونَ أَنْ يَحْجُجَ  
١٠ إِلَى هَذَا التَّعَبِ كُلِّهِ . فَأَرْسَلَ إِلَيْنَا النُّفَيْهَ ابْنَ سَمْدُونٍ ، يَقُولُ لَنَا : « لَا طَاعَةَ  
وَلَا صُلْحَ إِلَّا بِالْخُرُوجِ إِلَيْهِ ! وَهَذَا أَمَانُهُ : كِتَابٌ بِخَطِّ يَدِهِ ، يَتَضَمَّنُ  
الْأَمَانَ فِي النَّفْسِ وَالْأَهْلِ دُونَ الْمَالِ . » فَأَيَقَنْتُ بِالْفَرَضِ . وَكَانَ فِي آخِرِ  
كِتَابِهِ لَنَا : « إِنْ كُنْتَ اسْتَوْحِشْتَ مِنَ النُّزُولِ إِلَيْنَا ، فَتَخَيَّرْ مِنْ بِلَادِكَ  
مَوْضِعًا تَصِيرُ فِيهِ ؛ وَلَتَكُنْ غَيْرَ غَرْنَاطَةَ ، لِتَرَى فِيهَا رَأْيَنَا ! عُدَّةٌ فَاتِرَةٌ  
١٥ لَا تَتِمُّ ! »

فَرَوَيْتُ هَذَا الْأَمْرَ ، وَعَلِمْتُ أَنِّي بِحَالٍ وَمَكَانٍ لَا اخْتِيَارَ لِي فِيهِ ،  
وَأَنَّ الْمَذْهَبَ فِيَّ إِلَّا أَلِيَّ مَعْقِلًا ، وَأَنَّهُ لَا مَهْرَبَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ . فَقُلْتُ :  
« مِنَ السَّخْفِ يَكُونُ أَنْ أَقُولَ : « قَدْ اخْتَرْتُ مَوْضِعَ كَذَا ! » فَإِنْ  
كَانَ لَهَا كَارِهًُا ، لَمْ أَلْبِثْ أَنْ أُرَدَّ مِنْهُ بِتَعَلُّلٍ وَحُجَّةٍ لِقَوِيَّ عَلَى الضَّعِيفِ !  
٢٠ وَإِنْ كَانَ فِي نَفْسِهِ الْيَوْضُ ، فَيَخْرُجُنِي إِلَيْهِ يُرَبِّي مَا يَمْتَقِدُهُ \* مِنْ إِحْسَانٍ . ٦١ (١)



ولا حيلة غير الخروج والتَّرامى عليه ؛ فإن كان قد أجمل وقبل ، فَلَهُ الْفَضْلُ ،  
وعلى الشُّكْرِ آخِرَ الدَّهْرِ . وإن كان قد غدر ، كُنَّا وَاثِقِينَ بِالْقَدَرِ ، وَأُبْلَيْنَا  
عند الله وعند الناس العَذْرَ ! »

## ٧٢ - الحالة داخل حضرة غرناطة

٥ ولما التَقْنَا إلى أهل مدينتنا ومَذاهِبِهِمْ وَحَرَكَاتِهِمْ ، اطلَعْنَا على أُمُورٍ  
دليّةٍ على الاتِّقال ، مؤذنةٍ بِالزَّوَالِ ؛ وَقَسَمْنَا أَسْوَاقًا عَلَى الْقِيَاسِ وَالرَّتَبَةِ ،  
مع الْمُعَايَنَةِ لِمَا عَمِيَ قَبْلُ ، وإِظْهَارِ مَا خَفِيَ ، إِذْ لَا حَرَاجَ وَلَا هِيَةَ وَلَا  
صَوْلَةَ تَتَّقَى . أَمَّا الْجُنْدُ مِنَ الْبَرِّ ، فَكَانُوا مُتَّعِطِينَ بِهِمْ ، طَامِعِينَ فِي  
الزِّيَادَةِ عَلَى أَيْدِيهِمْ لِلْجَنَسِيَّةِ . وَاتَّفَقَ رَأْيُهُمْ عَلَى أَلَّا يَلْقَوْهُ بِحَجَرٍ ، وَقَدَّمُوا  
١٠ كُتُبَهُمْ بِالطَّاعَةِ ؛ وَرَاجَعَهُمْ عَلَيْهَا ، يَمْدُحُ بَأَن يُبْقِيَهُمْ فِي أَمَاكِنِهِمْ عَلَى  
أَفْضَلِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ ؛ فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ بِالْمَدِينَةِ الْفَوْقَى ، تَقَلَّعَ إِلَى الشُّقْلَى  
بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ ، وَبَقِيَ هُوَ بِنِسْمَتِهِ مُتَفَرِّدًا مُتَاهِبًا لِلشَّرِّ ، إِمَّا بِالْخُرُوجِ إِلَيْهِ مِنَ  
الطَّاعَةِ ، أَوْ بِإِسْلَامِنَا إِلَيْهِ وَالتَّبَرُّؤِ<sup>(١)</sup> مِنَّا .

١٥ وَمَنْ كَانَ مِنَ التَّجَارِ وَأَهْلِ الْبَلَدِ ، فَكَانُوا عَلَى نِيَّةٍ أَنَّهُمْ مَعَ مَنْ سَبَقَ ،  
وَلَا طَاقَةَ لَهُمْ بِالْحَرْبِ ، وَلَا هُمْ أَهْلُهُ ؛ وَأَكْثَرُهُمْ خَرَجَ مِنَ الْبَلَدَةِ يَقُولُ :  
« لَأَيُّ وَجْهِ نَحْتَمِلُ الْحَصَارَ ؟ تَاجِرٌ هُنَا وَصَانِعٌ كَمَا فِي غَيْرِهَا ! » وَأَمَّا  
الرَّعِيَّةُ ، فَتَبَخَّرَ بَخْرٌ ذَلِكَ مَا كَانَتْ تَبْغِي ، طَمَعًا مِنْهَا فِي الْحُرِّيَّةِ ، وَأَنَّهُمَا  
لَا يُلْزِمُهَا غَيْرُ الزَّكَاةِ وَالْعُسْرِ .

وَأَمَّا الرَّقَاصَةُ مِنَ الْمَغَارِبَةِ ، الَّذِينَ كَانُوا عِمَادَ الْحُضْرَةِ ، وَبِهِمْ كُنَّا

نَمْسِكَ الحِصُونِ ، قَهْمَ أَوَّلُ من طاع ، وَأَعَيْنُ مَنْ بِالْحَضْرَةِ إِلَيْهِمْ يَقُولُونَ :  
« مَا الَّذِي خَالَفَ بَنَّا عَنْ صَنِيعِ بَنِي عَمْنًا ؟ » قَلَمَ نَجِدُ فِي صِنْفٍ مِنْهَا  
رَاحَةً يُرْجَى مَعُونَتُهَا !

وَأَمَّا الْعَمِيدُ وَالصَّغَالِبَةُ ، فَالْعَمِيدُ الْأَعْلَاجُ ، أَوَّلُ من عصا ، كَمَا ذَكَرْنَا ،  
بَلَوْشَةُ ، رَجَوْنَا أَنْ يَكُونُوا عِنْدَهُ فِي أَعْلَى مَرْتَبَةٍ ، وَلَمْ يَفْكُرُوا فِي طَاقِبَةٍ  
أَنْ يَخْطُؤُوا عِنْدَهُ ، فَيَقُولُ : « مَا نَصَحُوا مَوْلَانِي رَبِّ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ !  
فَكَيْفَ غَيْرُهُ ؟ » إِلَّا أَنْ كُلَّ وَاحِدٍ بِشَهْوَتِهِ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، لِلَّذِي شَاءَهُ  
اللَّهُ — لَا رَادَّ لِأَمْرِهِ وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ !

حَتَّى الْعُتْدَمِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْخِصْيَانِ : كُلُّ طَامِعٍ فِي إِقْبَالِ الدُّنْيَا عَلَيْهِ ،  
وَالْخُرُوجِ عَنْ تَقَافِ الْقَصْرِ إِلَى رَاحَةٍ\* التَّسْرِجِ ، وَالِاسْتِهْتَارِ بِالرِّجَالِ ، وَمَا ٦١ (ب)  
أَشْبَهَ ذَلِكَ . فَجَعَفَرُ الْخَصِيِّ مِنْهُمْ وَلَبِيبُ كَانَا زَعِيمِي الْمُدَاخَلَةِ وَرَأْسَ  
الْقَتَكِ ، يَقُولَانِ : « نَحْنُ لَا وَلَدَ لَنَا وَلَا تَلَدَ ! فُلَى أَيْ شَيْءٍ نَصِيرُ عَلَى  
الْقِتَالِ ؟ وَمَا عَسَى نَطْمَعُ أَنْ نَصِيرَ إِلَيْهِ : هَلْ يَجْمَلُ بَنَّا سُلْطَنَةً أَوْ قِيَادَةً  
أَوْ قِضَاءً أَوْ قِهَةً ؟ إِنَّمَا نَحْنُ بِمَنْزِلَةِ الْعِيَالِ : مِنْ سَبَقَ اسْتَمْتَعَ بَنَّا ، وَكُنَّا  
عِنْدَهُ مِنْ جِلَّةِ الْفَقِيرِ ، نَرْزُقُ كَسَائِرَ الْكَسْبِ ، فَلَا نَضِيعُ ! تَعَالَوْا بَنَّا !  
نُقَدِّمُ لَأَنْفُسِنَا ! » فَوُرِدَتْ عَلَيْهِمْ كُتُبُ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ بِالْإِنْزَالِ الْقَوِيَّةِ ،  
وَالثَّقِيلِ ، وَالْمَرَاتِبِ الْعَالِيَةِ ، يَمْدَحُ بِذَلِكَ عِنْدَ إِكْمَالِ حَاجَتِهِ وَإِسْلَامِهِمْ لَنَا ،  
حَقَّ اتَّفَقَتْ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ .

٧٣ — لَا يَجِدُ عَبْدُ اللَّهِ مَخْرَجًا إِلَّا بِالنَّسْلِ

وَلَا اتَّسَقَ لَهُ مَا أُمِّلَ ، وَعَلِمَ بِمَا مَعَهُ فِي الْبِلَادِ ، بِمَدِّ تَقْدِيمَةِ عَسْكَرِهِ ، ٢٠

كَأَنَّكَ ذَكَرْنَا ، إِلَى فَخْصِ غَرْنَاطَةِ ، وَكَانَ أَهْلُ الْبَلَدِ يَتَقَلَّمُونَ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى الْبَادِيَةِ ، وَيَخْرُجُونَ مِنْهَا<sup>(١)</sup> أَفْوَاجًا ، رَأَيْنَا لِمَارَةِ الشَّرِّ وَعَلَامَةِ السُّوءِ . فَإِذَا بِأَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ فِي أَثَرِ ذَلِكَ الْعَسْكَرِ مُقْبِلًا إِلَى الْحَضْرَةِ . فَهَاجَ النَّاسُ وَجَزَعُوا . وَاتَّفَقَ رَأْيِي ، مَعَ مَنْ نَصَحَنِي ، أَنَّ الْخُرُوجَ إِلَيْهِ أَوْلَى ، وَالْتِزَامِي عَلَيْهِ ٥ أَنْجَأَ مِنْ هَذِهِ النَّارِ الْمَوْقَدَةِ . فَلَمَّ لَهُ ، إِذَا رَأَى بَرَاءَتَنَا مِمَّا قَلَهُ الْعَدُوُّ ، وَلَمْ يَجِدْ فِي الْمَدِينَةِ نَصَارَى كَمَا قِيلَ ، فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ وَجْهَيْنِ : إِمَّا صَرَفْنَا إِلَى أَوْطَانِنَا ، وَإِمَّا إِخْرَاجُنَا . فَلَنْ نَعْلَمَ مَعَهُ جِيلًا ، إِذْ لَمْ نُهَيِّجْ عَلَيْهِ حَرْبًا ، وَلَا نَتَعَبَّنَاهُ فِي أَمْرٍ .

- وَكَمْ عَسَا الْعَيْشُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ! وَالنَّجَاةُ بِالنَّفْسِ فِي دَارِ الدُّنْيَا ١٠ وَتَخْلِيصُهَا مِنَ الْأَوْزَارِ فِي الْآخِرَةِ ، لَا يُبَالِغُ ذَلِكَ شَيْءٌ وَلَا يَعْدِلُهُ ! فَاسْتَمَعْنَا الْقَتْلَ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ أَمِيرًا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ؛ وَكُلَّ قُوَّةٍ لَا يَتَأَنَّىهَا الْقَتْلُ ضَمَفٌ وَسُكْرٌ ، مَعَ سُوءِ الْعَاقِبَةِ . وَلَا سِيَّأَ أَنَّ بَحَالَ لَا بُدَّ مِنْ إِسْخَاطِ الرُّومِ بِإِرْضَاءِ الْمُسْلِمِينَ ، أَوْ إِسْخَاطِ الْمُسْلِمِينَ بِإِرْضَاءِ الرُّومِ ! فَالآنَ يَجْرِيهَا الْمُسْلِمُونَ أَوْلَى وَأَجَلٌ لِلْعَاقِبَةِ ، إِذْ هِيَ نُسْبَةٌ لَا مَلْجَأَ مِنْهَا إِلَّا بِمَا ذَكَرْنَا .
- ١٥ اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَوْ امْتَسَكْنَا فِيهَا بِنَفَقَةِ الْأَمْوَالِ ، وَلَا يُمْكِنُ اسْتِبْدَادُ دُونِ اسْتِظَارِ قُوَّةٍ مِنَ النَّصَارَى ، ثُمَّ أَتَى الرُّومِيَّ ، فَيَنْحَاشُ عَسْكَرُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْجَزِيرَةِ أَوْ إِلَى قُرْطُبَةَ ، \* مُرْتَقِبًا لِمَا يَكُونُ مِنْهُ ، فَيَقُولُ لِي الرُّومِيُّ : « قَدْ أَقْلَمْتُ عَنْكَ مِنْ أَرَادَكَ ! هَاتِ مِنَ الْأَمْوَالِ مَا نَسْتَحِقُّ مِنَ الْمَكَافَأَةِ ! » فَلَوْ قُلْتُ لَهُ : « اتْرُكْ عَسْكَرًا مَعِي ، وَابْقَ أَنْتَ لَنَا لِيُأْوِدَنَا ! » ٢٠ مَا كَانَ يَفْعَلُ ، وَيَخْشَى عَلَى عَسْكَرِهِ الْبَوَارِ بَيْنَ أَهْلِ الْبَلَدَةِ وَالْمَسْكَرِ الْخَارِجِ .

(١) أصل : « يخرجونها » .

ولو انصرف دون أن يترك قُوَّةً ، فساعة انصرافه وإقبال المرابطين ، لم ترتقد لهم ساعة ، وينقطع الرجاء عن معونة أخرى : فهناك النكال الأكبر ، وصحح لم قتلنا بالكتاب والسنة .

- ولو أن عند إقبال الرومي ، يقول لنا : « إن كنت تتقي من المرابطين ، ولا يمكننا السكنى معك من أجلهم ؛ فخل لنا عنها ، وتصير إلى كل ما تحبّه مع النجاة بنفسك وحشيك وذخايرك ، كالذي صنعت بجفيد ابن ذي النون ، إذ عاوضته بلفسية ؛ وإلا ، فلا استيطان لك عندنا ، إذ لا تقيدنا بالبلدة ، وما يغني بخروجك إلينا وتركك لمدينتك مطيبة للمرابطين ؛ فيدخل علينا الحزم منها . » فلو أطعناه ، لارتكبتنا من الأوزار والخروج عن الدين ما يلعبنا الله عليه والناس أجمعون ، وكنتنا ترك غرناطة حبساً للرؤم ، يضرّون منها المسلمين ؛ فلا دماء تسفك منها ، ولا داخلة تدخل إلّا وكانت في صحائفنا . ولا خير في أثرة الدنيا على الآخرة!
- ولو أن يترّص المرابط عند إقبال الرومي ، ولا ينحاش له ، كما وصفنا ، ويبني على لقائه<sup>(١)</sup> ، فلو التقت الفئتان ، فلا بدّ من أن يكون للطائفة الواحدة على الأخرى ؛ فلو أنها على الرومي ، ففي إثر ذلك ، لم يقدم على قتلنا شيئاً بالحجة أنّنا أجلّنا ؛ ولو أن الرومي يغلب ، فبقي بعد ذلك في الملك ما شاء الله ، لم يطب لنا ملك ، ولا استحيينا من الله والناس أن يكون ذلك بيّوار المسلمين وهلاكهم ؛ ثمّ إنه لا يصحّ لنا ثبوت معه ، وأيّ شيء كان يحجره عنا ، ولا شيء نرجى به نزع أنفسنا منه ، ولا بمن
- ٢٠ نتصر لو هم بأخذ الكل .

كَيْفَ مَارَوْتُ فِي هَذِهِ الْوُجُوهِ ، لَا خَيْرَ فِيهَا مِنْ تَعَقُّبِ الْأَمْرِ  
وَتَذَبُّرِهِ ، إِلَّا مَا صَنَعْنَاهُ مَعَ حَكْمَةِ الْأَقْدَارِ الَّتِي لَا تَجْرِي عَلَى إِهْمَالٍ فَخَرَجْنَا  
إِلَى الرَّجُلِ ، كَأَنَّمَا نُسَاقُ إِلَى اللَّوْتِ ، لَا نَدْرِي مَا تَلْقَى ، إِلَّا كَالْخُلَاطِيرِ  
بِنَفْسِهِ ، مَتَوَكِّلِينَ عَلَى الْقَدَرِ .

## ٧٤ - تسليم الأمير عبد الله ونهب أمواله

وَلَمَّا لَقِينَاهُ ، سُرَّ بِذَلِكَ ، وَأَقْسَمَ لَنَا عَلَى الْأَمَانِ فِي أَنْفُسِنَا وَأَهْلِنَا ، وَلَنَا  
مِنْهُ الْمُرَاعَاةُ وَالْكَرَامَةُ مَا بَقِيَ . ثُمَّ أَشَارَ عَلَى قُرُورٍ بِالْتَرَقِيبِ عَلَيْنَا ، إِلَى أَنْ  
يُثَبِّتَ خَبَرَنَا ، وَيَقِفَ عَلَى أَمْوَالِنَا .

فَاتَّعَدْتُ [ قَبْلَ ذَلِكَ ] أَهْلَ دَوْلَتِنَا ، يَطْلُبُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنْ يُودِعَ  
عِنْدَهُ شَيْئًا ؛ فَلَمْ تَفْعَلْ ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : « هَؤُلَاءِ يَطْلُبُونَ مَا يَزِيدُ دُونَ  
بِهِ ؛ وَلَيْسَ ذَلِكَ شَفَقَةً مِنْهُمْ عَلَيَّ ، وَلَيْسَ يُخْلِي مِنْ دَفْعِ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ مِنْ  
وَجْهَيْنِ : إِمَّا فَاسِقٌ يَسْتَأْثِرُ بِهِ دُونِي ، فَتَكُونُ حَسْرَتُهَا فِي نَفْسِي ، وَلَا تَقْبَلُ  
بِهَا عَنْ وَجْهِ ؛ وَإِمَّا مُتَبَشِّلٌ بِبَعْضِهِ ، يَحْمِلُهُ إِلَى الْأَمِيرِ لِيَتَهَيَّأَ بِهِ مَا يَبْقَى  
لَهُ ؛ وَعِنْدَ ذَلِكَ تَفْتَضِّحُ عِنْدَهُ ، وَلَا يَقْبَلُ لِي صَرَفًا وَلَا عَدْلًا ؛ وَرُبَّمَا  
يَمْنَحُنِي عَلَيَّ ؛ فَيُؤَدِّيَنِي بَعْدَ الْأَمَانِ ، مَعَ حُبِّهِمْ فِي اللَّالِ . وَإِنَّهُ لَا شَيْءَ نَرْجُو  
بِهِ بَعْدَ اللَّهِ التَّعَرُّبَ إِلَيْهِمْ إِلَّا بِالْأَمْوَالِ ؛ وَلَوْ أَمَكْنِي أَنْ أَزِيدَ فِيهَا ، فَضْلًا  
أَعْيُنُهُمْ ، وَأَنَا لَا أَبْتَغِي إِلَّا الْعَيْشَ خُلَاصَةً نَفْسِي وَأَهْلِي . وَقَدْ خَفَّفَ اللَّهُ  
عَنِّي يِقْلَةَ الْعِيَالِ ؛ وَلَا خَيْرَ فِي النَّرَرِ بِمَالٍ لَا أَدْرِي إِنْ يَبْقَى مَعِي ، مَعَ  
اِخْتِلَاطِهِ وَكَثْرَةِ شُبُهَاتِهِ ؛ وَكَثْرَةَ اللَّالِ إِنَّمَا يَحْتَاجُ لِلْمَمْلُوكَةِ وَالْأَجْنَادِ . فَالْآنَ  
٢٠ قَدْ أَزَاحَ اللَّهُ ذَلِكَ عَنِّي ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا طَلَبُ السَّلَامَةِ بِخُشَاةِ النَّفْسِ ،

وهي غنيمة في مثل هذا الوقت الحاد !

- فخرَجْتُ إلى الرَّجُل بعد ثقاف القصر ؛ ولا خوفَ عليه ذلك الوقتَ ،  
إذ كان الناسُ يَتَنُّ يأسٍ وطمعٍ في الرجوع ؛ فلا جرأةَ من أحدٍ في  
اعتراض شيءٍ من ساقَتِنَا . ولَمَّا أُنْزِلْتُ بتولِّي قُرُورَ الأمرِ ، جبل الحرصُ  
على الخِباءِ ، وأمر بطَرْدِ الداخل والخارج ؛ وحِيلَ بَيْنَتَا وَيْنِ عَيْسِدَنَا ٥  
وصنائعنا : كلُّهُ يُفْتَش عليه ويُبَحَث على مَالِدِيهِ من مالٍ كسبه في ولايَتِنَا .  
ثُمَّ أَنَا القَفيُّ ابنُ سَعْدُونٍ من عند أمير المسلمين ، يقول : « أخضر  
الأموال والأزِمَّة بها ! فإن مؤملاً قد أخبره أنه ليس عندك دِرْهَمٌ إِلَّا بِزَمَامٍ  
وَذِكْرٍ . » فقلتُ له : « نَعَمْ ! كان \* ذلك ، قد تَرَكْتُهُ في داري ؛ ٦٣ (١)  
١٠ فإن أُلح لي السَّيْرَ بنفسى لاستخراج الكلِّ ؛ وإلا ، فهذه أُمِّي ، تتولَّى  
ذلك مع ثِقَاتِهِ حتَّى لا يُقَادِرَكُم منه خِيطٌ ! »

- وكان ، عند خروجي ، قد وقع في نفسى من خوف الثقاف ما خَشِيتُ  
الفرقةَ منها إن تَرَكْتُهَا في القصر ؛ فخرَجْتُ معها ، ولم أَلْتَفِتْ إلى ماسِوَاهَا .  
وأنا مع ذلك في حيرةٍ لا أدرى لما يصير أمرى ؛ قد أَشْرَبَ قلبي من الخوفِ  
والجزعِ ما لم أَعْهَدُهُ قَطُّ ، ولا كان فيه عزاء . فإن الأمور التي يَنْبَغِي لها ١٥  
الاستنباتُ والصبرُ ما كان من أمرٍ دون أمرٍ ؛ وإن جُلَّ حَظُّهُ ، يُرْجَى  
في غيره الراحة ؛ وبعضُ الشرِّ أَهْوَنُ من بعضٍ ؛ وإنَّما هذه النصبَةُ لم  
يكن لها عزاء ولا استراحة إلى أَمَلٍ ورجاءٍ يُنْصَرِّ ، إِلَّا بِحِثِّ يُحْتَسَبُ .  
فأذهَلَنِي ذلك من كلِّ مَالِي فيه صلاحٌ من تَقْدِمةِ النَّظَرِ في مالٍ أو غيره ؛  
٢٠ بل ، كانت نفسى آكَدَ على ، لم تعمل حساباً مَنْ يعيش ، لا سِوَا من  
لم تَجَرَّ عليه قبل ذلك نِجْنةٌ ، ولا أَكْرَبَهُ الدهرُ بِرِزْيَةٍ . فجاءتْ بُحْلَةً ،

أُبْهِتَتْ وَخَانَتْ الْقِيَاسَ ، وَحَادَتْ عَنْ سَبِيلِ الْمَعُودِ .  
وقد كان أرسل إلى قُرُورٍ يَطْلُبُ خَطًّا يَدَى بِإِسْلَامِ الدِّينَةِ وَإِخْرَاجِ  
مَنْ لِي فِيهَا مِنَ الْحَشَمِ . فَبَادَرْتُ عَلَى الْمَقَامِ ، إِذِ الْإِتِّوَاهُ عَنْ ذَلِكَ مِمَّا  
لَا يَنْفَعُ ؛ وَلَوْ فَعَلْتُ ، لَكَانَ ذَلِكَ زِيَادَةً فِي الْمَوَانِ ، وَلَمْ يَفِدْ شَيْئًا ، وَأَنَا  
قَدْ حَصَلْتُ فِي الْقَبْضَةِ . ٥

وَكُنْتُ أُخْرِجْتُ مَعَ نَفْسِي أَسْبَابًا مِنْهَا سَقَطُ ذَهَبٍ فِيهِ عَشْرَةُ عُقُودٍ  
مِنْ أَنْفُسِ الْجَوْهَرِ ، وَذَهَبًا مَبْلُغُهُ سِتَّةَ عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ مُرَابِطِيَّةٍ ، وَخَوَاتِمٍ ؛  
وَتَأَوَّلْتُ فِي إِخْرَاجِهَا مَعِيَ أَنْ قُلْتُ : « إِنْ كَانَ الْأَمْرُ يَسْدُو مِنَ الْأَمِيرِ  
بِثَقَافٍ ، فَهَذِهِ حَاصِلُهُ لَا تَنْفَعُ ، تُجَمَلُ كَسَوَاهَا ؛ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ، وَرُبَّمَا تَأَخَّرَ  
فِي الْأَمْرِ بَعْدَ قَضَاءِ غَزْوَتِهِ ، دَارَيْتُ مِنْهَا وَأَعَدَدْتُهَا لِمَا يَنْبَغُ عَلَى الْعَسْكَرِ  
وَمُتَاخَذَةِ الْمُرَابِطِينَ . »

وَلَمْ يُتَرَكْ لَنَا خَادِمٌ إِلَّا حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا . وَقُتِّشَ عَلَيْهِمْ أَلَّا تَكُنْ  
فِي أَوْسَاطِهِمْ خَيْثَةً . وَجَلَّ قُرُورٌ يَقُولُ لِي وَلَأُمِّي : « اكشِفَا لِي عَنْ  
ثِيَابِكَا . » قَدْ أَخْبَرَ السُّلْطَانُ أَنَّ خَيْرَةَ الْجَوْهَرِ عَلَى أَوْسَاطِكُمَا . « فَتَبَرَّأْنَا ٦٣ (ب)  
لَهُ عَنْ ذَلِكَ ، وَنَزَعْتُ لَهُ عَنِ الثِّيَابِ . ثُمَّ جَلَّ يَنْفُضُ الْخَدَّاتِ عَنْ  
الصُّوفِ ، وَيَفْتَشُ بَيْنَهَا ، وَيُقَلِّبُ التَّوَايِيتَ عَلَى وَجُوهِهَا ، وَيَحُلُّ طَيَّ  
الثِّيَابِ ، فَتَشَا لَمْ يُعْهَدِ مِثْلُهُ قَطُّ . ثُمَّ أَمَرَ بِحُفْرِ الْأَرْضِ الَّتِي عَلَيْهَا الْخِجَابُ ،  
خَوْفًا مِنْ أَنْ نَدْفِنَ فِيهِ شَيْئًا ؛ وَهُوَ فِي ذَلِكَ كُلَّهُ يَقُولُ لِي : « إِنْ سَلِمَتْ  
بِرُوحِكَ ، فَمَا فِي الْأَرْضِ أَوْجَهَ مِنْكَ ! »

٢٠ وَصَارَ الْكُلُّ فَيْثًا مِنْ خَادِمٍ وَغُلَامٍ ، مَا خَلَانِي وَأُمِّي . وَكُنْتُ وَقْتُ  
خُرُوجِي قَدْ أُخْرِجْتُ مَعَ أُمِّي صَبِيَّةً طَمَعْتُ أَنْ أَجُوبَهَا ، فَلَا يُؤَبِّهَ لَهَا ،

أَلَّا أَفَرِدَ دُونَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ ، لَتَكُونَ لِي عُدَّةٌ لِمَا بَعْدَ ذَلِكَ ؛ فَاتَى قَرُورَ ، وَأَلْقَى يَدَهُ فِيهَا ، وَأَخْرَجَهَا ، وَقَشَّ ثِيَابَهَا عَلَى الْقَامِ ، وَتَحَمَّلَهَا . ثُمَّ أَتَى إِلَى أَثَاثِ الْخِجَاءِ كُلَّهُ وَقَشَّ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ، فَكُلُّ ثَوْبٍ أَوْ حَاجَةٍ اسْتَحْسَنَهَا ، أَخَذَهَا لِنَفْسِهِ . وَكَادَ أَنْ يُعْرِئَنِي مِنَ الْكُلِّ . وَأَصَابَ الدَّانِيَةَ لِلذِّكْرَةِ ؛

٥ قَالَ لِي : « مَا أَرَدْتُ بِإِخْرَاجِهَا ؟ » قُلْتُ : « لِأَتَأَخِّفَ بِهَا الْأَمِيرَ ! » فَهَدَدَنِي وَأَدْخَلَنِي تَحْتَ وَعِيدٍ ؛ ثُمَّ أَمَرَ بِاتِّعَالِهَا عَلَى الْقَامِ ، وَأَخَذَ السِّفَطَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْجَوْهَرِ وَالْحَوَائِمِ : هُوَ مِنْ جِهَةٍ ، وَرَبِيبُهُ مِنْ أُخْرَى ؛ وَأَنَا فِي هَذَا كُلِّهِ لَا أَرْجُو شَيْئًا إِلَّا السَّلَامَةَ فِي الرُّوحِ ، وَلَمْ نَشْكُ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَكُونُ بَعْدَ هَذَا إِلَّا الْقَتْلُ .

١٠ ثُمَّ إِنَّهُ أَمَرَ وَالِدَتِي بِالطَّلُوعِ إِلَى الْقَصْرِ لَاسْتِخْرَاجِ الْأَمْوَالِ . فَتَكَدَّرْتُ لَذَلِكَ أَيَّامًا ، مَا مِنْهَا يَوْمٌ إِلَّا وَنَظُنُّ أَنَّهُ لَا تَرْجِعُ إِلَيَّ ، حَتَّى دَفَعْتُ إِلَيْهِمُ الْكُلَّ بِالْأَزِمَةِ ، لَمْ يُغَادِرْهُمْ مِنْ ذَلِكَ قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ ، حَتَّى أَنَّ الْحَاجَةَ الْبَسِيرَةَ رُبَّمَا كَانَتْ عِنْدِي فِي الْخِجَاءِ ، فَيُسَدَّدُ فِيهَا عَلَى الْوَالِدَةِ ، فَتَأْتِي عَنْهَا وَتَحْمِلُهَا إِلَيْهِمْ . وَلَمْ يَتَّبِعْنِي لِي خِلَافُ أَهْلِ بَلَدِي ، إِلَّا وَالْأُمْرُ قَدْ فَاتَ ، مِنْ النَّظَرِ

١٥ فِي الزَّمَامِ أَوْ غَيْرِهِ . وَلَمْ يَتَقَدَّمْنِي أَحَدٌ إِلَى مِثْلِ هَذَا ، فَنَأْخُذَ حِذْرِي وَتَتَأَقَّبَ لَهُ ؛ وَلَمْ يَكُنْ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، إِذَا أُعْطِيَ ، فَلَا مَانِعَ ، كَمَا أَنَّهُ لَا يَنْهَيَّا ، مَعَ مَا سَلِبَ وَضَاعَ ، ثُبُوتٌ وَلَا بَقَاءَ ، وَلَوْ رُفِعَ إِلَى أَعْنَانِ السَّمَاءِ .

فَلَمَّا تَقَصَّوْا\* الْجَمِيعَ ، وَتَبَيَّنَ الْحَقُّ ، جَاءَنِي قَرُورُ بِوَصِيَّةِ السُّلْطَانِ ، مَعَ ٦٤ (١)

أَبِي بَكْرٍ بْنُ مُسَكِّنٍ ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ عَلَى مُنْتَقِمٍ شَانِيٍّ ، وَهُوَ يَقُولُ لِي :

٢٠ « الْأَمِيرُ يُنْهَى إِلَيْكَ أَنْ لَا يَبْقَى لَكَ عِنْدَ أَحَدٍ وَدِيعَةٌ ؛ وَإِنَّ مَا فِي قَصْرِكَ

قَدْ نَزَلَتْ عَنْهُ بِالْأَزِمَةِ ؛ وَمَا فِي خِجَائِكَ قَدْ صَارَ إِلَيْنَا وَقَشَّنَاهُ ؛ وَبَقِيَ لَنَا



أَنْ تَذَرِي مَالَكَ مَوْدُوعًا ؛ وَإِذَا ، لَا عَهْدَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ ، إِنْ خَرَجَ  
قَبْلَكَ دِرْهَمٌ عِنْدَ أَحَدٍ ؛ وَلَا تَكُونِ عُقْبَكَ فِي ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَكَ فِي  
الصَّخْرَاءِ بِحَيْثُ لَا تَرْمَحُ ذَلِكَ لِلَّالِ ، وَيَبْقَى عِنْدَ مَنْ أَوْدَعَتْهُ . « فَرَجَعْتُ  
إِلَى نَفْسِي أَنْ نَعْلَمَ لَهَا عِنْدَ أَحَدٍ دِرْهَمًا وَدِيعَةً ؛ فَلَمْ أَجِدْ . وَأَقْسَمْتُ  
٥ لَهُ عَلَى حَقِّي .

وَرَجَعْتُ إِلَى الْوَالِدَةِ ، أَعْظَمُهَا ، وَأَقُولُ لَهَا : « أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ ! إِلَّا  
مَا أَشَقَّقْتَ عَلَيَّ ؟ قُرْبَانًا قَدْ أَخْرَجْتَنِي شَيْئًا لَا أَغْلَهُ ؛ فَيُظْهِرُ بَعْدِي ،  
وَيَكُونُ فِيهِ هَلَاقِي ، وَهَلَاقُكَ ! وَالْدُّنْيَا أَقْلٌ مِنْ هَذَا كُلِّهِ ! وَالْقَوْمُ ، كَمَا  
تَرَيْنَ ، مُتَعَلِّقُونَ بِشَعْرَةٍ ، يَطْلُقُونَ مَعَنَا أَرْقَى سَبَبٍ إِنْ يَأْتِيكَ أَنْ تَشْتَقِيَ بِي !  
١٠ وَإِذَا تَبَرَّأْنَا لَهُ ، لَا يُمْكِنُ لَهُ تَضْيِيعُنَا . وَلَيْسَ يُدْخِرُ لِلَّالِ إِلَّا لثَلَاثَ :

سُلْطَانٌ يَجُورُ ، أَوْ فِتْنَةٌ تَدُومُ ، أَوْ عُثْرٌ يَطُولُ . وَنَحْنُ فِي نَفَرٍ يَسِيرُ ! «  
فَلَمَّا سَمِعْتُ ذَلِكَ ، بَكَتْ وَقَالَتْ : « نَحْشَى أَنْ يَبْقَى قُرْعَاءُ ! وَلِلْوُتْ  
أَهْوَنُ مِنَ الْقُرْعِ ! » فَسَهَّلْتُ عَلَيْهَا الْأَمْرَ ؛ وَقَالَتْ : « إِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ  
مَنْ خَلَقَ ! » فَكَتَبْتُ تَسْمِيَةً بِمَا أَوْدَعْتُ مِنْ مَتَاعِهَا ، تِلْكَ اللَّيْلَةَ الَّتِي  
حَانَ خُرُوجِي فِي غَدِهَا : ذَكَرْتُ أَنْ لَهَا عِنْدَ لَذَّةِ خَادِمِ ابْنِ أَبِي خَيْثَمَةَ  
١٥ كَاتِبِنَا سَيِّئَاتٍ لِبَعْضِ جَوَارِيهَا ، وَلَهَا عِنْدَ ابْنِ الزَّيْتُونِيِّ الْقَرْوِيُّ أَرْبَعَةٌ

آلَافٍ مِثْقَالٍ ، وَحَلِيًّا أَرْسَلْتُ فِيهِ عَلَى الْقَامِ : نَحْوُ خَمْسَةِ عَشَرَ عِقْدًا ؛  
فَأَمَّا الْحُلِيُّ ، فَأَتْلَاهَا وَأَعْطَيْتُهُ لِقَرْوَرٍ ، وَلَمْ تَوْخَرْ بِهِ سَاعَةً ؛ وَأَمَّا الذَّهَبُ ،  
فَأَنهَا ، لَمَّا جَلَبْتَهُ مِنْ ابْنِ الزَّيْتُونِيِّ ، بَادَرَ بِهِ إِلَى السُّلْطَانِ وَتَمَحَّلَهُ لِنَفْسِهِ .

٢٠ وَكَذَلِكَ قَعَلْتُ خَادِمُ ابْنِ أَبِي خَيْثَمَةَ ، وَأَتَتْ إِلَى قَرْوَرٍ بِتِلْكَ الْأَسْبَابِ \* ؛ ٦٤ (ب)  
فَوَقَعَ إِلَيْنَا الْخَبْرُ ، وَزَادَنَا ذَلِكَ هَمًّا أَنْ يَدْرُوا بِهِ لِلشَّرْطِ الَّذِي اشْتَرَطَ عَلَيْنَا ؛

فأخذتُ على اللقَامِ تلكَ التَّسْمِيَةَ ، وأرسلتها إلى قرُور ، قبل أن يبدأ بنا ؛  
 فقال : « قد أخرجوه لنا . فإياكم أن يبقى لكم شيء عند غيرهم ! »  
 فاستفهمتُ والدتي ثانية ، وبكيتُ لها ؛ فقالت : « مالي شيء عند أحدٍ  
 أكثر ! » فأخذنا المصاحفَ ، وحلَقْنَا فيها لقرُور أنه ما لنا شيء أكثر ،  
 لا مُودَعٌ ولا مَرْفُوعٌ . « فأعلم السلطانَ بما أقسمنا به ، وجعل مع هذا  
 يبحث ويستقصي . فما وجد لنا أكثر كما قالت الوالدة .

ولمّا لم يجد شيئاً ، أتانا قرُور ثانية ، وقال : « أنه قد ظهر أنه  
 لا وديعة لكم أكثر . ولكن آياك أن يكون لكم مالٌ مدفونٌ ! »  
 فقلتُ : « ما علمنا قطٌ بدفنٍ ، ولا حسبنا هذا الحساب ؛ ولا كان الدفنُ  
 شأننا ! وخبيرٌ مُتَعَذِّرٌ على الأمير أن يحفر القصر كله ، حتّى يرى ! »  
 فقال لي : « إياك بالمنكَب ! » فقلت : « مالي بالمنكَب إلا شيء من  
 الأثاثِ عَدَدَتُهُ لنزولي فيها : جميع ذلك يزمام بخطّ يدي . يُرْسِلُ فيه  
 الأمير ويأخذ به ! » فقال لي : « هاتِ خطّ يدك بإخلاء المنكَب ! »  
 فبادرتُ على اللقَامِ . وأصاب الزمام بالمنكَب على الصّفة التي وصفتُ .  
 وكان الجنْدُ بها قد ترَبَّصُوا ، وقامت الرعيّة ؛ فطلب خطّ يدي بالإخلاء .

ولمّا صحَّ عنده براءتنا من جميع الأشياء ، أتانا قرُور لتحصيل ما بقي . والعجبُ  
 منه في تلك المدة أنه أتاني بسيفٍ كبير ، وقال لي : « اقرأه ! فإن فيه جميع  
 الأعلام التي رأى الناسُ لنا بِمَلِكِ الأندلس ، وفيه عباراتها ! » ولا أدري ما أقرأ ،  
 [ ولا أسمع ] ، أكثر من قوله لي بهذا اللفظ : « ليس كذا هو ؟ فجيت الأموال ،  
 لا [ بقي لك ] منها شيء ! » ولمّا وقف على جميع ما في الخلاء من وطاء وثياب ،

رفع بذلك كتاباً إلى الأمير ، وأعاد الفَنَشَ ؛ يَحْدِثُ غَيْرَ مَا رَأَاهُ \* أولاً . (١) ٦٥

## ٧٥ - نفي الأمير عبد الله إلى المغرب الأقصى

فلما خبر بما في التسيية أنه لا غنى للإنسان عنه ، سوَّغهُ لنا مع ثلاثمائة دينارٍ وثلاث خَدَمٍ ، أمرَ لنا بها ، وأَعَارَنَا دَوَابَّ<sup>(١)</sup> خمسةً لنقلان الأثاث كله ، وأمرنا بالنهوض إلى الجزيرة الخضراء ، وقال :  
 « تَنْتَظَرُوا بها السلطانَ حتى يَرِدَ عليكم . » وأعطانا من المُرابطين مُشَيِّعينَ مِنْ يُوئِئُسُنَا ويتكفلُ أمورَنَا . فشكرنا له ذلك ، وتحرَّكْنَا على المقام ، إذ كان الحفرُ منه في ذلك شديداً .

وَكُنَّا طولَ طريقنا جازعين ، لا ندرى ما يذهب إليه بنا ، ولا ما الإشارة فينا . ولقد كنتُ أرى المُرابطين ينزلون بمتزِلٍ ، أو يَحْتَلُّون في موضعٍ ، فأقول : « إِنَّ ذلك لشيءٌ أمرُوا به ! » فكنتُ طريق ذلك تحت جزعٍ وهلعٍ ، أسألُ الله أن يُكَفِّرَ بها السيئات ، ويجعلها آخِرَ مصائبنا بمرزئته ؛ إلى أن وَصَلْنَا الجزيرة .

فأرسلنا إلى سبَّته ؛ ودَخَلْنَا البَحْرَ في يومٍ عاصِفٍ ، أدركتنا فيه أهوالٌ لم نَكُنْ نعلم منها إلا بالأجل الذي لم يحضر ؛ حتى خرَّجْنَا إلى سبَّته ، بعد أن قيل لنا : « فيها تنتظروا الأمير ! » كما قيل عن الجزيرة . فزادنا ذلك قلقاً .

ثمَّ قِيلَ لَنَا إلى مِكْنَسَةِ الزَيْتُون . وَتَلَقَّانَا الأميرُ سَيِّراً ، وَأَنْسَأَ ، وَأَخْبَرَنَا أَنَّ مُقَامَنَا عنده إلى أن يَرِدَ السلطانُ من الأندلس . وَأَرْسَلَ إلَيْنَا مائةَ دينار . وعند حُلُولِنَا بها ، أَبْقَيْنَا بالمقام فيها . وبقيتنا على تلك الحال ، قد

(١) أصل : دواباً .

فَقَدَ مَا كَانَ بِأَيْدِينَا ، وَأَحْوَجْنَا إِلَى بَيْعِ ثِيَابِنَا الَّتِي مُرِكَتْ لَنَا بَعْدَ أَنْ  
اسْتَحْوَذَ قَرُورٌ وَحَاسِيَّتُهُ عَلَى أَكْثَرِهَا ( فَكُلُّ يَدٍ وَمَا نَهَبَتْ ! ) ، لَمْ  
يَتْرَكُوا لَنَا إِلَّا مَا لَا نَظَرَ لَهُ عَلَى نِزَارَةِ مَا أُبْقِيَ . وَالسُّلْطَانُ — أَيَّدَهُ اللَّهُ ! —  
غَافِلٌ عَنْ ذَلِكَ ، لَمْ يُمْكِنَ الشُّكْوَى إِلَيْهِ ، إِذْ كَانَ قَرُورٌ وَاسِطَةً ، وَمَا كُنْتُ  
أُنَشِّقُ مِنْ ذَلِكَ أَكْثَرَ .

وَمِنْ أَعْجَبِ الْأَشْيَاءِ أَنَّهُ ، عِنْدَ حُلُولِي بِمَكْنَسَةِ ، [ كَتَبَ إِلَيَّ ] يَقُولُ  
لِي : « أَخْبِرْنِي عَنِ الْخَاتَمِ الَّتِي خَرَجْتَ بِهِ ! » [ وَقَدْ كُنْتُ ] أَخْرَجْتُهُ  
مِنْ إصْبَعِي وَبَعْتُهُ بِعَشْرَةِ دِينَارٍ ؛ فَرَأَيْتُهُ نَعْلَهُ\* بِحَاجَتِي إِلَى تَمَنُّهِ . وَإِنَّمَا ٦٥ (ب)  
أَرَادَ أَخْذَهُ لَثَلًا يُبْقَى لَنَا شَيْئًا ، وَيَقْصَى الْجَمِيعُ ؛ وَعَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ  
لِي غَيْرُهُ . ١٠

نَمَّ إِنَّهُ وَافَانِي مِنْ عِنْدِ السُّلْطَانِ ثَلَاثُمِائَةِ دِينَارٍ أُخْرَى ، وَأَنَا بِمَكْنَسَةِ ؛  
وَخَاطَبَنِي بِكِتَابٍ يَمْدُنِي بِكُلِّ جَمِيلٍ ، وَيَقُولُ لِي : « لَا أَنْتَاكَ مَا بَقِيَْتَ ! »  
فَسَرَّنِي ذَلِكَ — أَحْسَنَ اللَّهُ جَزَاءَهُ ! — ؛ فَلَقَدْ كَانَ أَرْفَقَ بِي بَعْدَ اللَّهِ  
مِنْ كُلِّ أَحَدٍ . وَأَعْلَمْتَنِي أَنَّهُ ، إِذَا وَرَدَ مَرْثُوكُش<sup>(١)</sup> ، أَكُونُ مَعَهُ حَيْثُ  
مَا كَانَ ، إِكْرَامًا لَنَا وَإِنْشَارًا . فَعَلِمْتُ أَنِّي مُنْتَقِلٌ عَنْ مَكْنَسَةِ ، إِلَّا أَنْ  
الرَّوْعَ كَانَ أَفْتَرًا ، إِذْ لَمْ يُمْكِنَ أَنْ تُؤَخَّرَ الْعُقُوبَةُ إِلَى ذَلِكَ الْأَمَدِ . وَقَرُورٌ ،  
مَعَ هَذَا ، لَا يَدْعُ طَلَبِي عِنْدَ السُّلْطَانِ ، عَلَى إِحْسَانِي إِلَيْهِ ، جِبِلَّةٌ قَدْ جَبَلَهُ اللَّهُ  
عَلَى بُخْضِي ، مَعَ قَلْبٍ رَحِمْتُهُ ، وَقِسَاوَةٍ قَلْبِهِ ، وَدَنَاءَتِهِ وَلَوْ مِهِ .

(١) راجع أعلاه ص ١٢٥ .

## ٧٦ — عزل الأمير تميم صاحب مالقة وأخى عبد الله . ففيه

وَبَلَّغْنَا فِي طَرِيقِنَا ذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ ثِقَافِ أَخِينَا نَعِيمٍ بَعْدَنَا ، وَأَنَّهُ ،  
لَمَّا كَانَ فِي مَدَّةِ كَوْنِنَا بِفَرَنْطَاةٍ لِإِخْرَاجِ الْأَمْوَالِ ، وَنَحْنُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ  
مُرْقَبِينَ فِي الْخَبَاءِ ، كَانَ تَمِيمٌ الذَّكُورُ يَزُورُنَا ، وَيَتَكَدَّرُ عَلَيْنَا الَّذِي يَلْزِمُ  
مِنْ حُبِّ الْقَرَابَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ . وَكَانَ قَرُورٌ ، فِي هَذَا كُلِّهِ ، يَرْمِقُهُ بِبَصَرِهِ ،  
وَيَعْتَقِدُ فِي نَفْسِهِ لَذَلِكَ شَرًّا ؛ وَصَوَّرَ عِنْدَ السُّلْطَانِ أَنَّ مَا لَا أَخْرَجْنَاهُ مِنَ الْمَالِ  
مَوْدُوعٌ عِنْدَهُ ، لَيْسَلِمَ لَنَا بِسَلَامَتِهِ ، مَعَ مَا زِيدَ فِيهِ مِنَ الطَّلَبِ ، أَنَّ قِيلَ  
لِلْسُلْطَانِ : « تَقَفْتَ صَاحِبَ غَرْنَاةٍ ؛ وَأَخُوهُ مِنْهُ ! وَإِنْ تَرَكْتَهُ يَنْصَرِفُ  
إِلَى بَلَدِهِ ، طَلَبَكَ بِالنَّارِ ، وَأَفْسَدَ عَلَيْكَ مَا تَرْجُو صِلَاحَهُ ، مَعَ شَرِّهِ وَحِدَّتِهِ !  
فَهُوَ بِذَلِكَ مَرْمُومٌ مَعْرُوفٌ ! فَمَاجِلْ بِتَقَافِهِ ، يُصْنِفْ لَكَ مَا تَوْمَلُ ! » ١٠

وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ ، عَلَى مَا أَعْلَمُنِي أَخِي الذَّكُورُ ، قَدْ أَنْسَهُ السُّلْطَانُ ،  
وَوَعَدَهُ بِصَرْفِ بِلَادِهِ إِلَيْهِ الَّتِي صَارَتْ إِلَيْ ، وَقَالَ لَهُ : « لَسْتَ مِنْ  
أَخِيكَ [ بِالْمَسْئُولِ ؛ وَأَنْتَ أَظْهَرْتَ لِي ] الطَّاعَةِ ، وَأَجَلْتَ الْمُعَاشِرَةَ ،  
وِإِنَّكَ أَوَّلُ مَنْ ضَرَبَ الدَّرَاهِمَ [ الْمُرَابِطِيَّةَ ] . وَالْآنَ تَسْتَحِدُّ عَاقِبَةَ رَأْيِكَ ،  
وَنَجْعَلُ لَكَ بِتِلْكَ الْمَزِيَّةِ عَلَى أَقْرَانِكَ ! » فَطَمَعَ الصَّبِيُّ بِذَلِكَ ، وَشَرِهَ إِلَيْهِ :  
١٥ كُلُّ ذَلِكَ خِذْلَانٌ [ اغْتَرَّ بِهِ ] \* مُلُوكُ الْأَنْدَلُسِ ، وَأَسْعَدُ مِنْ أَجَلِهِ الْمُرَابِطُونَ ؛ ٦٦ ( ١ )  
فَعَمِيَّتِ الْبَصَائِرُ ، وَقَوِيَّتِ الشَّهَوَاتُ ، وَامْتَدَّتِ الْأَمَالُ بِحَيْثُ يَبْتَغِي لَهَا  
أَنْ تَقْصُرَ .

فَلَمَّا هَمَّ بِهِ ، أَخَذَ فُجْأَةً لَثَلًا يَشْعُرُ ، فَيَغِيبُ لِلَّالِ الَّتِي أَتَتْهُمُ بِهِ ،  
٢٠ وَيَنْفِرُ . وَنَالَ مِنْ قَرُورٍ هَوَانًا كَثِيرًا ؛ وَلَمْ يَتْرُكْ لَهُ سَقَطًا ؛ وَبِمَتِ أَسْبَابُهُ

في موضع محَلَّتِه : قِيمَ لَهَا قَمَّ سَوْقٌ . وأُلْقِيَ في الحَدِيدِ ، وأَمَرَ به إلى  
السُّوسِ . ولَمَّا كَانَ طَرِيقُهُ عَلَى مِكَنَاسَةٍ ، لَقَيْنَاهُ ؛ فَأَخْبَرَ بِهِوْلَ مَا قَامَسِي ،  
وَبَصُرْنَا بِهِ ، وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ قَدْ شَقِيَ بِالْكَنْبِلِ لِعِظَمِهِ ، لَا يَقْدِرُ أَنْ  
يَتَحَرَّكَ بِهِ . فَأَوْجَبَ ذَلِكَ مَا وُصِمَ بِهِ مِنَ الشَّرِّ ؛ وَأَنَّ أَهْلَ مَالَقَةٍ رَفَعُوا إِلَيْهِ  
هـ حِينَئِذٍ أَفْعَالًا قَبِيحَةً ، وَأَبَازِي سَيِّئَةً أَسَدَاهَا إِلَيْهِمْ ، عَلَى مَا ذُكِرَ ؛ فَاتَّفَقَتْ  
الْأَسْبَابُ . فَلَمْ يُرِدِ الْأَمِيرُ أَخْذَهُ إِلَّا بَيِّنَةً ؛ إِلَى أَنْ وَصَلَ السُّوسَ ،  
وَوَصَّى بِهِ أَمِيرُ السُّلَاسِينَ إِلَى بَرْزَلَفَ ، وَبَالَغَ فِي إِكْرَامِهِ . وَكَانَ مَعَهُ فِي عَافِيَةٍ  
وَرَغَدٍ مِنَ الْمَيْشِ . وَفَوَّضَ أَمْرَهُ إِلَى وِلَاةِ السُّوسِ بَعْدَ بَرْزَلَفَ .

## الفصل الحادي عشر

عزل بقية ملوك الطوائف ومصيرهم بعد ذلك

٧٧ — موقف ملوك الطوائف أثناء الحملة على غرناطة

وَحَانَ انصرافُ أمير المسلمين إلى بلاده بالعِدْوَةِ ، بعد أن أَكَلَ ما شاءه من أمر بني عُبَاد وصاحبِ الرِّبَةِ :

وَنَحْنُ ذَاكِرُونَ منها ما بَلَقْنَا منها ، بِمَا يَقْبَلُهُ الْعَقْلُ ، لا بِتَخْلِيطِ النَّاسِ ؛ وَنُخْتَصِرُ مِنَ الْوَصْفِ مَا يُغْنِي عَنْهُ الْإِكْتَارُ : فَإِنَّهَا أُمُورٌ لَمْ نَشَاهِدْهَا ، فَتُخْبِرُ عَنْ يَقِينٍ وَإِطْنَابٍ ؛ وَلَا غَابَتْ عَنَّا كُلُّ الْغِيَابِ ، فَتُجْهَلُ مَصْدَرُهَا وَمَوْرِدُهَا ، أَنَّ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ أَشْغَلُ وَأَكْرَبُ مِنَ الْغِيَابِ مَا حَدَثَ بَعْدُنَا لِقَلَّةِ اللَّبَلَاءِ بِمَا لَا يَضِنُّنَا مِنْهَا ، وَلِشُغْلِ خَوَاطِرِنَا بِمَا دَهَيْنَا بِهِ ، عَلَى أَنَّ ذِكْرَ مَا سَمِعَ ، وَنَحْنُ قَدْ أَمِينًا مِنَ الْمَوْتِ ، أَيْسَرُ مِنْ ذِكْرِ مَا عَيْنَاهُ ، وَنَحْنُ جَازِعُونَ مِنْهُ . فَحَقٌّ لَنَا أَنْ نَذْهَلَ عَنْ عِلْمِ جَلِيلَتِهِ بِالْمَعَانِيَةِ ، وَعَنْ وَصْفِهِ بَعْدَ الْأَمَانِ ؛ فَإِنَّهُ مِنْ ذِكْرِ الْهَوْلِ ، فَكَأَنَّهُ فِيهِ .

وقد كان أمير المسلمين ، قَبْلَ سَجِيئَتِهِ إِلَى غرناطة ، قد وَعَدَ الْمُعْتَمِدَ بِهَا . ، وَقَالَ لَهُ : « أَنَا رَجُلٌ مَغْرِبِيٌّ ؛ وَلَيْسَ قَدَمَتِي أَخْذُ مَالٍ وَلَا

بلاداً\* وقد ترى ما رُفِعَ على صاحب غرناطة؛ وتتوقع عليها من الروى\* . وليس ٦٦(ب)  
غَرَضِي أَكْثَرَ مِنْ تَخْلِيصِهَا ؛ فَإِذَا صَارَتْ فِي يَدِي ، وَلَا يُمَكِّنُنِي إِمْسَاكُهَا  
لِئَيْنِ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ مِنَ الْعِدْوَةِ ، وَضَعْتُهَا عِنْدَ ذَلِكَ فِي يَدِكَ : فَتَكُونُ أَعْلَمَ  
بِمَا تَصْنَعُ بِهَا ، وَأَقْدَرَ لِمَا يُصْلِحُ لِلسُّلَيْنِ . »

٥ فَلَمْ يَشْكُ الْمُتَعِدُّ أَنَّ ذَلِكَ مِنْهُ كَائِنْ ؛ وَعَمِلَ حَسَابًا آخَرَ أَنْ قَالَ  
فِي نَفْسِهِ : « إِنَّ لِي بِتَهَيُّأِهَا أَخْذُهَا بِقُعُودِ صَاحِبِهَا عَنِ الْخُرُوجِ إِلَيْهِ ، فَلَيْسَتْ  
يَمَّا تَوَخَّذْتُ مِنْ وَقْعَةٍ وَاحِدَةٍ ! سَتَنْجَرُ الْحَالُ مِنْ أَجْلِهَا ، وَتَشِيخُ عَلَيْهَا  
لِلْحَلَّاتِ ، كَمَا صُنِعَ بِلَيْطِ ؛ وَتَدْخُلُ الشُّتُو ، فَيَحْتَاجُ إِلَى الْإِنْصِرَافِ ، وَتَبْقَى  
هَذِهِ الْمَاقِلُ الَّتِي طَاعَتْ لِلْأَمِيرِ أَكُونُ زَعِيمَهَا . وَفِي خِلَالِ مَا يَتْلُوهُ أَمْرُ  
١٠ غرناطة ، اخْتِيجَ إِلَى » ، وَكَانَ لِي بِذَلِكَ الصَّوْلَةُ عَلَى الْفَرِيقَيْنِ ، وَلَا نُخْلَى  
مِنْ بَرَكَتِهَا ! »

وكان الحبيبُ إليه أن تثبى على ما ذكرناه ، إذ لا يعلم ، عند حصوله  
عليها ، ما تكون قرعته معه ، كالذي كان . وسكت عني في الأمر ؛ ولم  
مير الانكشاف بسرّه إلى رئيس يفسى عليه ، غير رُموزات ، إذ ذاك  
١٥ لا تنفع . ولو قال لي : « ائْتَسِكْ ! » فَأَنَا أَخَوْتُ عَلَى حَالِي ، أَوْ :  
« اُخْرُجْ ! » لَمْ أُطِعْهُ مَا تَهْمُهُ ؛ وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُعْطِنِي تَقْوِيَةً ، فَيَنْضَحَ  
عِنْدَ الْمُرَاطِ . إِنَّمَا كَانَ صَنَعُ الْأَمِيرِ أَنْ يُطْلِعَ وَيَرَى ، عَسَى يَهَيِّأَ لَهُ فِي النِّصْبَةِ  
شَيْءٌ ، أَوْ يَسْلَمَ مِنْ مَعْرِتِهِ ؛ قَدْ تَنَسَّبَ ، وَلَمْ يَجِدْ مَحِيصًا غَيْرَ مَا كَانَ بِسَبِيلِهِ .  
وكذلك ابنُ الْأَفْطَسِ مَعَهُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ . وَصَاحِبُ الْمَرِيَّةِ فِي الْمَرِيَّةِ  
٢٠ لَمْ يَتَحَرَّكْ : كُلُّ أَحَدٍ مِنْهُمْ إِلَى مَا يَنْقُضُ مِنْ أَمْرِ غرناطة ؛ قَدْ أَبْهَتَهُمْ  
أَمْرُهَا . وَأَقْلَقَهُمْ .



ولما بصرتُ تألَّبهم على مع الأمير، خاطبتُ كلَّ واحدٍ منهم بكتابٍ  
أقولُ لهم : « هذا الأمرُ مُنْجَرٌ إليكم ! واليومَ بي وغداً بكم ! » فلم  
يمكنهم قراءةُ الكتبِ دونه ، وعرضوها عليه . فحنقَ على ؛ وكُتِبَتِ  
الأجوبةُ بإملائه ، يقولون : « إنَّما تُريدُ أن تَلْطَخُنَا بأفْعالك ،\* ونحن قد  
٦٧ (١) برأنا اللهَ منها ! » وما أشبه ذلك من الوعيد والتذويب : ففُلٌ من قد  
وَحِلَّ ، ولم يقدر على أكثر ما قدَّمنا ذِكرَه ، مع الطمع وعَمَى البصائر ،  
كما وَصَفْنَا قَبْلَ :

وكان رُسُلُهُم إلى قَبْلِ ذلك يَحْضُونِي على الِامْتِسَاكِ والتَّجَلُّدِ . وقال  
ابن الأَظْطَس : « انا أَعْتَذِرُ عنه ! » ولم يَرَوْا كَتَبَ كِتَابِ خَوْفاً من  
١٠ أن يكون ظهيراً عليهم ، غَيَّرَ إهداء ذلك على الأَلْسِنَةِ . ففعلتُ أَنهم قَوْمٌ  
قد أسلموني إلى طاقتي ؛ فإن كانت لي ، لم تَدْخُلْ عليهم داخلةً ؛ وإن  
كانت على ، لم يُفْسِدُوا وجُوهَهُم مع الرِّابِط ؛ وحسبُه اجتِهَادُهُم معه  
بأنفسهم ورجلهم .

فرايتُ حالَ في هذا كُلِّه تالِفةً ، وَعَلِمْتُ أَنه ، طُولَ مدَّة امتساکي  
١٥ لو اِمْتَسَكْتُ ، لكان سلاطينُ الأَندلس أجمع متألِّبين على فِئْتِي مع رَعِيَّتِي ،  
لِما يلزمهم من الطاعة للرِّابِط والطمع ، عسى يَحْضُلَ لأحدٍ مزيدٌ في بلاده ،  
ولا تمكن لأحدٍ منهم مَعُونَتِي ولا الاستِفْسادَ من أَجْلِ . فَتَعَنُّ لَمْ يُعِنْ  
بِمَضْنَا بَعْضاً على الرُّومِ ! فَكَيْفَ على المُسلمِ ، مع حَرْبِ الكافِرِ وقيامِ  
أهل البيت ! هذا ما لا طاقةَ به لمن عقل ! ولم نَظُنْ نحن أن الأمرَ يفتق  
٢٠ إلى هذا كُلِّه ، ولا تُعَاجِلْ هذه المُعَاجَلَةَ . ولو عَلِمْنَا ذلك ، لم يكن أحدٌ  
يقدمني إلى الخروجِ إليه ، إذ ما سِوَى ذلك على هذه الرتبة لا ينفع .

وإنّا طَمَعْنَا بما قَصَصْنَاهُ قَبْلُ ، وَحَسْبُكَ !  
وإنّه ، لَمَّا آلتَ الحَالُ إلى ما لم يُجَزَّ على قِياس ، خَرَجْنَا إليه ، ولم نَلْتَوِ ساعة .

## ٧٨ — حركات المُرابطين على المَرِيَّة

- ٥ ولم يُقَدِّم أميرُ المسلمين شيئاً ، وَفَتَ خروجي إليه ، على إرسال جَيْشٍ إلى صاحب المَرِيَّة ، قَبْلَ ابنِ عُبَّاد ، إذ كان يَتَخَلَّفُهُ مَوْسُوماً بالنفاق ، ولأنّه مُعَاوِدِي على ذلك ، وأنّ يَتَخَلَّفَهُ لا يكون إلا عن اتِّفَاقٍ .
- فلم يُحَرِّكْ منها مَوْضِعاً إلّا وأجَابَ . وتَنَاقَرَتِ مَعَاوِلُهُ أَجْمَعُ ، حتى بلغ العسْكَرُ إلى بابِ المَرِيَّةِ . وكان الرَّجُلُ — رحمه الله — سَاعَةً وروود الخَبَرِ عليه بِمَجْرُوجِنَا ، انطَبَقَ له ، واعتَلَّ لما رَأَى من هَوَلِهِ وسوءِ عاقِبَتِهِ . وقضى عليه وصول العسْكَرِ إلى الباب ، وهو على تلكِ الحال ؛ فَأَقْرَعَ لها وماتَ .
- ١٠ \* وَوَلَّى بَعْدَهُ ابْنُهُ مُعِزُّ الدَّوْلَةِ ، النَاهِضُ إلى قَلْعَةِ حَمَّادٍ على ما نَصَفَهُ بَعْدَ هَذَا . ٦٧ (ب)
- وقد كان ، لَمَّا رَأَى من طَلَبِ [ المُرابط لبلاده ] ، قد وَجَّهَ إليه ابنه الآخر ، يَعْظُهُ وَيُعَلِّمُهُ بِوَجْهِ الحَقِّ فِيهِ ، إذ كان يَنْتَحِلُ قِتْعَهَا ؛ وذلكَ بما ذَكَرْنَا من قَلَّةِ المَيْزِ بالأحوال ، إذ يَرَى هذه الأُمُورَ مُشْتَعَلَةً ، وَيَطْمَعُ
- ١٥ إطفاءها بالوعظ ! فسَاعَةً وصوله ، أَمَرَ الأميرُ بِثِقَافِهِ على المقامِ في الحديد . وَتَحْمِيلِ أبُوهِ في انطلاقِهِ ، حتى انصرفَ إليه فارّاً من المُرابط : اخْتَلَسَهُ من مَوْضِعِهِ رَجُلٌ لَهُ شَبَّابٌ ، قَذَفَ بِهِ في البحرَ حتى سَلِمَ إلى والده .
- وفترَ الطَلَبُ على المَرِيَّةِ للشغلِ بما حَدَثَ بأمرِ ابنِ عُبَّاد ، وأنّه أُوَكِّدَ الأشياءَ . وإنَّ ابنَ صَمَادِجَ ، لما حَضَرَتِ الوفاةُ ، وَصَّى ابنَهُ هَذَا المُسْتَخْلَفَ ،
- ٢٠ وقالَ له : « أَمْتَسِكْ في هذه القِصَّةِ طَوْلَ مقامِ ابنِ عُبَّادِ في مُلْكِهِ

يَاشِيلِيَّةَ مَا اسْتَطَعْتَ ! فَإِنْ رَأَيْتَ ابْنَ عَبَّادٍ قَدْ خَرَجَ ، فَلَا تَتَرَبَّصْ سَاعَةً وَاحِدَةً ، وَأَنْجُ بِنَفْسِكَ إِلَى الْقَلْعَةِ ، وَأَدْخُلِ الْبَحْرَ بِمَا قُدْرَتُهُ عَلَيْهِ مِنْ ذَخَائِرِكَ ، إِذْ لَا مَطْمَعَ لَكَ فِي الْبَقَاءِ بَعْدَهُ ! »

فَحَفِظَ وَصِيَّةَ أَبِيهِ ؛ وَسَاعَةً مَا انْقَضَى فِي إِشْبِيلِيَّةَ مَا انْقَضَى ، تَخَيَّرَ قِطْعَةً أَشْحَنَ فِيهَا جَمِيعَ مَا قَدَّرَ عَلَيْهِ مِنْ ذَخَائِرِهِ ، وَكَتَمَ أَمْرَهُ ، وَخَرَجَ بِاسْمِ أَنَّهُ نَاهَضٌ إِلَى أَمِيرِ السُّلَيْمِ بِهَدِيَّةٍ لِيُهَيِّئَ بِذَلِكَ أَهْلَ اللَّيْلِ ؛ فَسَرُّوا بِفِعْلِهِ ، وَقَالُوا : « هَذَا هُوَ الصَّوَابُ ، قَبْلَ أَنْ يَحِلَّ بِكَ مَا حَلَّ بِفَيْرِكَ ! » حَتَّى تَوَسَّطَ الْبَحْرَ ، وَأَعْطَى لِلنَّوَاتِيَّةِ مَالًا جَسِيًّا ، وَأَخْبَرَهُمْ غَرَضَهُ . وَخَرَجَ بِالْجَزَائِرِ ، وَأَكْرَمَهُ صَاحِبُ الْقَلْعَةِ ، وَأَمَّنَهُ فِي ذَخَائِرِهِ ، وَأَكْرَمَ ضِيَاقَتَهُ ، وَخَيْرَهُ حَيْثُ يَحِبُّ السُّكْنَى ؛ فَاخْتَارَ تَدَلُّسَ ، لِأَنَّهَا عَلَى الْبَحْرِ ، وَلِيُغَيِّبَ عَنْ عَيْنِ السُّلْطَانِ ، خَوْفًا مِنَ الطَّلَبِ . وَانْخَمَلَ فِي ذَاتِهِ ، وَأَخَذَ لِنَفْسِهِ بِالْأَرْجَحِ فِي أَكْثَرِ أَخْوَالِهِ .

## ٧٩ - تَوَثَّرَ الْعَلَاqَاتُ بَيْنَ الْأَمِيرِ الْمُرَابِطِيِّ وَالْمُعْتَمِدِ

وَإِنَّ الْمُعْتَمِدِينَ عَبَّادَ ، لَمَّا بَصُرَ بِدُخُولِ الْأَمِيرِ غَرْنَاطَةَ ، وَأَسْتَنْجَزَ وَعْدَهُ ، فَلَمْ يُلْتَفَتْ ، وَرَأَى تَقَافَهَا بِالْمُرَابِطِينَ وَإِخْرَاجَ مِنْ فِيهَا مِنَ الْحَشَمِ وَكُلِّ مَنْ طَمَعَ بِالْبَقَاءِ عَلَى حَالِهِ ، جَزَعَ جَزَعًا شَدِيدًا ، وَخَافَ أَنْ يَثْنَى بِهِ ، إِذْ رَأَى الْأَمِيرُ مَذْهَبَهُ فِي الْبِلَادِ وَاسْتَصْرَاخَهُ . \* وَلَمْ يُمْكِنَ لِلْأَمِيرِ أَنْ يَأْخُذَهُ بِغَيْرِ ذَنْبٍ : ٦٨ (ب) فَيَقْبَحُ ذِكْرَهُ . وَأَشَارَ إِلَيْهِ الْمُرَابِطُونَ بِتَقَافِهِ ؛ فَأَبَى حَتَّى يُلَوِّحَ قَبْلَهُ ذَنْبٌ يُوْخِذُ بِهِ . مُنْذُ إِنَّهُ ، بَعْدَ أَنْ نَهَضَ وَاتَّبَعَهُ قَرُورٌ يَقُولُ لَهُ : « الْأَمِيرُ يَحْتَاجُ إِلَى تَذْكَارِكَ بَعْضَ الْأَمْرِ ! » فَأَبَى ، وَمَضَى لَوَجْهَتِهِ ، فَأَرَاهُ بِنَفْسِهِ ؛ وَأَطْوَى الْمَرَاوِجَ ، حَتَّى وَصَلَ قَرْطُبَةَ . وَقَالَ فِي طَرِيقَةِ إِلَى ابْنِ الْأَفْطَسِ : « أَنْجُ

بَنَفْسِكَ ! قَدْ تَرَى مَا حَلَّ بِصَاحِبِ غَرْنَاطَةِ ، وَغَدَا بَنَا !  
 نَمَّ إِنَّهُ ، بَعْدَ أَنْ ظَهَرَ الْأَمِيرُ نُفُورُهُ ، وَجَّهَ إِلَيْهِ يَأْمُرُهُ بِالْقُدُومِ عَلَيْهِ ،  
 وَيَقُولُ لَهُ : « نُرِيدُ الْاجْتِمَاعَ بِكَ فِيمَا نَحْنُ بِسَبِيلِهِ . » : لِيَقُولَ : « لَا ! »  
 فَيَجِدَ السَّبِيلَ ، كَمَا فَعَلَ . فَرَاغَهُ ابْنُ عَبَّادَ : « إِنْ ذَلِكَ كَانَ وَقْتُ  
 ٥ كُنْتُ ضَيْفًا ، وَتُرِيدُ النَّزْوُ ؛ فَلَزِمْتَنِي مَعُونَتُكَ بِنَفْسِي وَجَمِيعِ أَمْوَالِي ! وَالْآنَ  
 لَأَمَّا أَنْتَ لِي جَارٌ مِثْلَ بَادِيَسٍ وَحَفِيدِهِ ؛ وَأَنْتَ أَقْدَرُ مِنِّي عَلَى الشَّرِّ بِمَجْنُونِكَ !  
 فَلَا يُمْكِنُنِي التَّغْرِيرُ بِنَفْسِي ، عَسَى أَنْكَ تُرِيدُ اخْتِذَا بِلَدِي ، إِذْ لَا تَصُحُّ لَكَ  
 غَرْنَاطَةُ إِلَّا بِمَا يُضَافُ إِلَيْهَا مِنَ الْأُنْدُلُسِ ! » فَشَرَطَ عَلَيْهِ أَمِيرُ السَّالِمِينَ أَنْ  
 يَلْتَزِمَ الرِّبَاطَ ، وَيَقْطَعَ الْقِبَالَاتَ ؛ وَتَحَامَلًا كَثِيرًا عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ ؛ وَفِي تَرْكِهِ  
 ١٠ أَوْ فَعَلَهُ قَطْعُهُ . فَامْتَنَعَ ابْنُ عَبَّادَ جَهْدَهُ ، وَبَنَى عَلَى الشَّرِّ .

وَبَدَأَ [ الرِّبَاطُ ] بِمُدَاخَلَةِ مَعَاقِلِهِ ؛ فَانْتَشَرَتْ ، كَمَا جَرَى لِنَيْبِهَا ؛ وَقَامَتْ  
 عَلَيْهِ الرِّعَايَا بِكُلِّ قَطْرِ . فَأَرْسَلَ إِذْ ذَاكَ إِلَى الرَّومِيِّ ، يَسْتَعِيثُ بِهِ ؛ فَقَعَدَ عَنْهُ ،  
 خَيْفَةً مِنَ التَّغْرِيرِ ، وَهِيَ حُجَّةُ أَمِيرِ السَّالِمِينَ عَلَى ابْنِ عَبَّادَ ، أَنْ قَالَ لَهُ :  
 « ظَهَرْتُ بِكِتَابِكَ إِلَى الرَّومِيِّ وَإِسَالِكَ عَنْهُ ! » قَالَ الْمُعْتَمِدُ : « لَوْ قَعَلْتُهِ  
 ١٥ قَبْلَ أَنْ تُؤْخَذَ بِلَادِي بَطْرًا وَأَشْرًا ، كُنْتُ أَلَامًا ! وَأَمَّا بَعْدَ أَنْ رَأَيْتُ  
 طَلَبِي فِي الرُّوحِ ، اضْطَرَرْتُ الضَّرُورَةَ إِلَى ذَلِكَ لِلدَّفَاعَةِ ، وَلَوْ يَوْمًا وَاحِدًا ! »  
 وَهِيَ كَانَتْ عِلَّةَ الْجَمِيعِ ؛ وَبِذَلِكَ هَلَكَ ابْنُ الْأَفْطَسِ ، وَمِنْهُ أُتِيَ .

٨٠ — الْأَسْتِيلَاءُ عَلَى قَرْطَبَةَ وَإِشْبِيلِيَّةِ وَتَقَى ابْنُ عَبَّادَ

فَلَمَّا تَبَيَّنَ لِلأَمِيرِ خِلَافُهُ وَقَعُودُهُ عَنْهُ ، شَاوَرَ الْقَهْمَاءَ فِي أَمْرِهِ ؛ فَأَشَارُوا  
 ٢٠ عَلَيْهِ بِغَزْوِهِ . فَكَانَ غَزْوُهُ بَعْدَ إِبْلَاءِ عُذْرٍ ؛ وَلِهَذَا مَا أُخِرَ<sup>(١)</sup> بِهِ لِإِيْهِكَ

(١) أَصْلُ : « وَخَرَّ » .

من هلك عن يَئِنَّةٍ وَلِتَكُونَ لَهُ الْحُجَّةُ عَلَى مَنْ يُرِيدُ إِخْرَاجَهُ . فَأَمَرَ الْأَمِيرُ  
سِير\* بِالْمُخْرَجِ إِلَيْهِ . وَنَهَضَ ، وَنَحْنُ بِمِكْنَسَةٍ . وَنَازَلَهُ مُدَّةً طَوِيلَةً ؛ ٦٨ (ب)  
وَمَعَاظِلُهُ قَدْ ذَهَبَ أَكْثَرُهَا بِالطَّاعَةِ .

وافتتح الأميرُ بِحَالِ هَذَا مَدِينَةِ قُرْطُبَةٍ ، وَاسْتَشْهَدَ فِيهَا ابْنَهُ لِلْأَمُونِ  
ووزيراهُ ابْنُ زَيْدُونُ وَابْنُ بَكْرٍ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ - بِمُدَاخَلَةٍ مِنْ أَهْلِ  
الْبَلَدِ ، مَعَ انْخِرَاقِ لِلدِّينَةِ ، وَأَنَّهُ لَمْ يُمْكِنَ ضَبْطُهَا إِلَّا بِأَهْلِهَا . وَكَانَ الْمُعْتَمِدُ  
حَذِرًا عَلَى قُرْطُبَةٍ ، يَرْجُو بَقَاءَ حَالِهِ بِثُبُوتِهَا ، وَيُوصِي ابْنَهُ بِالصَّبْرِ ، وَيَقُولُ  
لَهُ : « لَا تَجْزَع ! فَالْمَوْتُ أَهْوَنُ مِنْ الدَّلِّ ! وَلَيْسَ السُّلْطَانُ إِلَّا مِنْ  
الْقَصْرِ إِلَى الْقَبْرِ ! »

١٠ فَلَمَّا أُخِذَتِ قُرْطُبَةُ ، انْقَطَعَ الرَّجَاءُ . وَضَاقَتْ إِشْبِيلِيَّةٌ ؛ وَنَدَى مَا كَانَ  
بِيَدِهِ مِنْ أَجْلِ النِّفَقَاتِ ، إِلَى أَنْ دَخَلَهَا الْأَمِيرُ سِيرَ عُنُوتًا بِمُدَاخَلَةٍ مِنْ بَعْضِ  
أَهْلِهَا . وَهَلَكَ فِيهَا عَالَمٌ ، وَانْكَشَفَ الْحَرَمُ ، إِذْ لِلْجَيْشِ مَعْرَةٌ لَا تُمَلِّكَ  
بَعْدَ صَبْرِهِمْ عَلَى مَلِكِهِمْ . وَظَهَرَ لِسِيرٍ مِنْ اجْتِهَادِهِمْ فِي الْقِتَالِ مَا أَعْجَبَهُ  
ذَلِكَ ، وَقَالَ : « لَوْ أَنِّي أَقْصَدُ<sup>(١)</sup> مَدِينَةَ الشُّرْكِ ، لَمْ تَمْتَنِعْ هَذَا  
١٥ الْاِمْتِنَاعُ ! »

وكان دخولها من ناحية الوادى ، وهو أَمْنُهُلُ الْأَمَاكِنِ . وَلَوْلَا صَبْرُ  
أَهْلِهَا وَكَثْرَةُ أَقَارِبِ ابْنِ عُبَادٍ ، لَمْ يَسْتَطِعْ [ الْمُعْتَمِدُ ] عَلَى شَيْءٍ ؛  
فَكَانَتْهُ غُلِبَ بِالنِّفَقَاتِ الَّذِينَ كَانَتْ الْأَبْوَابُ بِأَيْدِيهِمْ ، وَوَكَلَهُمْ بَيْنَ سِوَاهُمْ ،  
إِلَى أَنْ لَمْ يَكُنْ مَعَ الْقَضَاءِ مَدَقِّعٌ . وَكَانَ دُخُولُهَا يَوْمَ الْأَحَدِ فِي [ ٢٢ ]  
٢٠ رَجَبِ [ سَنَةِ ٤٨٤ ] ، فِي التَّارِيخِ الَّتِي دُخِلَتْ فِيهَا غَرْنَاطَةُ بَعْدَهَا بِعَامٍ كَامِلٍ .

(١) أَمَلُ : « قَصَدَ » .

وَدُخِلَتْ قَبْلَهَا قَرْمُونَةٌ ؛ ومات فيها عالمٌ كثيرٌ . ثُمَّ التَوَى أَمْرُ  
رُنْدَةٍ ؛ ونازلها قَرُورٌ ، إلى أن ظفر بالراضى ، وخدَعَهُ ، وحصل على  
أمواله ؛ ثُمَّ قَتَلَهُ ، خَوْفًا من أن تفتضح تلك الأموال ؛ وقيل إن ذلك  
لم يكن عن رأى السلطان . وأمرَ بِقَتْلِ كلِّ من ظفر به في رُنْدَةٍ  
المذكورة من الأحرار والجنود القاتلين . وقُتِلَ فيها رَجُلٌ من العرب يُعرف  
بأبي الصنصنام ، جرّاءَ على الله ، ليأخذَ بنتَهُ ؛ ونكحها من بعده ،  
وحصل على ماله . ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ ﴾ <sup>(١)</sup> . وانتسك بالعبيد ، وصيرهم  
إلى السلطان .

ولما ظفر بابن عباد ، قياً الأميرُ سيرُ خدمته وعبيده ، حاشى أمهات  
الأولاد . وأمره أميرُ المسلمين بإرساله إليه . قدم إلينا بمكناسة مع دخلته ؛  
\* وبقيَ فيها إلى أن سبقَ معنا إلى أغمات .

٦٩ (١)

## ٨١ — قول يوسف بن تاشفين إلى مراکش

وإنَّ أميرَ المسلمين ، لما فتح الله له في هذا كلّه ، أخذَ في الانصراف  
إلى مرُوكش ؛ وقد بلغ من آماله غايته ، وامتَلأتْ يداهُ بالأموال ؛ وقسم  
على أجناده بعض من الفئِءِ ، وأهدى إلى الصّحراويِّ عمه من تلك الدخائر .  
وأمرنا أن نستوطنَ أغمات ؛ فأَينناها ، ولقينا من أمير المسلمين كلَّ  
جميل ، وأنزلنا بداره الصّغرى في الحريم ، ولم يزل يمتدُّنا من إنعامه ،  
كَيْفَ ما هيأَ الله على يديه ، ووَجَدناه بعد الله أرفقَ بنا ، وأحسنَ  
مذهبٍ فينا من الناس أجمعين ، ومن كلِّ من سبقَ إليه مِنّا إحسانٌ .

## ٨٢ - عزل المتوكل بن الأفطس صاحب بطلينوس ومهلكه

وَبَقِيَ ابْنُ الْأَفْطَسِ يَتَخَذُمُ أَمْرَهُ ؛ وَكَانَ يُدَارِي ابْنَ الْأَحْسَنِ ، وَيَنْفَعِلُ  
لَهُ فِي كُلِّ مَا أَرَادَ ، طَبْعًا مِنْهُ فِي الْبَقَاءِ لِحَيِّهِ ؛ وَهُوَ ، فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ،  
يُنْهَشُ ، وَيُرَى آيَاتُ تَدُلُّ عَلَى الشَّرِّ ، وَأَنَّ الْمَذْهَبَ فِي أَخْذِهِ . وَدَاخَلَ  
عَلَيْهِ ابْنُ الْأَحْسَنِ فِي بَلَدِهِ ؛ فَشَعَرَ بِذَلِكَ ، وَتَيَقَّظَ لَهُ ، وَاسْتَوْحَشَ مِنَ الرُّبَاطِينِ ،  
وَدَاخَلَ الرُّومِيَّ ؛ فَحَفَّتْ عَلَيْهِ الْمُطَالَبَةُ ؛ وَسُئِيَ عَلَيْهِ جَهْرًا ، بَعْدَ السَّمْعَى سِرًّا ؛  
وَهُوَ ، فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، مِثْلُ السَّمَكَةِ الْعَاجِزَةِ الْمَوْصُوفَةِ فِي « كِتَابِ دِمْنَةِ » :  
لَمْ تَزَلْ فِي ثَقَلْبٍ وَتَرَدُّدٍ ، حَتَّى أَخَذَهَا الصَّيَّادُ ؛ وَهُوَ كَذَلِكَ يُرِيدُ  
أَنْ يُخَلِّطَ : يُخَاطِبُ الْأَمِيرَ بِإِظْهَارِ الطَّاعَةِ وَالْمُشَارَكَةِ فِي أَمْرِ الرُّومِيِّ ،  
وَيُخَاطِبُ الْفُؤُوسَ لِيَسْتَعِينَ بِهِ عَلَى مُلِمَّةٍ ، إِنْ دَهَتُهُ مِنَ الرُّبَاطِينِ . وَكَانَ  
ابْنُهُ الْمَنْصُورُ دَاهِيَةً بِالْأُمُورِ ، قَدْ أَشْرَبَ قَلْبُهُ الْحِذْرَ وَالْخَوْفَ ، وَقَدْ  
رَأَى طَرِيقَةَ ابْنِ الْأَحْسَنِ ، وَسَعِيَهِ عَلَى أَبِيهِ ؛ وَهُوَ رَجُلٌ سَحِيلٌ مَائِيٌّ  
فَقِيهٌ ، مُتَصَرِّفٌ فِي أُمُورِ الْأَمِيرِ ، اسْتَوَظَنَ بَطْلَيْنُوسَ ، وَاكْتَسَبَ فِيهَا  
مَالًا ؛ يَرَى أَنَّ كَوْنَهُ فِي الثَّغْرِ لِمَا يَنْفَعُ الْمُسْلِمِينَ ، وَهُوَ يَعْمَلُ فِي خَلْعِ  
صَاحِبِهَا .

وَكَانَ ابْنُ الْأَفْطَسِ الشَّيْخُ مُتَّبِعًا لِهَوَاهُ ؛ لَوْ سَأَلَهُ رُوحُهُ مَا لَا يَحِلُّ  
عَلَيْهِ ، [ عَمَلٌ ] بِهِ ، مُتَوَقِّفًا لَشَرِّهِ . وَكُلُّ شَيْءٍ يَحْذَرُهُ الْإِنْسَانُ وَيَكْرَهُهُ  
بِقَلْبِهِ ، وَلَا يَكُونُ عَلَيْهِ بِالْخِيَارِ ، فَهُوَ مُتَوَرِّطٌ لَا تَحَالَةَ ، فِيهِ ؛ فَإِنَّ الْمُدَارَاةَ  
فِيهِ مِمَّا لَا تَنْفَعُ ، وَالِاسْتِمَالُ مُنْقَطِعٌ ؛ وَلَا خَيْرَ فِي مُجَاوَرَةِ عَدُوِّكَ عِنْدَ

\* الحاجة إليه ، إلا أن تدرى عند ذم العاقبة معه أنك مستغن عنه بغيره ؛ ٦٩ (ب) وإلا ، فانت له طعمة .

فقال له ابنه النصور : « هذا التردد لا يجزئك ، ولا يغنى عنك ما ترى من إظهار الطاعة للمرابط ! ولا طاعة أهل بلدك لك وتحببهم الي كانوا يمرضون عليك ! فلو أنهم يرون بعض حقيقة في عزيمة ، كما أبقوا عليك ؛ كالذى رأيت صنع بغيرك ! فلما أن نضى للمرابط ، فلن تبلى مرضاته إلا بالاخلع له ووضع البلد في يديه ؛ وتنعج بأن تكون متحررا ، متخليا عن الرياسة ؛ فاجل ذلك ، تجد عنده الأمان ! وإن فرت نفسك عنه ، فلا تتأخر عن القرار منه بنفسك وأهلك وجميع أموالك ! يملك الرومي في أى بلدة شئت ؛ ورُبما سوغها لك ، كما قتل بابين ذى النون في بلبسية ؛ وتترك مدينة بطليوس ، لا تدخل على المسلمين ؛ فيحصل لك النجاة بمهجتك ، وسلامة البلد للمسلمين ! » فقال له أبوه ، وسق رآيه : « لا أترك موضعي ! وعسى أن تهني الأقدار ضد ما تظن ! » فخرج عنها ابنه ، ونجا بماله وأهله ، وأخذ لنفسه بالرأى الذى أشار به على أبيه . وبقي الشيخ لحينه ، حتى نفذ أمر الله فيه .

وإن الأمير سير ، لما أراد من التخدم لأمر بطليوس والحيلة فيها ، لم يثق بنفسه في ذلك ، لحدوث ولايته الأندلس ، ورأى أن الداء لا يعانى إلا بدوائه ، ولا يلقى أحدا إلا بحجره ؛ فتخير لذلك ابن رشيقي ، لأنه أندلسي ، عالم بالمكايد في الفنون ، مع ما كان له عليه من الأيادي قبل في لييط ، وأن ثقافته ذلك الوقت لم يكن إلا على رغم منه بمصادق قرور



له . فانهز القُرْصَةَ فى إطلاقه ، والكافأة له على صَنِيعِهِ بما يأمرهُ من  
أمرِ بَطْلَيْوَس .

وخاطَبَ السلطانَ فى أمره ، بعد أن أظنَّبَ فى صِفَةِ حاجته إليه . فقبل  
قَوْلَه ، وأمرَ بإرساله ، وألطفَ له القول ، واعتذر إليه بما جرى ، وأمرَ له  
بمالٍ جسيمٍ . ونَهَضَ ، بعد أن حَدَّ له الوقوف عندَ أوامرِ سِير ، وأنه  
مُسْتَحْيِيهِ ؛ ففَضَى . ونحىُ الناسَ من انطلاقهِ\* ما تَعَجَّبُوا منه وخطَّطوا القول (١) ٧٠  
فى ذلك ، كلُّ أحدٍ على مِقْدَارِ عَمَلِهِ أو شَهْوَتِهِ .

فلَمَّا وصل ، تَخَدَّمَ أمرُ بَطْلَيْوَس بِكلِّ وَجْهٍ من اللُدَاخَلَةِ لأهلِ البلدِ ومن  
معه فى القَصْبَةِ من الحرس وغيرِهِم ، حتى وقع الاتفاقُ على أن يطرقَها لَيْلًا ،  
١٠ ويفتَحونَ له [ الباب ] . فكان من ذلك ما حاولُوهُ ، وتعلَّقوا بالشُّورِ عند  
الإمارة التى كانت مع من دَاخِلِهِ . وَتُقبِضَ على الشَّيْخِ وابْنَيْهِ الفضلِ  
والعبَّاسِ ، واحتُوى له على أموالٍ جسيمةٍ . وأمرَ سِيرُ بإخراجه للقتل ،  
بعد أن رأى فى نفسه هوانًا عظيمًا ، وشَدَّةً على المال ، وتَمُّ عليه ما كان  
من عَمَلِهِ مع النصارى والمعاقل التى أعطاهم ؛ فأمرَ بقتله مع ابْنَيْهِ الفضلِ  
١٥ والعبَّاسِ — رحمهم الله — .

وطاعَ جميعُ ذلك الثَغَرِ المُرابطينَ ، كأنَّهُ لم يكن قطُّ لغيرِهِم . وفى  
أهلِهِ وبناتِهِ ، وجميعُ ما تَرَكَه . ثم صار ابْنُهُ المنصورُ فى مُجَلَّةِ الرُّومِ ، حَقِيقًا  
لما جرى على أبيه ، يطلبُ الثَّأْرَ ، ويتطَرَّقُ معهم بلادَ المسلمين .

### ٨٣ - نشاط المرابطين ضدّ النصارى .

استيلاء « السيد » لُدْرِيق على بِلَنْسِيَّة

وصرف المرابطون وجوههم إلى فتنة الروم ومُقاصَّاتِها ، بعد إكمالهم  
لأخذِ سلاطين الأندلس ؛ يقولون : « إِنَّه لا ينبغي لنا قتالُ الروم ، وتترك  
وراءنا<sup>(١)</sup> الأغداء ، يَمْنُ يَرَامِي عَلَيْنَا مَعَهُمْ ! » فكلُّها نَهَبَاتٌ بلا مَشَقَّةٍ  
غير إِنْشِيئِيَّةٍ ؛ فوقع فيها بعض التندُّر ، كما قدَّمنا ذِكْرَهُ . فسُبْحان المقدَّر  
الذي إذا أراد شيئاً أن يقول له : « كُنْ ! » فيكون . هذا نصُّ ما كان  
ولا نعلم ما يكون ، كما قال بعض الشعراء :

وَأَعْلَمُ عِلْمَ الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ وَلَكِنِّي عَنْ عِلْمٍ مَا فِي غَدٍ عَمِ  
ثم نشأ بعد ذلك من أَمْرِ بِلَنْسِيَّةِ ما لم يَذْبُلْجَ بها ما يوصَفُ ؛ فإنَّ  
الحديث لا يَحْسُنُ ذِكْرُهُ إِلَّا بَعْدَ تَقْضَى آخِرِهِ ؛ والقوسُ لا تُكَبَّدُ إِلَّا  
بِقَبْضِ طَرَفَيْهَا ؛ فإذا استكمل الخبر ، طلبَ إرادته وحسنَ مَوْقِعَهُ ، ونُقِ  
بَعْضُهُ بَعْضٍ . ولو أننا ندَّعُ هذا التأليف إلى مُدَّةٍ يَتِمُّ فيها خبر بِلَنْسِيَّةِ ،  
لَأَتَيْنَا بِهِ بَعْدَ أَنْ يَكُونَ الظَّهْرُ لِلْمُسْلِمِينَ ، وَتُرِكَ\* هذا الديوان مخروماً ، ٧٠ (ب)  
انتظاراً لِمَا يَكُونُ فِيهِ أَتْلٌ بعيدٌ . ١٥

واستئنافُ تاريخٍ له فصولٌ لا يُعْنَى ، لا سيما أننا أخذنا أنقُسنا في  
حَيْزِ تَمَامِهِ بما يليقُ بِالزَّمانِ ، ورَضْنَاهَا بما تستمرُّ عليه من تَرْكِ الشَّرِّهِ  
والتَّعَزُّهِ عَمَّا فَاتَ ، وإعمالِ قَطْعِ اليأسِ عَمَّا قِيلَ ؛ واليأسُ عَمَّا فَاتَ يُعْتَبَرُ  
راحةً ؛ وَلَرُبَّ مُطْعَمَةٍ تَعُودُ دُرَّاحًا .

(١) أصل : « وَتَرَكَوا ورائنا » .

فإذا كان ذلك كذلك ، فأول ما يجب أخذ أنفسنا به إخلاصُ النية  
 لأمر المسلمين — أيدهُ الله ! — وتمنى الخير له ، لأنَّ صلاحَ المسلمين  
 بصلاحه . ومن الديانة اعتقاد ذلك ، لما أمر به من طاعة الأئمة والنصح  
 لكلِّ مسلم ، لا سيما أنه مُحسِنٌ إلينا . ثمَّ اقتصرنا على النظر فيما يخصُّنا  
 ٥ وأنزلنا أنفسنا بمنزلة من لم يكن قطُّ إلا على هذه الحالة ، واعتبرنا بمن كان  
 قبلنا ، ونظرنا لمن هو دوننا .

#### ٨٤ — تأملات في قلب الأقدار

وما حلَّ بابن الأفتس ، فشكرنا الله على ما نجانا منه ، وصرَّفنا وجهه  
 اهتبالنا إلى ما ننتفع به ، وعَلَّبتنا النفسَ الناطقةَ على الحيوانية ؛ فإنها  
 ١٠ تحمل على الفضائل والإنصاف ، ومترفة حقائق الأشياء ، كما أنَّ الحيوانية  
 تحمل على الطلبة ، وإثارة الشهوات ، والحيدة عن سبيل المعرفة .  
 ورأينا أنَّ شغل البال بما مضى لا يَرُدُّ شيئاً غير الهمِّ والكرب اللذين  
 يُنحلان الجِسمَ ويذهبانِ اللَّبَّ ، وأنَّ الحرجَ على ما لا يكون تعبٌ للبدنِ  
 ومَشَقَّةٌ للإنسان ؛ لأنَّ قولُ الفلاسفة : لا يُلتدُّ بما مضى ، ولا يُدرى  
 ١٥ ما يكون فيما بَقِيَ ؛ وإنما له لذةُ ساعته التى هو فيها ، أو عمله الذى يجده  
 لِمَعَادِهِ . فإنَّ أعقَبَ اللهُ بخير ، فلنَّ نَحْصِرَ ما سَلَفَ من أيامنا ، فنَهْرَمَ  
 قَبْلَ أوانِ الهرمِ ؛ وإن كان الذى يأتى أشدَّ من هذا ، فيحقُّ اغْتِنَامُ  
 ما نحنُ فيه ، ونَعُدُّها أعياداً ، ونُحَدِّثُ اللهَ عملاً يَرْضاهُ ؛ وإن كُنَّا أبداً  
 على هذه الرقبة بلا انتقال ( وغير متمكِّن من ذلك ) ؛ فتَوَطُّينُ النفسَ  
 ٢٠ على ما يَمْلِكُ أنها عليه دائمةٌ ، أخرى وأرواحُ الليل .

- ثُمَّ إِنِّي اعْتَبَرْتُ جَمِيعَ مَا فِي الدُّنْيَا ، الَّتِي إِلَيْهَا يَسْعَى النَّاسُ ؛ فَوَجَدْتُ  
 نَفْسِي مُبْلَغَةً مِنْهَا كُلِّ أَمَلٍ ؛ \* وَإِنْ انْقَطَعَتْ ، فَلَمْ نَصْجِبْهَا ، وَنَحْنُ مِنْهَا ٧١ (١)  
 عَلَى يَقِينٍ بِتَخْلِيدِهَا . بَلْ ، لِكُلِّ شَيْءٍ مُدَّةٌ ، وَلَا بُدَّ مِنْ تَرْكِهَا .  
 وَالخُرُوجُ مِنْهَا فِي مُدَّةِ الْعُمُرِ خَيْرٌ مِنْ مَيِّتَةٍ عَلَى فِتْنَةٍ أَوْ غَرَقٍ ، عَسَى  
 ٥ بِذَلِكَ أَنْ يُعْظِمَ اللَّهُ الْأَجَرَ ، وَيُكَفِّرَ السَّيِّئَاتِ . وَيَكُونُ ذَلِكَ لِلْإِنْسَانِ زَاجِرًا  
 عَنِ الْآثَامِ ، وَيَعْتَبَرُ قَدْ مَالِهِ كَأَنَّهُ لَمْ يَكْتَسِبْهُ بِرَزِيْقَةٍ نَفْسُهُ إِذْ حَانَ حَيْثُ ،  
 فَيُقَدَّمُ لَهَا النَّظَرُ ، بِتَوْفِيقِ اللَّهِ تَعَالَى ، قَبْلَ الْمَوْتِ وَحُلُولِ الْقَوْتِ . وَاللَّهُ  
 الْمُسْتَعْمَانُ ! لَا شَرِيكَ لَهُ !  
 سَأَلَ النَّبِيُّ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — عَنْ عَلَامَةِ انْشِرَاحِ الْقَلْبِ لِلْإِسْلَامِ ؛  
 ١٠ قَالُ : « هُوَ التَّجَافِي عَنْ دَارِ النُّرُورِ ، وَالْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ ، وَالِاسْتِعْدَادُ  
 بِالْمَوْتِ قَبْلَ لِقَاءِ الْقَوْتِ . »

## الفصل الثاني عشر

### تأملات أخيرة بعد النفي

#### ٨٥ - المؤلف والشعر

وَإِذْ قَدْ أَتَيْنَا عَلَى وَصْفِ بَعْضِ الْحَادِثَاتِ بِالْأَنْدَلُسِ ، وَرَبِّهِ دَوْلَتِنَا ،  
وَمَا انْتَهَتْ إِلَيْهِ فِيهَا أَحْكَامُنَا ، حَسْبًا سَاعَدَتُنَا عَلَيْهِ أَذْهَانُنَا ، وَنَالَتُهُ  
٥ مَقْدُرَتُنَا ، إِلَى انْصِرَامِ الْأَمَدِ ، فَلَنَرْجِعَ الْآنَ إِلَى ذِكْرِ بَعْضِ مَا يَتَعَلَّقُ  
بِذَلِكَ مِنْ شِعْرِ نَظَمْنَاهُ وَقْتَ فَرَاغِ الْبَالِ وَجَهِامِ النَّفْسِ ، مَعَ مَا أَعَانَ عَلَى  
ذَلِكَ مِنَ النَّظَرِ إِلَى كُلِّ مُسْتَحْسَنِ ، وَالشُّرُورِ بِطَيْبِ كُلِّ خَبَرٍ .  
عَلَى أَنَّي لَمْ أَنْتَحِلْهُ قَبْلُ ، وَلَا كَانَ مِنْ شَأْنِي الْأَخْذُ بِهِ ، إِلَّا عَلَى  
سَبِيلِ الْإِسْطِرَافِ وَالْإِطْنَابِ فِي وَصْفِ شَيْءٍ أُرِيدُ نَفْتَهُ . قَرَّبًا صَنَعْتُ  
١٠ فِي الْبَيْتِ أَوِ الْبَيْتَيْنِ أَيَّامًا ، أَحْضَرْتُ لَهَا ذِهْنِي ، وَأَحْدُثُ فِكْرِي ؛ فَتَصَدَّعَ  
بَعْدَ كَدِّ ، وَمَا أَكَادُ ، كَالشَّيْءِ الْمُسْتَعْرَبِ مِنْ غَيْرِ مَعْدِنِهِ . فَيُنْشِدُهَا  
الْكُتَيْبَةُ فِي مَجَالِسِ الْأَحْتِفَالِ لِلرَّاحَاتِ ، تَقْطَعُ بِذَلِكَ الزَّمَانَ عِنْدَ الْفَرَاغِ  
مِنَ الشُّغْلِ ، كَالَّذِي يَأْخُذُ بِهِ الْمُلُوكُ أَنْفُسَهُمْ فِي سَاعَاتِ الدَّعَاةِ ؛ وَنُضِيفُ  
مَعَهَا لَمَعًا مِنْ آدَابٍ وَسِيَرٍ مُخَضَّرِي ، نَمَّا يَخْتَلِجُ فِي الْخَاطِرِ وَيُجَرِّبُهَا الْإِنْسَانُ  
١٥ بِصُحْبَةِ الزَّمَانِ وَتَنَقُّلِهِ فِي الْحَالَاتِ . وَقِيلَ لِرَجُلٍ : « مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا  
الْعِلْمُ ؟ » قَالَ : « قَلْبًا عَقُولًا ، وَلِسَانًا سَوَؤُلًا ! »

## ٨٦ — استطراد المؤلف إلى الكلام عن طالعه ومصيره

وكلُّ شيءٍ إنما يَنْطَبِعُ في النشأة وحين المولد . ولقد طالعتُ من مَوْلَيِ  
 أشياء مَيَّزْتُهَا من طبائى وأخلاقى ، على أَنَّ واضِعِيه أَلْفُوهُ وَنَحْنُ في حالِ  
 الطفوليَّة ، \* لم يُوصَلْ إِذْ ذَاكَ إلى معرفة شيء من أحوالى . وكتَمْتُ ٧١ (ب)  
 عَنِّي سِمَاجَةً مُدَّةً ، حتَّى وقع السَّفر إلى يدى على غَيْرِ ظَنٍّ ؛ فشَقَّ ذلك  
 عليه ، خَوْفًا علىَّ من العُجْب بما كان فيه مَنْصُوصًا من السعادة . فطالعتُ  
 منه عجائبَ وغرائبَ ، إِذْ كان المَوْلَدُ رَصَدِي ؛ وكان الطالِعُ الحوتَ  
 بأَرْبَعِ دَرَجٍ ، وصاحِبُه المُشْتَرَى في الحادِي عَشَرَ مع الزُّهْرَةِ ؛ وسَقَطَتِ  
 الشمسُ في الدَّلْوِ مع عُطَارِدِ ؛ وانْفَقَتِ النَّحْسَانِ في الثَّوْرِ بَيْتَ الأُخُوَّةِ  
 والقَرَابَةِ ؛ وصار القمرُ هَيْلَاجًا إِذْ كان في السابعِ من البرُوجِ ، فصلَّحَ  
 لتلك لأجلِ سَقُوطِ نَيِّرِ التَّوْبَةِ ؛ والزُّهْرَةُ كَدَخْدَاهُ ، دُلَّتْ بِمَكَانِهَا  
 — واللهُ أَعْلَمُ — على قَوْلِهِمْ ، على سِنِيهَا الوُسْطَى خَمْسٌ وأربعونَ سَنَةً  
 يَزِيدُهَا المُشْتَرَى سِنِيهِ الصُّغْرَى اثْنَيْ عَشَرَ عامًا ؛ فجميعُ ذلك سبعةٌ  
 وخمسونَ عامًا . واللهُ بِنَبِيِّهِ أَعْلَمُ !

١٥ وَتَكَلَّمَ ( الطالِعُ ) على أَرْبَابِ مُثَلَّثَاتِ النِّيَرِ الدَّالَّةِ على تَقْسِيمِ  
 السعادة لِلتَّوَلَدِ ؛ فكانَ رَبُّ المِثْلَةِ الأولى زُحَلًا ، ومَعَهُ المَرِيخُ في  
 بَيْتِ غُرُوبِهِ ؛ فَدَلَّ على أَنَّ الثُّلُثَ الأوَّلَ فيه بَعْضُ التَّقْدِيرِ والتَّنْصِيفِ  
 والتَّكْدِيرِ ؛ ومِثْلُهُ الثُّلُثُ الثانى الذى لِعُطَارِدِ ، إِذْ كان في بَيْتِ الشَّعَاءِ  
 والمُهمُومِ ، مُحْشُورًا بَيْنَ النَّحْسَيْنِ ؛ فَدَلَّ على مِثْلِ ذلك وَأَشَدَّ ،  
 ٢٠ كالذى تَبَيَّنَ الآنَ ؛ والقِسْمَةُ الثالثةُ لِلْمُشْتَرَى ، وهو في بيتِ الرَّجَاءِ

وَالسَّعَادَةِ ؛ فَذَلِكَ عَلَى ضِدِّ ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَأَطْلَبَ فِي وَصْفِ السَّعَادَةِ فِيهِ ، لَا أَدْرِي كَيْفَ هُوَ ، إِذْ هُوَ بَعِيدٌ فِي الْقِيَاسِ ، قَرِيبٌ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ .

٥ ثُمَّ وَصَفَ خَيْرَ الْأَمْرَاضِ ؛ فَذَلِكَ عَلَى الْأَمْرَاضِ النَّفْسَانِيَّةِ مِنَ السُّودَاءِ وَحِدَثَانِ النَّفْسِ بِأَشْيَاءَ مُخَوِّفَةٍ .

وَذَكَرَ خَيْرَ الْبَنِينَ ؛ قَالَ : بِمِثِّ شَهِيدٍ شَاهِدٌ ، يَكُونُ الْوَلَدُ ؛ وَشَهِيدٌ آخَرُ بَأَنَّ لَا وَلَدَ . وَذَلِكَ عَلَى الْقِلَّةِ ، إِلَّا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ كَوْنِهِمْ ، وَإِنْ كَانَ مَا ذَكَرْنَاهُ دَلِيلًا عَلَى قِلَّتِهِمْ ؛ وَرُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ فِي نِصْفِ الْعُمُرِ . فَظَهَرَ ذَلِكَ بِنَشَأَتِهِمُ الْآنَ .

١٠ وَذَكَرَ خَيْرَ الزَّهَادَةِ فِي الْحَرَامِ كُلِّهِ ؛ وَحَقَّ ذَلِكَ لِكُلِّ أَحَدٍ ، غَيْرَ أَنَّ الَّذِي يَتَّبِعُهُ فِي نَصْبِهِ لِلْوَلَدِ أَغْلَبُ عَلَى الطَّبْعِ ؛ ثُمَّ نَظَرَ فِي وَجْهِ التَّعَفُّفِ ، وَابْتَحَثَ عَلَى مَا أَوْجَبَ ذَلِكَ ، وَأَنَّ تِلْكَ الزَّهَادَةَ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ مَعَ سَلَامَةِ الْمُتَعَدِّ ؛ فَإِنَّ الزُّهْرَةَ ، إِذْ كَانَتْ فِي أَحَدِ بَيْتِ زُحَلٍ ، ظَهَرَ عَلَى الْمَوْلُودِ قُبْحُ ذَلِكَ الشَّرِّ ؛ فَتَعَفَّفَ . وَقَالَ إِنَّ حِكْمَتَهُ فِي يَدَيْهِ أَكْثَرَ مِنْهَا فِي لِسَانِهِ .

وَرَأَى صَاحِبَ بَيْتِ الْعُرْسِ ، وَهُوَ عَطَّارِدٌ ، فِي بَيْتِ زُحَلٍ ؛ فَذَكَرَ عَلَى الْمَيْلِ إِلَى الصَّخَارِ ذَوِي الطَّبَائِعِ الْمَطَّارِدِيَّةِ ، مَعَ مُنَافَرَةٍ لَا تُبَيِّحُهُ الشَّرِيعَةُ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ صَاحِبِ الْعُرْسِ وَصَاحِبِ الطَّالِعِ مُوَاصَلَةً وَلَا مُسَاكَلَةً .

٢٠ كُلُّ هَذَا قَدْ عَلِمْنَاهُ مِنْ أَنْفُسِنَا ، كَأَنَّهُ حَاضِرٌ مَعَنَا ، وَمُطْلَعٌ

علينا . فلم نَشْكُ في صحته بإذن الله ، فسُبْحَانَ مُصَرِّفِ الْآيَاتِ وَمُجْرِي  
الْأَفْلاكِ !

(الْفَلَكَ مَا اسْتَدَارَ مِنَ الْأَشْيَاءِ ؛ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : « كُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبِخُونَ »<sup>(١)</sup> . وَسَمَّاها سَمَاءٌ ؛ فَإِنَّ الْقَرَبَ تَدْعُو كُلَّ مَا ارْتَمَعَ سَمَاءٌ ؛  
• فهي ، لارتفاعها علينا ، سماء ؛ وَهَيَّئْتُهَا : فَلَكٌ ، لَا سَمَاءَ . )

## ٨٧ — أراء المؤلف في التنجيم

وَلَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ، غَيْرَ أَنَّ أَهْلَ الْقُلُوبِ مِنْهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا هِيَ  
دَلَالَةٌ عَلَى الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَلَا يُعْلَمُ بِهَا الْجَلِيَّةُ ، كَالْقَيْثِ الْمُنْزَلِ دَلِيلٌ  
عَلَى نَبَاتِ الزَّرْعِ بِهِ ، أَوْ كَالنَّارِ الْمُشْتَعِلَةِ بِمَكَانٍ عَلِمَ أَنَّهَا مُخْرِقَةٌ . وَيَحْتَجُّونَ  
١٠ بِحَدِيثِ الرَّسُولِ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — فِي قَوْلِهِ : أَقْبَلْتُ بِمَجْرِيَةٍ ، فَتَشَامَتُ ،  
فَتَلَكَ عَيْنٌ غَدِيقَةً . وَمُعَانَاةُ الْحَكِيمِ الْمَاهِرِ دَلِيلٌ عَلَى بُرْئِهِ ، يَرْجَى لَهُ  
ذَلِكَ إِنْ أَخَّرَتْهُ الْمُدَّةُ . وَجَاءَ بِطَيْبٍ عَالِمٍ إِلَى أَحَدِ الْعُظَمَاءِ مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ ،  
فَلَمَّا شَكَاهُ الْمَرِيضُ إِلَيْهِ ، قَالَ لَهُ الْحَكِيمُ : « قَدْ بَرِيتَ بِمَحُولِ اللَّهِ ! » فَلَمَّا  
أَعْلَمَهُ التَّرْجُمَانُ بِقَوْلِهِ ، قَالَ الْقَلِيلُ : « إِنْ شَاءَ اللَّهُ ! » ، فَأَجَابَهُ الْحَكِيمُ :  
١٥ « إِنْ شَاءَ اللَّهُ قَدْ شَاءَ : لَمْ يَسْفُنِي إِلَيْكَ مِنْ أَرْضِ الْهِنْدِ إِلَّا وَقَدْ قَضَى  
بَصَحَّتِكَ ! »

وَقَدْ أَغْلَى<sup>(٢)</sup> أَهْلُ الْهِنْدِ فِي هَذَا الْعِلْمِ ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ اتَّخَذَهُ شَرْعًا ، حَتَّى

(١) سورة الأنبياء : ٢٣ = سورة يس : ٤٠ .

(٢) أصل : « اغلوا » .



إن فيهم من لا يؤلّي تملكتهم إلّا من شاكل طالع الدولة ؛  
 وهم يزعمون أنّ طالع الملك ، إن لم يكن وتدًا من أوتاد المملكة ،  
 أو كان منها ثلثي عشر أو سادسًا ، وأمكنة الكواكب غير متفقة\*  
 (٧٢) (١) لملك ، فإنه ينحسرها ، ولو بلغ الجهد من الاحتياط عليها : إمّا تهلكه ،  
 أو يهلكها ، ضرورة تسوقه الأقدار إليها . فكانوا يتخيرون الطوالع قبل  
 اختيار العقول والمذاهب ، يزرون أنّ القدر أغلب من الرأي ، ويقولون :  
 « لك سعادة الدولة ومساعدة الأقدار هيأت لنا هذه الآراء لطول  
 المدد . »

ثمّ إنهم يزعمون أنّ العمر الطبيعيّ مائة وعشرون عامًا ، وأنّ القواطع  
 التي تكون قبله إمّا هي من أحداث داخلية على الإنسان ، عرضيّة ،  
 إمّا من فساد المزاج ؛ فخور الطبيعة ، إذ جعلوا الأربع طبائع التي في  
 الإنسان قوامه كأركان البيت ، فمتى فسدت منها طبيعة ، اعتلّ  
 الجسم ؛ وإن تغيرت كلّها ، مات . وجعلوها مشاكلة للأزمنة : فالدم  
 ربيعيّ ، والبلغم شتويّ ، والصفره صيفيّة ، والسوداء خريفية ؛ فنّ  
 عالج كلّ زمانٍ منها بضدّه من الأغذية والأدوية ، قد أصاب . ولا  
 ١٥ باقى مع الله !

و[لما] احتجّ عليهم بالذى يموت فجأة ، أو في زحمة ، أو بآفة  
 سبب ، وهو يظهر صحيح الجسم ، أضافوا إلى الطب من علم النجوم ،  
 وأنفق رأيهم أن لا فلسفة تمّ حتى يجمعها ، وأن لا قوام لأحد العليّن  
 دون الآخر ؛ قالوا : إمّا ذلك من الهياليج الساقطة ؛ فإنّ المولود ، إذا  
 ٢٠ كانت هياليجه ساهرة ، صحّ ارتباط نفسه بجسمه ؛ فلا تخرج إلّا عن

مَشَقَّةٌ مع تمامِ المَدَّةِ التي تدُلُّ عليها العَطِيَّةُ . وإن كانت هَيَالِجُهُ ساقِطَةً كُلَّهَا ، عرض الموت بأَرْقٍ سببٍ . فإن لم يكن له هَيَلَجٌ ، سَيَّرَتْ المَطْلَعِيَّةُ وَعُدَّةً لها أعوامٌ ؛ ويكون القَطْعُ عند تَمَامِهَا ، وقد يكون في تَحَاوِيلِ السَّيْنِ ؛ وإن تَمَّ العَطِيَّةُ عند انْتِهَاءِ صَاحِبِ حَدِّ الدَّرَجَةِ إلى موضعٍ نحسٍ ، قَطْعٌ أو شبه القَطْعِ ، إن لم تُسَاعِدْهُ النُجُومُ السَّعِيدَةُ .  
وَسَمَوُهُ الجَانِّ بِخَتَانٍ ، وهو دليلُ الحَيَاةِ بإذنِ الله .

ومِنْهُمْ مَنْ رَأَى ذَلِكَ قُوَّةً لِنَفْسِهِ\* ، وَرَضِيَ بِمَا قَسَمَ لَهُ الْبَارِئُ — عَزَّ ٧٢ (ب) وَجَلَّ — ؛ فَلَا يَنْقُدُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَيَعِيشُ طَيِّبَ الْعَيْشِ ، يَدْرِي أَنَّ لَا قَاطِعَ يَقْطَعُ بِهِ فِي تِلْكَ المَدَّةِ ، وَيُسَجِّعُ لِقَوْلِ عَلِيٍّ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ —  
١٠ لِرَجُلٍ قَدْ أَسَنَّ : « آيَةُ شَجَاعَةٍ قَدْ فَاتَتْكَ ! » يَنْفَى : لَوْ أَنَّكَ قَبْلَ الْيَوْمِ تَدْرِي أَنَّ هَذَا يَكُونُ عُمُرُكَ لَمْ تُبَالِ .

وَأَمَّا أَنَا ، فَأَقُولُ إِنَّهُ تَأْنِيسٌ مَا لَمْ تَقْرُبِ المَدَّةُ ، وَزِيَادَةٌ فِي أَلَمِ اللَّيْثَةِ إِذَا اقْتَرَبَتْ . وَلَا يَكُونُ الطُّبُّ إِلَّا لِيُصَحَّ الْبَدَنُ مُدَّةَ الْحَيَاةِ لِكِرَاهِيَةِ الْعَيْشِ فِي نَكَدٍ . وَأَمَّا لِذَفْعِ أَجَلٍ ، فَلَا يَنْفَعُ شَيْءٌ .

## ٨٨ — آراء طِبِّيَّةٍ فِي الْأَغْذِيَةِ وَالنَّبِيذِ

١٥

قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ : « النَّاسُ يَعِشُوا<sup>(١)</sup> لِأَيِّ كُلُوا ، وَنَحْنُ نَأْكُلُ لِنَعِيشَ ! » فَتَأَمَّلْ مَعْنَاهُ .

وَجَمَعَ أَحَدُ الْمُلُوكِ أَطِبَّاءَهُ ، فَقَالَ لَهُمْ : « أَعْلِمُونِي بِالْإِدْوَاءِ الَّتِي لَا دَاءَ مَعَهَا » فَكَتَبُوا عَلَى الْأَدْوِيَةِ وَالْمُعَانَاةِ بِهَا ، غَيْرَ وَاحِدٍ مِنْهُمْ كَانَ

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ .

أَكْبَرُ سَنًا ؛ فَرَدَّ عَلَيْهِمْ أَنْ : « لَيْسَ عَنْ هَذَا سَأَلَكُمْ الْأَمِيرُ ! وَلَكِنَّهُ  
يَأْذَنُ لِي فِي الْكَلَامِ ؟ » قَالَ : « قُلْ ! فَأَنْتُمْ مَعْدِنُ الْحِكْمَةِ وَالْفَلَسَفَةِ ! »  
قَالَ « أَيُّهَا الْأَمِيرُ ! إِنَّ الدَّوَاءَ الَّذِي لَا دَاءَ مَعَهُ أَنْ تَكُونَ ، عِنْدَ  
أَخْذِكَ لِلغَدَاءِ ، تَتْرُكُ مِنْهُ بَقْدَرٍ مَا تَمُّ بِهِ الشُّبَّةُ ، وَلَوْ قُفِّمَتَيْنِ ، وَلَا  
تَمَلًّا ! فَذَاكَ دَوَاءٌ لَا يَحْتَاجُ مَعَهُ إِلَى طَيِّبٍ ! »

وَذَكَرَ هَذَا عَنِ الرَّشِيدِ ، إِنَّهُ قُدِّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَصْعَةٌ بِطَعَامٍ ؛ فَلَمَّا أَكَلَ  
قَالَ : « هَذَا غَدَاءٌ وَدَوَاءٌ ! فَمَا زِيدَ عَلَيْهِ كَانَ دَاءٌ ! » وَعَلَى أَنَّهُ لِكُلِّ  
أَمْرٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَ .

وَقَالَ النَّبِيُّ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — : « أَصْلُ كُلِّ دَاءٍ الْبُرُودَةُ ، وَأَصْلُ  
كُلِّ دَوَاءٍ الْحُمَّى ! » وَقِيلَ : « أَقْلِلْ طَعَامًا ، تَحْمَدُ مِنْهَا ! » وَقَالَتْ  
الْحُكَمَاةُ : « إِنَّ الْكَثْرَةَ وَالْقَلَّةَ عَدُوَّ الطَّبِيعَةِ . »

قَدْ فَرَى<sup>(١)</sup> فِي الْخَمْرِ مَا ، إِذَا اعْتَدَلَ مَزَاجُهُ مِنْهُ بِالْكَثِيرِ ، لَمْ يَجِبْ أَنْ  
يُقَالَ لَهُ : « قَلِّلْ ! » وَلَا مِنْ شَارِبِ وَاثَقَهُ الْقَلِيلُ ، أَنْ يُقَالَ لَهُ :  
« ازْدَدْ ! » غَيْرَ أَنَّ الْعَاقِلَ يَرَى ذَلِكَ بِحُسْنِهِ ، وَيَعْلَمُ مَا لَمْ يُوَافِقْ طَبْعَهُ ؛  
فَلَا يَزِيدُ عَلَيْهِ شَيْئًا .

وَسُئِلَ حَكِيمٌ عَنِ الْخَمْرِ ؛ فَأَعَابَهَا ، إِلَّا أَنَّهُ قَالَ : « إِذَا أَخَذْتَ  
كَيْفَ يَنْتَبِئِي وَمَعَ مَنْ يَنْتَبِئِي ، فَلَا بَأْسَ بِهَا : تَفْرِحُ النَّفْسُ ، وَتَذْهَبُ  
بِالْهُمُومِ ، وَتَشْجَعُ ، وَتَحْمِلُ عَلَى الْفَضَائِلِ . وَالتَّزِيدُ مِنْهَا شَرٌّ كَثِيرٌ ،  
\* كَمَا أَنَّ التَّقْلِيلَ مِنْهَا خَيْرٌ كَثِيرٌ ! »

(١) ٧٣

وشبهوا كثيرها في الأبدان مثل الترموس الذى إذا أكره عليه بالماء  
وطال مكثه ، استحال وذهب نوره .

وقيل فيها :

سَأَلْتُ الشَّيْخَ بُقْرَاطًا وَبُقْرَاطٌ لَهُ عَقْلٌ  
فَقَضَّلَ مَا لَهُ شَيْبَةً وَطَبَّ مَا لَهُ مِثْلُ  
قَهْلْتُ : الْحَمْرُ تَعْجِبُنِي ! قَالَ : كَثِيرُهَا قَتْلُ !  
قَهْلْتُ : كَمْ تَقْدُرُ لِي ! قَالَ ، وَقَوْلُهُ فَضْلُ :  
وَجَلَّتْ مِنْ طِبَائِعِ أَرْبَعَةٍ هِيَ الْأَصْلُ  
فَأَرْبَعَةٌ لِأَرْبَعَةٍ لِكُلِّ طَبِيعَةٍ رِطْلُ

٥

١٠ هذا ما قاله الناس . ولا خيرَ فيما لا تبيحه الشريعة . ولا بأسَ  
يعلمُ الشيء عند الحاجة إلى وضعه ؛ وبفض الشراً أهونُ من بقضه لمن  
ابتلى بها أن يأخذها على حتمها .

وقالوا إنه مما يؤلّد فرح النفس الشربُ بآنية الذهب وشمّ الزّجّج ،  
كما أن الشربَ بآنية القزدير وشمّ البنفسج مما يؤلّد الحزن .

١٥ وقالوا إنّها من أكبر أدوية السّوداء في تلك الساعة ؛ وتعقبُ سَوْدَاءُ  
أشراً من الأولى إن أكره منها . والعلة في ذلك أنه لا خيرَ فيها إلّا  
مارقٍ منها ، وحالَ عليها الحولُ ، وعطرت رائحته ، وهى حارّةٌ يابسةٌ ،  
ثمّ تستحيلُ إلى البرد عن شرب الماء للضرورة ، وتجدُ الرطوبة منها ،  
كبدية اللون ، غليظة الرّوثق ، مؤلدة للدم والنّوم ؛ وهى الموافقةُ  
٢٠ لزمان الشتاء . وليتخذ منها لكلّ زمان ما يوافق طبيعته ، ويخالف هواه .

ورأوا أن أخذها بعد الغداء بساعة ، لينام الإنسان قبلها ويروى

من الماء أَفْجَعُ لَهُ وَأَفْجَعُ . وكذلك الْجَمَاعُ أَفْجَعُ أَنْ يَكُونَ بَعْدَ سَكُونِ  
الأعضاء وتَوَدُّعِهَا بالنوم بعد الطعام ، في صبيحة تلك الليلة ، عند تَمَلُّ  
الأعضاء ، واحتياجِهَا إلى إخراج الفضول ، ونشاطِهَا . ولا يكون ذلك عن  
\*تَكَلُّفٍ ، حَتَّى تَمِيلَ الطَّبِيعَةُ إِلَيْهِ ، لَا سِبْيًا إِنْ سَاعَدَتْهَا النَّفْسُ ؛ وَيُؤَافِقُ ٧٣ (ب)  
ذلك الشَّخْصُ هَوَاهَا ، إِذِ النَّفْسُ وَالْجِسْمُ شَكْلَانِ مُرْتَبِطَانِ : مَتَى اعْتَلَّ  
أحدهما ، تَضَعُضَعُ الْآخَرُ ؛ وَمَتَى صَحَّأَ جَمِيعًا ، قَوِيَّتِ اللَّتْنَةُ وَتَكَامَلَتِ  
الصَّحَّةُ . وَيَكُونُ ذَلِكَ أَسْرَعَ فِي الْبَاهِ ، كَمَا أَنَّ الْمَعِدَّةَ مَتَى اشْتَهَتْ  
شَيْئًا ، قَدْ ضَمِنَتْ هَضْمَهُ .

قال جَالِينُوسُ : « إِنَّ الْمَرِيضَ الَّذِي يَشْتَهِي أَرْجَى مِنْهُ لِلصَّحِيحِ  
الَّذِي لَا يَشْتَهِي ! » أَلَا تَرَى أَنَّ الطَّيِّبَ الْمَاهِرَ ، إِذَا عَانِيَ الْعَلِيلَ ،  
وَقَامَ بَيْنَ دَوَائِيْنِ يَكُونُ نَجْعُهُمَا وَاحِدًا ، قَصَدَ إِلَى الَّذِي يَعْلَمُ أَنَّ النَّفْسَ  
عَلَيْهِ أَقْبَلُ فِي حَالِ الصَّحَّةِ ؛ فَيَعْتَمِدُهُ . أَلَا تَرَى أَنَّ شَرَابَ السَّقَرَجَلِ  
وَشَرَابَ السَّكَنْجَبِينَ فِعْلُهُمَا وَاحِدٌ ؛ غَيْرَ أَنَّ شَرَابَ السَّقَرَجَلِ أَلْيَقُ بِالنَّفْسِ ،  
وَهِيَ إِلَيْهِ أَشْوَقُ ؛ فَيَرَى الْحَكِيمُ تَوَقَّاتَهُ إِلَيْهِ زَائِدًا عَلَى فِي الدَّوَاءِ ، وَيَنْجَحُ  
١٥ فِيهِ بِالشَّهْوَةِ .

وَلَمْ يَرَوْا لَشَرْبِ الْخَمْرِ عِنْدَ الْعَطَشِ شَيْئًا أَفْجَعَ مِنْ شَرْبِ الْمَاءِ ،  
لِلتَّوَقُّانِ وَإِطْفَاءِ الْحَرَارَةِ وَقَمْعِ الْأَبْخَرَةِ .

وَلَيْسَتْ فِعْلٌ مِنَ الطَّعَامِ مَا خَفَّ ، وَلَوْ عَاوَدَهُ فِي النَّهَارِ مَرَّاتٍ ؛ فَهُوَ  
أَسْرَعَ لَهْضِهِ ، وَأَشْهَى لِمَعِدَّتِهِ ، وَأَخَفَّ عَلَى جَوَارِحِهِ . قَالَ بَعْضُ  
٢٠ الْحُكَمَاءِ : لِأَنَّ أَمَلًا شَرَابًا أَحَبُّ عَلَى مَنْ أَنْ أَمَلًا طَعَامًا ! فَإِنْ  
الْثُّخْمَةُ ، إِنْ تَقَدَّتْ ، قَلَّتْ ؛ وَإِنْ تَحَلَّلَتْ ، أَسْقَمَتْ . « قَالَ بَعْضُ

الْقَلَّاسِفَةُ : « خَفِّقُوا هَذِهِ الْأَنْفُسَ مِنْ أَوْقَارِ الشَّهَوَاتِ ، لِتَصْعَدَ إِلَى عَالَمِهَا  
الْأَكْبَرِ ؛ فَتَأْتِيَكُمْ بِمَجَانِبِ مَا هُنَاكَ ! »

وقالوا في الشراب إنه يُسَلِّي الموم . وأنا أقولُ إنها تَهَيِّجُ الموم ،  
إنما هو ما نزل عليه : إِنْ أَلْفَتْ سُرُورًا ، حَرَّكَتْ مِنْهُ مَا سَكَنَ الْإِنْسَانُ  
عنه ؛ وَإِنْ أَلْفَتْ هُمُومًا ، ذَكَرَتْ بِمَا هُوَ فِيهِ وَأَشَدُّ مِنْهُ ، وَفَقَّتْ إِلَى  
طُرُقِ السُّوءِ . وَالْهَمُّ إِنَّمَا يَكُونُ بِمَا يَنْتَظِرُ الْإِنْسَانُ مِنْ سُوءٍ ؛ فَذَاكَ الَّذِي  
لَا يُسَلِّوْهُ عَنْهُ شَيْءٌ ، وَلَا يَأْتِيهِ مِنْهُ نَعَاسٌ ؛ وَالنَّعْمُ إِنَّمَا يَكُونُ بِمَا مَضَى ؛  
فَرُبَّمَا سَلَّتْ أَلْخَمُورُ عَنْ بَعْضِ ذَلِكَ . وَلَا شَيْءٌ يُولِّدُ النَّوْمَ مِثْلَ النَّعْمِ بِتَذْكَارِ  
مَا خَلَفَ ، أَوْ النَّظَرِ فِي كِتَابٍ لَا يَنْبَغِي مِنْهُ تَعَلُّمًا أَكْثَرَ\* مِنْ مِطَالَعَةِ ٧٤ (١)  
١٠ مَا مَضَى .

وَمِنَ الْجُهَالِ مَنْ يَتَقَدُّ أَنْ الْعِشَاءَ قَرِيبَ النَّامِ يُوَلِّدُ الرِّقَادَ مِنْ أَجْلِ  
التَّمَلُّيْءِ ؛ وَأَنَا أَقُولُ إِنَّهُ يَمْنَعُهُ ؛ فَإِنَّ الْحَرَارَةَ تَصْعَدُ إِلَى السَّمَاغِ مِنَ الْأُبْخِرَةِ  
وَكُلُّ حَارٍّ مَانِعٌ لِلنَّوْمِ ، كَمَا أَنَّ الْبَرْدَ فِي السَّمَاغِ مُوَلِّدُهُ . أَلَا تَرَى أَنَّ  
الْأَدْمِغَةَ الْبَارِدَةَ كَثِيرَةُ الزَّلَّاتِ مِنَ الرُّطُوبَاتِ ، وَتَوَلِّدُ التَّسْيَانَ ؟ وَالسَّرِيعُ  
الْحَفِظُ قَدْ يَكُونُ فِي دِمَاغِهِ مَرَارَةٌ وَيُؤْسَةٌ ؟ وَقَلَّ مَا تَرَاهُ يَنْزِلُ ، وَإِنْ  
كَانَ ، فَلَا يَدُومُ ذَلِكَ بِهِ ؛ فَإِنَّهَا مِنْ فَضَلَاتِ السَّمَاغِ . وَكَذَلِكَ الْجَا حِظُّ  
الْعَيْنَيْنِ يُعْرِضُ عَنْ ذَلِكَ ، وَقَلَّ مَا يَسْلَمُ مِنَ الْأَمْرَاضِ وَالتَّعَرُّقِ . وَالنَّائِزُ  
الْعَيْنَيْنِ عِنْدَهُمْ أَصَحُّ بَصَرًا ، مَعَ أَنَّهَا مِنْ صِفَاتِ الْجَمَالِ ، إِذَا قَالُوا : « هُوَ  
النَّائِزُ الْعَيْنَيْنِ ، الْأَسِيلُ الْخَلْدَيْنِ ، الْمُشْرِفُ الْحَاجِبَيْنِ »

٢٠ كَذَلِكَ قَوْلِي ، وَإِنَّهُ لَا يَتِمُّ لِأَحَدٍ جَمَالٌ إِنْ خَشِنَتْ أَطْرَافُهُ وَامْتَلَأَتْ  
خَدَاهُ . وَكَانَتِ التَّرَبُّ تَمْدَحُ فِي الْإِنْسَانِ كِبَرَ رَأْسِهِ ، وَتَقُولُ إِنَّهُ عَلَامَةٌ

الشُّودُدُ . وَيَمْدَحُ الْفُلَامَ الْأَبْلَهَ الْعُقُولَ .

وقيل : الجمال في اللسان ، ما كان ناطقاً بالصواب ، ولا خيراً في  
التَّهَوُّرِ والإِكْثَارِ بما لا يحتاج . ووَصَفَ بعضُ الشعراء رجلاً فيما رثى  
به ؛ فقال :

لَقَدْ وَارَى الْمَقَابِرُ مِنْ شَرِّكَ كَثِيرَ تَحَلُّمٍ وَقَلِيلَ عَابِ  
صَمُوتًا فِي الْمَجَالِسِ غَيْرَ عَمَى جَدِيرًا حِينَ يَنْطِقُ بِالصَّوَابِ

## ٨٩ - رجع الكلام إلى التنجيم

ومَّا وَصَفْنَاهُ مِنْ عِلْمِ التَّجِيمِ ، احْتَجَبَتْ يَوْمًا بَعْضَ النُّجُومِ أَنَّهُمْ  
على غير شيء ؛ قَالَ : إِنْ كُنْتَ تَقْتَضِي بَأْتِنَا نَزْعُ أَنْ الْكَوَاكِبَ فَاعِلَةٌ  
أَوْ يَعْلَمُ أَحَدُ الْغَيْبِ ، فَمُحَالٌ ذَلِكَ ، لَا يَدَّعِيهِ أَحَدٌ ، غَيْرَ أَنَّا قَوْلُ بَأْتِنَا  
مُصْرَفَةٌ . أَلَسْتَ تَقُولُ فِي الشَّمْسِ إِنَّ اللَّهَ خَلَقَهَا ضِيَاءً ؟ فَكَذَلِكَ أَقُولُ  
فِي النُّجُومِ السَّعِيدِ أَوْ النَّجِيسِ إِنَّ اللَّهَ خَلَقَهُ لِنَاكٍ ؛ ثُمَّ لَا يَعْلَمُ كَيْفِيَّةَ هَذِهِ  
السَّعَادَةِ وَصُورَتِهَا غَيْرَ الْحَمَلَةِ ؛ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَنْهَيَّا مِنْهَا .

« وَلَيْسَ مِنْهَا شَيْءٌ إِلَّا مُوَافِقٌ لِلشَّرَائِعِ إِذَا النَّصْبَةُ كُلُّهَا مَخْلُوقَةٌ مِنْ مُدَبِّرٍ  
وَاحِدٍ ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ؛ فَتَنَى كَانَ فِي الْعَالَمِ دَوْلَةٌ أَوْ مِلَّةٌ ، لَمْ تَدُلَّ النُّجُومُ  
عَلَى غَيْرِهَا ، إِذَا الْحُكْمُ مِنْ لَدُنِّ الْوَاحِدِ\* . فَأَوَّلُ مَا نَبْتَدِثُكَ بِهِ أَنَّهُ (٧٤)  
مَا مِنْ طَالِعٍ الْقِرَانِ مِلَّةً وَمَوْلِدٍ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ شَا كُلَّ ، وَاتَّفَقَتْ لَهُ مِنَ  
السَّعَادَةِ فِي الْهَيْئَةِ مَا خَرَجَ بِهِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ .

« وَأُخْرَى . أَلَيْسَ تَقُولُ الْيَهُودُ إِنَّهُمْ زُحَلِيُّونَ ؟ لَا شَكَّ فِي ذَلِكَ

٢٠ أَلَا تَرَى اتَّخَذَهُمُ السَّبْتُ عِيدًا ؛ وَهُوَ لَزُحْلٍ ، وَأَخْلَاقُهُمْ كُلُّهَا مُطَابِقَةٌ لِمَا

يدلُّ عليه زُحَلٌ من البُخْل ، والقَدَّارة ، والخَبِيث ، والمَكْر ، والخَدِيعَة ؟  
 ثُمَّ الرُّومُ من بَعْدِهِمْ تَمْسِيُونَ ، لا امْتِرَاء في ذلك ! أَلَا تَرَى أَنْ يَوْمَ  
 الْأَحَدِ جُعِلَ لَهُمْ عِيداً ، وهو يَوْمُ تَمْسِي ، وطبائِعُهُمْ مُوَافِقَةُ للشمس ،  
 وَصُورُهُمْ فِيهَا : الْبَيَاضُ وَالْحُمْرَةُ وَالشُّقْرَةُ ، وَالرَّهْبَانِيَّةُ فِي عُبَادِهِمْ لِقَمِّ  
 ٥ الشمس ؟ ثُمَّ الْمَسْلُون : أَلَيْسَ هُمْ زُهْرِيَّين ؟ وَالزَّهْرَةُ دَالَّةٌ عَلَى الدِّين ،  
 وَالنِّظَافَةُ ، وَالْمَرْوَةُ ، وَالضَّوْءُ ، وَالطَّهَرُ مِنَ الْجَنَابَةِ ، وَإِبَاحَةُ النِّكَاحِ ، وَالْإِمَاءُ ،  
 وَالطَّيِّبُ وَالزَّيْنَةُ ؟ ثُمَّ أَمَرْنَا بِاتِّخَاذِ الْجُمُعَةِ عِيداً ، وهو يَوْمُ الزَّهْرَةِ !  
 « ثُمَّ انْظُرْ إِلَى بَرْجِ الْقَلَكِ . تَقُولُ إِنَّ السَّابِعَ بَيْتُ الرُّس .  
 وَأَكْثَرُ مَا يَسْتَعْمِلُ النَّاسُ التَّكْلَاحَ فِي شَهْرِ رَجَب ، وهو السَّابِعُ مِنْ أَشْهُرِ  
 ١٠ الْعَامِ الْمَوْزَنِ بِهِ ، الَّذِي أَوَّلُهُ الْمُحَرَّمُ ؛ وَالثَّامِنُ مِنَ الْبُرُوجِ بَيْتُ الْمَوْتِ  
 وَالْمَوَارِيثُ ، وَشَهْرُ شَعْبَانَ الثَّامِنُ مِنَ الْأَشْهُرِ الَّذِي تُنْسَخُ فِيهِ الْأَجَالُ ؛  
 وَالتَّاسِعُ مِنَ الْبُرُوجِ بَيْتُ الدِّينِ وَالسَّفَرِ ، وَشَهْرُ رَمَضَانَ الْمُعْظَمِ ، تَاسِعُ  
 أَشْهُرِ الْعَامِ . وَجِبَ فِيهِ الصَّوْمُ وَمُحَافَظَةُ الشَّرْعِ ؛ وَالْعَائِثِرُ بَيْتُ الْمُلْكِ  
 وَالسُّلْطَانِ . وَاتَّخِذَ الْعَائِثِرُ مِنَ الْأَشْهُرِ عِيداً يَظْهَرُ فِيهِ بِهِاءُ الدِّينِ وَعِزُّهُ .  
 ١٥ « وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَالسَّاءَ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ <sup>(١)</sup> . وَأَقْسَمَ  
 ﴿ بِالْخُنُسِ الْجَوَارِ الْكُنُسِ ﴾ <sup>(٢)</sup> وَهِيَ الْكَوَاكِبُ السَّيَّارَةُ . وَيَزْعُمُونَ  
 أَنَّ زُحَلَ هُوَ النِّجْمُ الثَّاقِبُ . لِأَنَّهُ يَفْتَقُ بِضَوْئِهِ سَبْعَ سَمَوَاتٍ . وَأَنَّهُ أَعْظَمُ  
 مِنَ الْأَرْضِ سِتَّةً وَتِسْعِينَ مَرَّةً ؛ وَغَيْرُهُ مِنَ الْكَوَاكِبِ قَدْ وَصَفُوا قِسْمَتَهَا  
 مِنَ الْعَظَمِ عَلَى الْأَرْضِ . غَيْرَ الْقَمَرِ وَعُطَارِدِ ، فَإِنَّهَا أَصْفَرُ مِنَ الْأَرْضِ . وَأَنَّ

(١) سورة البروج : ١ .

(٢) سورة التَّكْوِيد : ١٥ - ١٦ .



الشمس أعظم من الدنيا مائة وثمانون ضعفاً. ولكل كوكب منها مدة\*  
 \*يقطع فيها الفلك. وربته هيأها له بآيته — عز وجل — ؛ وإن العالم ٧٥ (١)  
 السفلى متعلق بالعلوى. مؤثر به بإذن ربه .

ومنها من قال : لأى شيء تُنسب إلينا الزندقة ؟ ولم تُفكر الخالق ؛  
 وإنما تكلمنا فى المخلوقات ؛ فيوصف كل مخلوق بما يذكركه علم الإنسان .  
 كواصف رجلٍ أو شجرٍ أو جبل !

وذكر عن حكيم أنه رُئى بالْمُصْحَف عن يمينه . والأسطرلاب عن  
 شماله ؛ فُسِّلَ ما الذى أوجب جمعها لديه ؛ قال : « أتلو فى المصحف  
 كلام الله . واعتبر فى الأسطرلاب خلق الله ؛ وعلم الهيئة عبادة ! »  
 ١٠ وإنه لما نُصَّ على هذه المقالة ؛ كان جوابي عنها : « كل ما تقول  
 يشبه يكون من مواقة أهل السنة بما احتججتُ به ؛ غير أنكم خالفتُم  
 القرآن فى قولكم « يكون » و « لا يكون » ؛ والله يقول <sup>(١)</sup> ﴿ قُلْ  
 لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ . ﴾ قالوا : « لَسْنَا  
 نقطع عن الأمر أنه يكون ؛ ولا نقول إلا أنه يدلُّ . ونأى بحجة إلا يتم  
 ١٥ شرحها . اللهم ! إذ قلنا : هذا مولدٌ سعيدٌ ، هل قدر على شرح تلك السعادة  
 والكائن فيها . مِنَّا مَنْ يَتَحَرَّى ، فيعدل ولا يتكلم على شيء . وقولنا هذا  
 كقول من رأى سحاباً قالاً ؛ فيقول : « هذه تدلُّ على الماء الكثير » . هل  
 قائلٌ ذلك مُلحدٌ ؟ ثمَّ الله يفعل ما يشاء .

وهذا أيضاً مما قدَّمنا ذكره صدر الكتاب أن كل مفتون ملقن  
 ٢٠ حُجَّتَهُ ؛ والله يقول <sup>(٢)</sup> : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ ؛ على أن الحق

عليه نورٌ لا يخبئ ؛ تقول العرب : « الحقُّ أبلج ، والباطل لجلج . » .  
قال المأمون : « لم أَعْتَبِطْ بِأَيَّامِ السُّرُورِ مُذْ عَلِمْتُ التَّجِيمَ ، وَلَا اسْتَمَرَيْتُ  
الطَّعَامَ مُذْ عَلِمْتُ الطُّلُبَ » ، ولا طابَ لي النومُ مُذْ عَلِمْتُ عِبَارَةَ الرُّوْيَا ! »

## ٩٠ - مسائل فلكية

- ٥ . ويزعمون أَنَّ الليلَ ظِلُّ الأرض ، ولا ضياءَ غير الشمس ؛ فيأشراقها  
على الأرض عند طلوعها ، كان النهار ؛ وبدخولها تحت الأرض ، رجع  
الظِّلُّ طالما ، فَأَظْلَمَ الليل .  
وبعضهم من قرأ أَنَّ الشمس تجري ، لا مُسْتَقَرٌّ لها ، إذ يقولون إِنَّ  
الشمس لا تَسْتَقِرُّ\* بمكان ، إذ لا يصحُّ أَنْ يكون المكان إِلَّا أَعْظَمَ من ٧٥ (ب)  
الذي تَحِلُّ فيه ؛ ولا أَعْظَمَ من الشمس إِلَّا الفلك ، والفلكُ دَوَّارٌ .  
١٠ وقالوا في الكسوف إِنَّ الكلام فيه ما يمكن إِلَّا بالوقوف على صورة  
الهيئة ، ولو لا ذلك ، لم يَجِدِ القول . وقد أثبت قوله بما ظهر من الكسوف  
الذي حُدَّ أمرُهُ وَقْتَ انْجِلَالِهِ وَمَبْلَغِ الْمُكْشَفِ منه ؛ وإن الشمس في  
ذاتها لا يمرضها شيءٌ غير أَنَّ جرم القمر يحول بينها وبين الأرض متى  
قابَلها ؛ وكُسُوف القمر من مُقَابَلَةِ الأرض .  
١٥ وزعموا أَنَّ ضوء الكواكب والقمر من الشمس ، وَأَنَّهَا أَجْرَامٌ شَفَافَةٌ  
تَكْتَسِي النور من النِّيرِ الأعظم ؛ فيبدو ضوءها بغيرها ، ويطمس عليها  
طلوعها . وهو قول الشاعر في ذلك :  
لِأَنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبُ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

## ٩١ - تحديد العلوم الطبيعية والطب

وقال أهل الطبيعة : إنَّ لا حيوان إلَّا بالحرارة والرطوبة ، فأين ما كان الله والشمس تولد فيه الحيوان ، وقد يكون من غير نسل . ونرى حيواناً يكون في جوف صخرة صماء مملئة ؛ والله يخلق ما يشاء . قال تعالى <sup>(١)</sup> : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ، عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . وذكر عن الحجاج أنه رى في المنام على حالة حسنة ؛ فُسِّلَ عن ذلك ، على ما كان من جوده ؛ قال : « رَجَعَنِي رَبِّي بِكَلِمَةٍ قُلْتُهَا : مَرَرْتُ يَوْمًا عَلَى زَرْعٍ ؛ هَلَلْتُ : لَوْ شَاءَ اللَّهُ ، لَأَنْبَتَ فِي النَّارِ وَالْبَقَاعِ » (أى في الصحارى التى لا ماء فيها) وقال تعالى <sup>(٢)</sup> : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

ولم يبلغ الإنسان بعلمه أكثر من معرفة الطبيعة : علاج ضعيف لا يرفع قدرًا أكثر من تقويم المزاج عند انحرافه ؛ فالجوا الأبدان بما أدركته ، عقولهم ، وجربوه بأعمارهم ، وتركوه سلفًا في الأواخر . فكلُّ يمانى على مقدار تجربته .... <sup>(٣)</sup> ولا يوافق القراءة خطأ حسنًا ومعرفة بهذا الشأن ، قد أخطأ وتكلف . \* وقالوا إنَّ الدواء المُسهِّل للجسم بمنزلة الصابون للثوب : ٧٦ (١) يُنْقِيهِ ويحلِّقه ؛ فاستعماله في زمان الخريف أولى في سلطان السوداء فيه ، كما أنَّ استعمال القصد في زمان الربيع تخفيف لا يحظى من أخرج فيه الدم . وإنَّ أشبه شيء الأغذية بمزاج الإنسان : فالخبز النقي واللحم النقي والشراب

(١) سورة الواقعة : ٦٠ - ٦١ . (٢) سورة النحل : ٨ .

(٣) بياض نحو كلمة في الأصل .

الْحَوَئِيَّ؛ فَمَنْ أَتَصَرَّ عَلَى هَذِهِ دُونَ تَخْلِيْطٍ لَمْ يَزَلْ صَحِيْحَ الْجِسْمِ ، قَوِيَّ الْبَنِيَّةِ .  
وقيل لجالينوس الحكيم ، وكان في زمان المسيح — عليه السلام — :  
« إِنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ نَبِيًّا يَبْرِيءُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ ! » قَالَ : « وَأَنَا  
أَعَالِجُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ ! » فَلَمَّا قِيلَ : « يُخَيِّ الْمَوْتَى » لَمْ يُصَدِّقْ  
ذَلِكَ حَتَّى رَأَاهُ مُعَايِنَةً حَقًّا .

## ٩٢ — تقض قول من ينكر أن الجن يتكلم

وَتُنْكِرُ الْحُكَمَاءُ مَا يَزْعُمُ النَّاسُ مِنْ رُؤْيَا الْجِنِّ ، وَتُكَذِّبُ مَنْ يَقُولُ  
بِسَمَاعِ نُطْقِهِمْ أَوْ كَلَامِهِمْ عَلَى أَلْسِنَةِ الْبَشَرِ ، وَقَوْلُ إِنَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا مِنْ لَه  
لِسَانٍ وَآلَهُ تُعِينُهُ ، وَإِلَّا ، فَكَيْفَ تَنْطِقُ رِيحٌ تَهْبُ؟ إِنَّمَا هُوَ بِرِسَامٍ  
يَعْرِضُ فِي دِمَاحٍ مَن يَدَّعِي ذَلِكَ ؛ فَيَتَصَوَّرُ فِي دِمَاحِهِ أَمْرًا مَا يَخِيلُ لَهُ بَفْسَادِهِ  
أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ وَيَسْمَعُ ، مَا لَيْسَ مِنْهُ شَيْءٌ عَلَى حَقِيقَةٍ ؛ فَيَهْدِي هَذَا نَا ، ضَرْبًا  
مِنَ الرُّوحَانِيَّةِ الَّتِي يَكُونُ الْإِنْسَانُ ، مُفَكِّرًا فِي بَلَدِهِ أَوْ شَخْصٍ أَوْ صُورَةٍ  
مِنَ الصُّوَرِ : إِذَا حَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ بِهَا ، صَارَ كَالنَّاظِرِ إِلَيْهَا ، وَإِنْ سَدَّ عَيْنَيْهِ ،  
أَوْ كَالنَّاظِمِ يَرَى مَا تُحَدِّثُهُ بِهِ نَفْسُهُ ، أَوْ كَالنَّاظِرِ فِي الْمِرْآةِ يَرَى مَا لَيْسَ بِمَوْجُودٍ .  
هَذَا ، لِعَمْرِى مَذْهَبٌ خُوْلَفَ بِهِ طَرِيقُ السُّنَّةِ . وَاللَّهُ يَقُولُ <sup>(١)</sup> : ﴿ قَالَ  
عِفْرِيْتُ مِنَ الْجِنِّ ﴾ وَقَوْلُهُ <sup>(٢)</sup> : ﴿ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْتَهُمْ ﴾ ؛  
وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَكُونُ النَّطْقُ إِلَّا بِلِسَانٍ ، وَلَا الْمَرْوِيَّةُ إِلَّا بِبَصَرٍ  
لَيْسَ عَلَى خِلْفَةِ الْإِنْسَانِ ، كُلُّهُ عَلَى جَبَلَةٍ ، يَرَى وَيَسْمَعُ وَيَعْقِلُ .  
وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَمْ تَدِينْ ، وَلَا سَبَّحْتَ ، وَلَا اهْتَدَيْتَ لِمَا يُسِّرَتْ لَهُ .

(٢) سورة الأعراف : ٢٧ .

(١) سورة النمل : ٢٩ .

إِنَّ الطَّيْرَ الَّتِي هِيَ عِنْدَنَا لَا تَعْلَلُ وَصَفَهَا اللَّهُ بِمَعْرِفَتِهِ ، قَالَ <sup>(١)</sup> : ﴿ وَالطَّيْرُ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ ؛ وَقَالَ تَعَالَى <sup>(٢)</sup> : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ . وَوَصَفَ بِالسُّجُودِ النِّجْمَ \* وَالشَّجَرِ وَالسُّوَابَ <sup>(٣)</sup> )  
الَّتِي هِيَ عِنْدَنَا جَوَائِدُ . فَكَيْفَ أَحَدُ الثَّقَلَيْنِ الَّذِينَ بَشَّرَا بِالثَّوَابِ ،  
وَأَنْذَرَا بِالْعِقَابِ ، وَخُوطِبَا بِمَا خُوطِبَ بِهِ الْإِنْسُ . وَقَالَ تَعَالَى <sup>(٤)</sup> : ﴿ يَا مَعْشَرَ  
الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ﴾ .  
فَمَنْ لَا يُؤْمِنُ بِأَنَّهُمْ لَا يَتَكَلَّمُونَ وَيَقُولُونَ ، فَلَا يُؤْمِنُ بِالْمَلَائِكَةِ ،  
وَيَحْتَاجُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ هَذَا نَسَقًا فِي كُلِّ مَنْ لَيْسَ لَهُ لِسَانٌ وَجَوَارِحُ أَنَّهُ  
لَا يَتَكَلَّمُ بِجَوَارِحِ الْإِنْسَانِ ؛ فَالْمَلَائِكَةُ لَا تَوْصَفُ بِيَدٍ وَلَا لِسَانٍ ؛ وَهُمْ  
الْمَنْزُورُونَ بِالْوَحْيِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُخَاطَبُونَ لَهُمْ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ : فَلَا يُؤْمِنُ  
بِالرِّسَالَةِ مَنْ يَتَمَذَّهَبُ بِهَذَا .

### ٩٣ - حديث عن المسرّة وعن هموم الهوى والشباب

وَقَالُوا إِنَّ الْجَمَاعَ مِنْ أَكْثَرِ أَذْوِيَةِ السَّوْدَاءِ لَسُرُورِ تِلْكَ السَّاعَةِ ؛  
وَدُخُولِ الْحَمَامِ ، لَمَّا يَمْرُضُ الْإِنْسَانُ مِنَ الْإِنْطِرَابِ فِيهِ . مَنْ سَرَّهُ أَنْ  
تَقْرَأَ عَيْنُهُ حَيَاتَهُ ، فَلْيَتَمَتَّعْ مَا وَجَدَ سَهْوَةً شَهْوَتِهِ ؛ وَمَنْ اغْتَنَمَ سَاعَةً  
لِدُنْيِهِ ؛ قَدْ عَنِمَ ؛ وَمَنْ أَخَّرَهَا ، قَدْ عَدِمَ ! فَإِنَّ الْإِنْسَانَ ابْنُ الْآنِ !  
وَقَالُوا فِي الْجُلُوسِ عَلَى الْمِيَاهِ وَالرِّيَاحِينَ مِمَّا يُسَلِّي الْعَاشِقَ وَيَتَلَاوَى مِنْ  
أَحْزَانِهِ بِهِ . وَأَمَّا أَنَا ، فَأَقُولُ إِنَّ ذَلِكَ يَزِيدُ فِي تَذْكَارِهِ ؛ وَنَقِيمُ الْبُرْهَانِ  
عَلَى ذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ لَا تَوَلِّعُ إِلَّا بِمَا اسْتَحْسَنَتْ ؛ فَكُلُّ مُسْتَحْسِنٍ تَرَاهُ

(١) سورة النور : ٤١ . (٢) سورة الإسراء : ٤٤ . (٣) سورة الأنعام : ١٣٠ .

يُخْرِجُهَا إِلَى ذِكْرِ الْأَمْنَى فِي خَاطِرِهَا ، وَكُلُّ حَدِيثٍ إِنَّمَا يَسُوقُهُ إِلَيْهِ ؛  
وَكُلُّ مَا زِيدَ تَذْكَارًا زَادَ شَوْقًا ، فَأَعْقَبَهُ سَهْرًا وَقَلَقًا . وَالشَّيْءُ لَا يُمَاقِي  
إِلَّا بِضَدِّهِ : فَكَيْفَ يَشْفَى بِحُسْنٍ وَيُسَلِّهِ حُسْنٌ ؟ بَلْ يُوقِظُهُ وَيَشْفِيهِ !  
أَلَا تَرَى أَنَّ الْمَكْرُوبَ يَتَفَرَّجُ بِالشَّرُّورِ ، وَالشَّرُّورَ ، يَضْمَحِلُّ بِالْكَدَرِ ؟  
وَلَيْسَ لِعَاشِقٍ مُرَزِّمٌ بِمَالِهِ وَلَا أَهْلٌ ، فَيَتَسَلَّى بِمَا يُذْهِبُ غُصَمَهُ ؛ بَلْ  
هُوَ مِنْ شَأْنِهِ فِي لَذَّةٍ حَلَاوَتِهَا مَشُوبَةٌ بِحَرَارَةٍ : وَهُوَ حُكْمُ الْحُلُوكَةِ فِي  
الْمَذَاقَةِ ، لَا يَكُونُ إِلَّا مَائِلًا إِلَى الْحَرَارَةِ ؛ وَكَذَلِكَ فِي الْمُشْتَهَاتِ : كُلُّ  
مَا تَمَتَّتْ حَرَارَتُهُ ، طَابَ رِيحُهُ .

- وإِذَا قَاسَ حَالَ أَرْزَمِيَّتِهِ الَّتِي كَانَتْ تَسْرُهُ عَلَى ضُرُوبٍ مِنْ حَالَاتِ  
الصَّبَوَةِ ، لَمْ يَجِدْ فِيهَا مَدَّةً كَانَتْ عِنْدَهُ أَفْضَلَ ، وَأَبْلَغَ فِي السَّرُّورِ ، وَأَهْشَّ  
لِلنَّفْسِ وَاللِّبْقِ \* بِالْحِسِّ وَأَذْكَى لِلْقَلْبِ ، وَأَصْفَى مَشْرَبًا ، وَأَهْنَأَ طَعْمًا ، مِنْ (١) ٧٧  
تِلْكَ الْمَدَّةِ ، وَإِنْ كَانَ فِيهَا بَعْضُ جَوْيٍّ ؛ فَإِنَّهُ « لَا بُدَّ بَعْدَ الشَّهْدِ  
مِنْ إِبْرَةِ النَّحْلِ » ، وَدَوَاوُهُ ، مَا لَا يَرْضَاهُ ، وَلَا يَخْتَارُهُ بَدَلًا مِمَّا هُوَ  
فِيهِ ؛ إِنْ يَشْفَلُهُ مِنْ ذَلِكَ خَطْبٌ كَبِيرٌ ، يَنْسِي بِهِ مَا كَانَ عَلَيْهِ ، وَالَّذِي  
١٥ هُوَ بِسَبِيلِهِ عِنْدَهُ أَوْلَى .

## ٩٤ — تأملات نظرية وأمثلة يضر بها المؤلف

مِنْ قِصَّةِ حَيَاتِهِ عَنِ الطُّمُوحِ وَزَوَالِ خَيْرَاتِ الدُّنْيَا

- وَالصَّبَوَةُ تُحَدِّثُ لِلإِنْسَانِ هَيْجَانًا وَهُمُومًا : كَالْمُهَمِّمِ بِالنَّظَرِ فِي مَالِهِ ،  
أَوِ الْمُشْغَبِ بِمُحَاوَلَةِ مَا يُصْلِحُهُ ؛ فَلَيْسَ كُلُّ شَيْءٍ ضَارًّا ، بَلْ يَوْمٌ مِنْهُ  
٢٠ مُكَابَدَةُ الْأَعْدَاءِ وَمَقَاسَاةُ طَلَبِ الْعَيْشِ ، النَّيِّ ، إِنْ فُتِرَ عَنْهُ شَيْءٌ ، لَا طَلَبَ

الزيادة في الرزق . فإن ذلك يسعى كالبيطري الذي هو بالخيار في الكد والراحة .

والنفسُ تَوَاقَّةٌ : متى سَمِعَتْ إلى مَرْتَبَةٍ ، تَأَقَّتْ إلى ما فوقها ؛ فالعَاقِلُ يَرَى أَنَّ كُلَّ كَيْدٍ وَطَلَبٍ دُونَ السَّعْيِ فِي طَلَبِ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ مِنْ قِيَامِ الْمَيْشِ فَخَرٌ وَأَشْرٌ وَرَغْبَةٌ وَحِرْصٌ . ولذلك هو الإنسانُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ مَسْئُولٌ ، إِلَّا عَنْ ثَلَاثَةٍ : طَعَامٌ يَسُدُّ جَوْعَهُ ، وَثَوْبٌ يَسْتُرُ عَوْرَتَهُ ؛ وَبَيْتٌ يَكُنُّهُ مِنَ الشَّمْسِ . وَلَوْ أَنَّ لَهُ الدُّنْيَا أَتَّجَعَ ، لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْهَا زَانِدًا إِلَّا حِظُّ الْعَيْنِ الَّذِي يَسْتَوِي بِهِ فِيهِ مَعَ غَيْرِهِ مِنَ النَّاسِطِينَ ، فَلَمْ مِنْ تَبَاتِهِ ، وَتَوَرَّطَ هُوَ فِي حِسَابِهِ وَأَوْزَارِهِ ، وَمَا كَانَ إِلَى انْقِطَاعِ وَفَادِهِ . فَحَقِيقٌ عَلَى الْيُسْبِ أَنْ يَزْهَدَ فِيهِ ؛ لَوْ آلَتْ حَالُهُ إِلَى السَّلَامَةِ بَعْدَ ذَهَابِهِ ، لَا عَلَيْهِ وَلَا لَهُ ؛ فَكَيْفَ ، وَهُوَ قَدْ أَتَقَّنَ بِالْفَنَاءِ وَبَعْدَهُ الْحِسَابُ وَالْجَنَّةُ أَوْ النَّارُ ؟ وَقَالَ الْمَسِيحُ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — : « الدُّنْيَا قَنْطَرَةٌ : فَاعْبُرُوهَا وَلَا تَعْمُرُوهَا ! » عَلَى أَنَّهُ لَا يُوجَدُ أَحَدٌ يَزْهَدُ فِي حَالِ كُلِّ الزَّهَادَةِ ، حَتَّى يَبْلُغَ مِنْهُ أَمَلُهُ أَوْ بَعْضُهُ ؛ فَإِنَّ الزَّهَادَةَ الطَّبِيعِيَّةَ إِنَّمَا تَكُونُ فِيمَا تَكْرَهُهُ النَّفْسُ ، وَلَا بُدَّ مِنْ مَيْلِهَا إِلَى مَا فِيهِ أَذَى مُرَوِّرٍ . وَاللَّهُ يَقُولُ فِي الْإِنْسَانِ ، لِعَلِمِهِ بِهِ <sup>(١)</sup> : « وَإِنَّهُ لِيَحِبُّ الْخَيْرَ لَشَدِيدٌ » ؛ فَكَأَنَّ الشَّيْءَ ، إِذَا أُذِرِكَ ، انْصَرَفَتْ عَنْهُ النَّفْسُ لِبُلُوغِ نَهْمَتِهَا ؛ وَمَتَى تَمَنَّعَ عَلَيْهَا ، كَانَتْ بِهِ أَشَدَّ (ب) كَلَفًا .

وَلَقَدْ بَلَّوْتُ مِنْ نَفْسِي بَعْضَ ذَلِكَ ، إِذَا الطَّبَعُ الْبَشَرِيُّ وَاحِدٌ ، لَا يَكَادُ يَخْتَلِفُ إِلَّا فِي الْأَقْلُ ؛ وَلِلذَلِكَ أَمَرَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَحِبَّ لِأَنْبَاءِ

جنسه ما يجبُ لنفسه ، حظاً على العدل والإنصاف .

وأجِدُّني في كثرة المال ، بعدَ تملكِي عليه مع ذهابه ، أزهْدَ مِنِّي فيه قبل اكتسابِه ، مع سُقوفِ الحال إذ ذاك على ما هي عليه الآن . وكذلك شَأني كُلُّه في كلِّ ما أدركتُه قبلُ من الأمرِ والنهي ؛ واكتسابِ الذخائر ، والتأثُّقِ في المطاعِمِ والملابسِ والمرائبِ والمباني ، وما شاكلَ من الأحوالِ الرفيعة التي نشأنا عليها ، حتَّى إنَّه لم يَبْقَ من ذلك ما تَمَنَّاهُ النفسُ ، وما لا تظُنُّه ، إلَّا وقد بَلَّغنا منه الغاية ، وتجاوزنا فيه النهاية ؛ ولم يكن عند الحصولِ عليه يتقطع وينهب وشيكاً ، فتطول عليه الحسرةُ ، ويُعَدُّ من جملة الأحلام ! بل ، تَمَادَى برهةً من عِشرين عاماً ؛ وما كان قَبْلَهُ يكاد أن يؤاْزِيه ؛ إذ رُبُّنَا في حِجْرِهِ .

وَوَجَدْتُني ، بعدَ قَدْ هذا كُلِّه ، على الولدِ أُخْرَصَ مِنِّي على ما سِوَاهُ من كلِّ ما وَصَفْنَا ، لَمُدِّمِهِ ذلك الوقت ؛ وقلتُ في نفسي : « الغايةُ التي إليها يَسْعَى الناسُ من أمرِ دُنْيَاهُمْ ، قد أدركناها ، وشُهرْنَا بها في الآفاق ؛ ولا بُدَّ من قَعْدِهَا ، باكِراً كان أو مؤَخَّراً ، بحياتِهِ أو موتِهِ ! فنحسب هذه العشرين عاماً هي مائة عام ، إذا تَمَّت ؛ سِوَاهُ ، وكأن لم تَعْنِ بالأُمس ! وَنَحْنُ الآنَ جُدْرَاهُ بالنظر فيما تَبَتَّعِيهِ . والله أن يَقْضِيَ ما شاء ! » وَقِيلَ لِرَجُلٍ حَرَاثٍ : « هَلْ زَرَعْتُمْ ؟ » فقال : حرثْنَا . واللهُ الزارعُ ! » وكذلك ذُكِرَ أَنَّهُ لم يَبْقَ من الْمُتَوَكِّلِينَ على الله غَيْرِ المزارعين ؛ فَإِنَّهُمْ يَدْفَنُونَ في الأرضِ أَقْوَامَهُمْ وَيَطْلُبُونَ فَضْلَ الله وَبَرَكَتَهُ .



## ٩٥ - يتحدث المؤلف عن أولاده

وكان تديرنا هذا إلهاماً لينفذ القدر ، بكون من نشأ لنا من الولد .  
لم يتعد وقته ، ولا كان في غير مكانه .

( وذكر \* الفلاسفة أن الوحي يتجراً على ثلاث : كلام وإلهام ، ٧٨ (١) )  
ومنهم ؛ وهو قوله تعالى <sup>(١)</sup> : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ . وقيل في قوله <sup>(٢)</sup>  
— عز وجل — ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ إنما كان وحي  
إلهام . وكان النبي — عليه السلام — يقول في بعض أقسامه : « لا ا  
ومقلب القلوب ! » فإنها بين يلى الرحمن يُقلبها كيف شاء لينفذ فيه  
أحكامه وتجري عليها أقداره . )

١٠ فما بقي لنا من الآمال غير مالٍ حلالٍ للعيش ، يفي عن السؤال ،  
وعملٍ صالحٍ للمعاد ، يُنجي من العقاب ويوجب الثواب .

وقد كان مشراط الحكيم يكره الوطأ مدة عمره ، يعتد بذلك أنه  
مُهرمٌ للجسم ومُسرعٌ إلى الفناء ، قد قيل إن فاعل ذلك مُقتبسٌ من  
حياته ؛ فمن شاء ، فليقلل ، ومن شاء فليكثر ! ولهذا أرجح الجاحظ  
١٥ في « كتاب الحيوان » بأن الخصى إنما طال عمره من أنه لا يجامع .

وأما أنا أقول إن تلك الساعة التي يستحيل فيها عن الإنسانية بقطعه  
إلى ..... <sup>(٣)</sup> أشد استغراباً ، وأذهب لجوهرية ، وأقطع لثروقه من  
أن لو جامع كل يوم في عمره عشر مرات ؛ لأن المجامع تُخرج

(٢) سورة القصص : ٧ .

(١) سورة النحل : ٦٨ .

(٣) بياض كلمة في الأصل ؛ ولعله : « الحيوانية » .

للفضول ، وهذا خُرُجٌ منه الجَوْهَرُ ، وفُرَّغَتْ عروقه ، ولُبِّتْ لحمه ، وأضعِفَتْ عَصْبُهُ ، وأرَخَتْ جِلْدَتُهُ .

ولمَّا كَبِرَ سِنَّ سُقْرَاطَ ، وَعَلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ بَعْدَ الْكِبَرِ إِلَّا الْمَوْتُ ، جَامَعَ مَرَّةً مِنْ عُمرِهِ ، آخِرَ زَمَانِهِ ، وتَأَوَّلَ فِي ذَلِكَ إِتْمَامًا لِحِكْمَةِ الْبَارِي — عَزَّ وَجَلَّ — ؛ وَقَالَ : « لَمْ تَكُنْ حِكْمَةُ النِّسْلِ إِلَّا بِهَذَا الْقَمَلِ ؛ وَإِنْ أَنَا مُتُّ تَارِكًا لَهُ أَصْلًا ، كُنْتُ كَالسَّاحِطِ أَوِ الْمُعْنَتِ لِمَا رَبَّاهُ الرَّبُّ ، وَعَسَى بِذَلِكَ نَسْتَوْجِبُ عِقَابَهُ ! » ثُمَّ قَالَ ، إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ : « مَا أَظُنُّ عِيًّا عَلَيَّ إِلَّا مُجَامَعَةَ تِلْكَ السَّاعَةِ ! »

وكان من نعمة الله على أن رزقني بكرة أولادى ابنة ، لم يزل قِيلُنَا كُلُّهُ يَتَبَرَّكُ بِهَا ، وَيَكْرَهُ أَنْ يَكُونَ بِكْرُهُ ابْنًا ذَكَرًا . وقد رأينا في سيف الدولة أَيْنَا — رحمه الله — أن لم تتم له فرحته بذلك ؛ على أن هذا\* ليس ٧٨ (ب) على العموم ؛ وإِنَّمَا ذَكَرْنَاهُ لِلتَّأَوُّلِ ، إِذْ قَالَ نَبِيُّنَا — عَلَيْهِ السَّلَامُ — : « تَفَاءَلُوا وَلَا تَطَيَّرُوا ! » فَنَحْنُ قَدْ تَفَاءَلْنَا ، لَا سِيَّامَا شَهْرَ عِنْدَ أَهَالِيْنَا وَقَالُوهُ قَدِيمًا ؛ وَلَوْ كَانَ ضِدَّهُ ، مَا ذَكَرْنَاهُ ، لِلنَّهْيِ عَنْهُ .

١٥ ثُمَّ رَزَقْنَا بَعْدَ هَذَا ابْنَيْنِ ؛ فَلَمْ تُبَشِّرْ بِالْأُنثَيْنِ ، كَتَّى لَا يَجْتَمِعَ عَلَيْنَا حَزَنُ ذَلِكَ مَعَ مَا نَحْنُ فِي سَبِيلِهِ ، لُطْفًا مِنَ الْوَهَّابِ وَإِنْعَامًا وَإِحْسَانًا . فَتَعَدَّادُ رِيعِ اللَّهِ شُكْرًا لَهَا ، وَالْإِعْلَانُ عَلَى وَجْهِ الشُّكْرِ وَالتَّقْوَى ، لَا عَلَى الْفَخْرِ وَالْخَيْلَاءِ ، مِنْ أَوْجَبِ مَا يَأْخُذُ بِهِ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ . قَالَ النَّبِيُّ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — : « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ ، وَلَا فَخْرَ ؛ وَأَنَا أَفْصَحُ الْعَرَبِ ، وَلَا فَخْرَ ! »

## ٩٦ — توجه المؤلف الحديث إلى قراءته ، راضين عنه أو ساخطين عليه

ثم انصرف وجهُ اهْتِبَالِنَا إلى وَضْعِ هذا الكتاب ، وهو تَعْمُرُ بِمَنْزِلَةِ  
الابْنِ الَّذِي يُبْقِي ذِكْرَ أَبِيهِ فِي الْعَالَمِ ، لِنُبَيِّنَ بِهِ عَنْ أَنْفُسِنَا مَا أَشْكَلَ عَلَى  
الْجَاهِلِ مِنْ مَقَالَةٍ سَوَاءٍ [ فِي دَوَلَّةٍ ، ] زَعَمَ الْحَاسِدُونَ أَنَّ مِنْهَا كَانَ سَقُوطُنَا .  
ولن نعلم مع هذا بَرَكَّتْهَا لِمَا نَرْجُوهُ مِنْ ثَوَابِنَا ، وَحَسَنَاتِهِ لِبُعْدِنَا مِنْهَا  
وَنَزَاهَتِنَا عَنْهَا . وَإِنَّمَا وَضَعْنَا هَذَا الْكِتَابَ لِمَنْ أَشْكَلَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ مِنْ أَهْلِ  
الْفَضْلِ وَالْحَقِّ ، الْمُجِبِّينَ <sup>(١)</sup> اللَّهُ فِينَا ، الْوَادِّينَ <sup>(٢)</sup> الْخَيْرَ لَنَا ؛ وَلَا يَزِيدُ  
الْبُغَاةُ إِلَّا طَغْيَانًا وَتَعْنِيَةً .

١٠ قُرْدُ عَلَى أَهْلِ الْإِنصَافِ وَضَوْى الْأَلْيَابِ :

« إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الْخَاطَبُونَ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ! فَعَلَيْكُمْ اعْتِمَادُنَا ، وَإِنَّا كُمْ  
خَاطِبُونَ ، وَلَكُمْ مَا تَكَلَّفْنَا ! فَلَا عَمِيَّ بَكُمْ عَنِ الْمَعْرِفَةِ تَحِيدُكُمْ عَنِ الْمِنْهَاجِ ؛  
وَلَا شَتَانَ لِرَبِّهِ سَلَفَتْ تُحَرِّقُكُمْ إِلَى نَفْثَاتِ الْخَافِدِينَ ! وَاللَّهُ يَجْعَلُنَا فِي الْجَنَّةِ  
إِنْخَوَانًا ، كَمَا جَعَلَنَا عَلَى الْخَيْرِ أَعْوَانًا ! »

١٥ وَفَرْدُ عَلَى مَنْ اعْتَرَضَ جَهْلًا أَوْ حَقْدًا :

« اخْصَأْ بِجَهْلِكَ ، وَمُتْ بِغَيْظِكَ ! فَلَيْسَتْ الْأَقْدَارُ جَارِيَةً عَلَى  
اخْتِيَارِكَ ، وَلَا أَنْتَ الْمُخَاطَبُ ! بَلْ تَأْخُذُ بِأَدَبِ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ — عَلَيْهِ  
السَّلَامُ — فِي قَوْلِهِ <sup>(٣)</sup> : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ  
السُّلُوءِ ﴾ .

(٢) أصل : « الْوَادُونَ » .

(١) أصل : « الْمُجِبُّونَ » .

(٣) سورة الْأَعْرَافِ : ١٩٩ .

الجاهِلين . وهل تنعم ، أيها الطاعن لنا ، أن ورثنا مُلكاً عن آباء  
 كرام ، يَوْمٌ منه خَيْرٌ من عُمرِكَ كُلِّهِ ؟ إذ قالت \* العَلَماءُ إِنَّهُ من عاش (١) ٧٩  
 ذا فَضْلٍ على نفسه وأصحابه ، فهو ، وإن قَصَرَ عُمرُهُ ، طويلُ العُمُرِ ،  
 مع أَنَّهُ كان في طاعةٍ لم تُوصَفْ مَقْلَمًا ، بحمد الله ، بجورٍ ولا ظُنيانٍ ،  
 ٥ ولا سَفَكنا دَمًا ، ولا غَضَبنا مالاً . وكانت مُدَّتُنا فيه نحو من عشرين  
 عامًا خَيْرًا من سِنين ، إذ كَيْلَةُ القَدَرِ خَيْرٌ من ألفِ شهرٍ . وتَمَامُ اللدِّ  
 على قديم الدهر عادةٌ لا تُسْتَعْرَبُ لنا خاصَّةً . ولا بُدُّ من الفراقِ ! فَلَلهُ الحمدُ  
 إذ لم نَفْقدها بِفَقْدِ عقولنا ولا أدياننا ، ولا نَمُتْ بِفَقْدِ أعمارنا : فيَوْمٌ من عُمرِ  
 الإنسانِ يذكرُ الله فيه خَيْرٌ من تمامِ عَمَلِهِ ؛ وَمِيتَةٌ على بلاءٍ وتذكُّرٍ  
 ٥ خَيْرٌ من مِيتَةٍ على فِتْنَةٍ غَفَلَةٍ .

٩٧ - يدفع المؤلف عن نفسه ما عسى أن يؤخذ عليه  
 من أخطاء حياته الخاصة .

نَمْ أَضْرَبْتُ عن وَصْفِ كُلِّ جَمِيلٍ قَظَناهُ ، وَحَزَمْتُ اسْتِشْقَرْنَاهُ ،  
 وَخِدْمَةُ لِلدَّوْلَةِ تَكَلَّفْنَاهَا .

١٥ وَطَلَبْتُ بُنْيَاتِ الطريق ، وَتَنَبَّعْتُ ما لا عارَ فيه على اللئيم . ولا قَصَصَنا  
 في المملَكة ، من راحةٍ تُخْتَلَسُ عند الفراغ من الشغل كي تعقب نشاطًا ،  
 وَعَمَّا دُفِعْنَا إليه تَسْلِيَةً . قد قالت الحكماء : « تَرَكَ الذَّاتَ يُعْقِبُ  
 البرَدَّةَ ، ويؤثر في الحِلْدِ أدواءُ مُنْكَرَةٍ . وقيل : إذا لم يكن للمرء  
 على البقاء مَقْدُرةٌ ، فَلْيَتَمَتَّعْ ؛ فَإِنْ تَرَكَ ذَلِكَ للنفس .

٢٠ فَهَجَّجْنَا بِلَفْظِكَ ، وَأَخْرَجْنَا من حَيْزِ المَزَلِ إلى الجِدِّ ، وَكُنْتَ كَجَارِ

سُبَّة : إن رأى حسنة ، كَتَمَهَا ؛ وإن رأى سيئة ، أذاعَهَا . فطَفَفَتْ  
وَأَرْبَبَتْ . إنْ افْتَرَيْتَ ، وما أدَعَتْ هذا ، وأنت تعلم أنه لم أكن مخلوع  
العدار ، ولا أخلدتُ إلى راحة توجب الغفلة ، كالذي صنَعَ من كان قبلنا  
من الملوك ، وتَعَفَّفْنَا عن الدماء والأموال والحرم !

• ولم يَتَّقَ لك ما تقول : « إِنْما كان صاحبُ غَرْناطة حريصاً على جمع  
المال ، مُحِبّاً في الحِسان ، يُنادِم الصبيان ! » [ وإناً ] لم تُحَسِّن الروية ،  
ولا ظَنَنْتُهُ فكراً .

- أَلَسْتَ تعلم ، أيُّها الجاهل ، أنَّ الملكَ لا يَنْفَعُ من المال إلا بما كان  
أوقاراً ؟ وهل استوجب الملكُ إلا بذلك ؟ وكيف لا يحرص على صيانة  
عِزِّه والعُدَّةِ على علوه ؟ ما أنسأك لو عَلِمْتَ أنه مَنَعَ من حقِّ أو أعطى  
١٠ في غَيْرِ ما يجب ؟ هَلْ مَتَى ضاع مَقِيلٌ ، أو رفضَ جُنْدًا ، ودخلتَ  
داخِلَةً من القنطرة أو للنع ؟ أو مَتَى شكا رجلٌ من المسلمين أنه أخذَ مالا  
بغيرِ حقٍّ ؟ لم تَسْتَطِعْ على تزوير ذلك ! فالأغلبُ يعلمُ صِحَّتَهُ . وأكثَرُ  
من قولك متى خرج من عنده شاعرٌ بصِلَةٍ جَزَلَةٍ ، أو متى خرج [ ماديحٌ ]  
١٥ بكسوةٍ مَنِيَّةٍ : أمرٌ لا يحتاجُ فيه إلى اعتذار ، إذ العملُ به من الأدبار .  
وأما مُنادمة الصبيان ، فإذا لم يكن بُدٌّ من استعمال شيء من الخمر ،  
التي قد تاب الله علينا منها ، فاللُّعَّار والريَّار ؟ ليس هذا بتجسُّسٍ حُكْمٍ :  
فَيُتَخَيَّرُ له ذُوو الأسنان ، ولا وُضِعَ لتدبيرِ رأيٍ ، فيُشاورَ فيه أهلُ العلمِ ،  
ولا مَيِّدانَ حَرْبٍ ، فيُدْعَى إليه أَمْجادُ القُرَّسانِ ! ولكُلِّ وقتٍ حُكْمٌ :  
٢٠ من استعمل فيه غَيْرَ شاكِلَتِهِ ، قد جهَلَ . ولم نَكُنْ مع هذا نأخذُ معهم  
في جِدِّ ، ولا نُمَكِّنُهُم من أمرٍ ، ولا نُنْهَضُهُم إلى غَيْرِ طَرِيقَتِهِمْ ؟

والمُسْتَعْمَلُونَ لِخِدْمَةِ البَوَلَةِ مَشْهُورُونَ ؛ مِمَّنْ لَهُ حُسْكَةٌ وَدَرَبَةٌ :  
والخَدِيمُ لَا يَكُونُ نَدِيمًا : كَيْفَ تَصُولُ الْيَوْمَ عَلَى مَنْ أَطْلَعَ عَلَى عَوْرَاتِكَ  
الْبَارِحَةَ ، إِذِ الشُّكْرُ عَوْرَةٌ ؟ أَمْ كَيْفَ تَأْمُرُ بِخِدْمَةِ الْجُنْدِيَّةِ وَالشَّدَقَةِ عَلَيْهِ  
فِي الْخُرُوجِ مَنْ تَعَاطَى مَعَكَ الْكَأْسَ ، وَكَثُرَ مَعَكَ الزَّاحُ وَالْعَرَبْدَةُ ؟ ثُمَّ  
تَطْلُبُهُ لَخِدْمَتِكَ ، فَتَجِدُهُ عَشُولًا عَمَّا يَصْلُحُكَ مَشْغُولًا .

- وَبَقِيَ هَذَا كُلُّهُ ، فَإِنَّ الدُّوَلَ الْكِبَارَ لَمْ يَزَلْ فِيهَا الْفِلْمَانُ وَأَبْنَاءُ  
الصَّنَائِعِ صِغَارًا وَكِبَارًا ، عَبِيدًا وَأَحْرَارًا ، وَهُمْ بَيْنَ يَدَيِ الرَّئِيسِ بَجَالٍ ،  
وَعَلَى خِدْمَتِهِ أَعْوَانٌ ؛ وَتَصَرَّفَ الصَّغِيرُ السَّنَّ فِيمَا لَا يَنْبَغِي لِلْمُسْنِ أَنْ  
يَتَوَلَّاهُ . وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ وَرُتَبَةٍ . وَهَلِ الْمُلْكُ وَالْمَالُ إِلَّا لِلتَّزِينِ وَالتَّجَمُّلِ  
بِهِ ، وَاتِّخَاذُ الْحِصَانِ مِنْهُمْ تَلِيقٌ بِهِمُ الْكِسْوَةُ السَّنِيَّةُ وَالرَّارِكَبُ الْفَارِهَةُ ؟  
وَأَخُوكَ مِنْ وَاتَّأَكَ ، إِذْ يَتَعَبَّدُ بِمَالِكَ مِنْ شَتَّى يَتَعَبَّدُ [ خِدْمَتِكَ مِنْ ]  
حُرٍّ أَوْ مَمْلُوكٍ . وَإِنَّ ابْنَ الْإِنْسَانِ ، إِذَا لَمْ يَصْلُحْ لَهُ . . . . . إِنْ يَقُلْ  
هَذَا ، أَيْ عَمَلٍ وَلَيْسَ لَهُ عَلَى بَلَدِهِ ، أَوْ صَرَفْنَا إِلَيْهِ حُكْمَ رَعِيَّةٍ ؟ إِلَّا  
مَا وَصَفْنَاهُ ، لَا أَدْرِي غَيْرُهُ \* وَإِلَّا . . . . . فَكُونَ مُجْرِحًا ، وَلِإِشَارَتِكَ ٨٠ (١)  
عَاضِدًا ، أَوْ تَكُونَ قَاضِيًا مُسْتَوْجِبًا (١) !

جَعَلَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ عَنِ الشَّرِّ مُعْرِضِينَ ، وَبَطَاعَتِهِ عَامِلِينَ ! إِنَّهُ أَكْرَمُ  
الْأَكْرَمِينَ ! لَا رَبَّ غَيْرَهُ ، وَلَا إِلَهَ حَقَّ حَاشَا !

كل الكتاب . والحمد لله . وصلى الله على  
سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً

## الملحق الأول

مُتَخَبَات عَنْ « كِتَابِ الْبَيَانِ الْمَغْرِبِ »<sup>(١)</sup>

لَا بَنَ عِذَارِي الْمَرَاكُشِيَّ

عَنْ دَوْلَةِ الْأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُبْلَقِينَ بْنِ زِيرِي

( ١ )

وفي سنة ٤٦٥ ، كانت وفاة باديس بن حبّوس على قول المرّادى .  
والأكثر على أنّ وفاته كانت ٤٦٩ ؛ هكذا ذكر ابن القطّان في « نَظْمِ  
الْجُمَانِ » .

### ذكر يعة حفيد باديس بن حبّوس

هو عبد الله بن مُبْلَقِينَ المالك بتدبير اليهودى للتقدم ذكره . وتسمّى  
١٠ بالمُظَفَّر بالله ، الناصر لدين الله . وكان غلاماً لم يبلغ الحلم ؛ فاتفق على  
مبايعته ووزّراه جدّه ووجوه صنهاجة . وانفرد بأمره رجلٌ منهم يُعرف  
بسمّاجة ؛ فاستقلّ بحاله ورياسته . وكان لباديس ولّد خلف من البنين ،  
وكان قد أعطاه في حياته مدينة جِيَّان ؛ فكان ينهمك في شرب من الخمر ،  
ويحدّث أحداثاً قبيحة من القتل ؛ وكانت له كلبة سماها لُبُونَة ؛ فن أحدث  
١٥ له حادثاً أو استوجب عقوبةً ، أمر به ، فرُمِيَ إلى الكلبة ، فأكلته .

( ١ ) من مخطوط مكتبة جامع الفرويين بفاس ( رقم ١٨٥٥ ) لم ينشر نصه إلى الآن .



فتفرق الناس عنه وكرهوه ، وانفقوا على تقديم عبد الله بن بُلقين المذكور .  
فقام بأمره سِمْجَةُ خَيْر قِيَام .

وطمع ابن عباد في رجوع تلك الجهة إليه لموت باديس ؛ فحشد من  
كان عنده ، واستكثر من الجند ، وقدم إلى إغَرَنَاطَة ؛ فبرز عليها وبني  
٥ بقرها حِصْنًا على سِتَّة فَراسخ منها ، وملأه بالزُّمَامَة والرجالة ، وترك الخيل  
فيه مع قائده ، وأمرهم بالضرب على إغَرَنَاطَة وجهاتها . فكان ذلك .  
ثم لم يزل سِمْجَةُ يخدم الصبي إلى أن بلغ مبلغ الرجال ؛ فأراد الانفراد  
بجماله ؛ فنفى عن نفسه سِمْجَةَ ؛ فلهق بالمرية بمال كثير وحالة جسيمة ؛  
ولم يزل بها إلى أن هلك . وبقى عبد الله بن بُلقين بغيرناطة . وسيأتي  
١٠ خبره في دولة الرابطين إن شاء الله تعالى .

## ( ٢ )

وفي سنة ٤٨٢ ، طرد عبد الله بن بُلقين من غرناطة مُقَاتِلَ بن عَطِيَّة  
الزَّنَائِي ، وكان فارسَ الإسلام ، وهو مع إخوته في ثلاثمائة فارس . فكان  
ذلك ابتداء نحوس عبد الله بن بُلقين .

١٥ وفيها ، قام مُؤَمِّل ، مولى باديس بن حَبُوس ، في قَصَبَة لَوْشَة ، على  
حفيد موله بدعوة لَمْتُونَة ؛ فأخذه عبد الله وسجنه .

.....

فأول من شهر الخلاف على يوسف بن تاشفين صاحب إغَرَنَاطَة عبد الله  
ابن بُلقين ، كما ذكرونا ؛ فنظر في اختزان الأقوات ، وألحق الزُّمَامَة  
٢٠ والرجال ، وأعلى الأبراج ، وبني الأسوار ، ووصل بعضها ببعض ، وأقام

عليها الدِّيبَانَات ، ونصب الرِّعَادَات ، وملأ بيوت السلاح ، وجدَّ في ضرب  
السَّهام ، وبذل في ذلك جهده ؛ وإذا نفدت هذه ، لم تكن المُدَّة ؛ ونقل  
المال والذخيرة ، وخرَّج اللُّتاع والآنية إلى قَصَبَةِ النُّكَب لكَوْنِهَا في غاية  
المنعة وعلى ضَفَّة البحر ؛ ولم يستأصل ذلك لكثرتِه ؛ وهدم حصونا ، توهم  
عليه القيام منها ، ومن مَأْمَنِهِ يوتى الخنزِر .

وعمد على مال كثير ، وثياب قبيسة ، ونُحْفَ جليلة ، وأعلاق رفيعة ؛  
فوجه بها إلى الإذْفُونَش ، وكتب إليه مطارحا عليه ، مستجيرا به ، وأعلمه  
أنَّ البلد بلدُه ، وأَنَّه فيه فائدة . فاهتزَّ لذلك إذْفُونَشُ ، وقبل المال  
والهدايا ، وأقسم بجميع أيمانه ومعتقد مَائَتِه أن يشدَّ اليد عليه في ملكه ،  
ولا يتركه لضَيِّمٍ ولا هُضِيمةٍ ، وأن ينهض إليه بنفسه ويبذل جدَّه في نصره ؛  
وراجعه بمثل ذلك من قوله . فقويت قسُ حفيد باديس بذلك .

وفي ذلك يقول السَّمْسَارِيُّ :

صَاحِبُ غَرَنَاطَةِ سَقِيَّةٍ وَأَعْلَمُ النَّاسِ بِالْأُمُورِ  
صَانِعُ إِذْفُونَشٍ وَالنَّصَارِيِّ فَانْظُرْ إِلَى رَأْيِهِ الدَّيْرِ  
وشاد بنيانه خِلَافًا لِعِلَاقَةِ اللَّهِ وَالْأَمِيرِ  
يَبْنِي عَلَى نَفْسِهِ سَفَاهًا كَأَنَّهُ دَوْدَةُ الْحَرِيرِ  
دَعَاؤُهُ يَبْنِي فَسَوْفَ يَدْرِي إِذَا أَتَتْ قُدْرَةُ الْقَدِيرِ

١٥

وَاتَّصَلَتْ أُنْبَاؤُهُ بِأَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى حَقِيقَتِهَا ؛ فَاشْتَدَّ غَضَبُهُ ؛ وَاسْتَزَادَ

جزعه .

٢٠ وكان أبو جعفر القُلَيْبِيُّ من أهل إغَرَنَاطَةِ فريد عصره في الخير والعلم

والتلاوة ، والمُشَارَ إليه . . . . .

## الملحق الثاني

متنجات عن « كتاب الإحاطة في تأريخ غرناطة »  
للسان الدين ابن الخطيب السلماني

( ١ )

ترجمة عبد الله بن بُلُقَيْن<sup>(١)</sup>

٥ عبد الله بن بُلُقَيْن بن باديس بن حَبُوس بن ما كَسَن بن زِيْرِي بن  
مَنَاد الصَّنْهَاجِي أمير غرناطة .

أُولَيْتُهُ : قد مرَّ ذلك في اسم جدِّه ما فيه كفاية<sup>(٢)</sup> .

حاله : لقبه المظفر بالله ، الناصر لدين الله . ولى بعد جدِّه الحاجب

المظفر بالله في شوال سنة ٤٦٥ . وصحبه سِمْجَاة الصَّنْهَاجِي تسع سنين .

١٠ ﴿ قال التافيسي ﴾ : وكان قد حاز حظاً وافراً من البلاغة والمعرفة ،

شاعراً جيِّدَ الشعر ، مطبوعه ، حسن الخط ؛ كانت بغرناطة ربعة مُصَحِّف

بخطه في نهاية الصنعة والإتقان .

﴿ ووصفه ابنُ الصِّيرَفِي ﴾ فقال : ﴿ كان جباناً ، مغمداً السيف ،

---

( ١ ) مخطوطة الاسكوريال ( رقم ١٦٧٣ ) ، ص ٢١٤ .

( ٢ ) راجع « مركز الإحاطة » ( ط القاهرة ) ج ١ ، ص ٢٣٨ : ترجمة الأمير باديس بن

حبوس الصَّنْهَاجِي .

قلعاً ، لا يثبت على الظهر ، عزهاة ، لا أرب له في النساء ، هياة ،  
مفرط الجزع ، يخلد إلى الراحة ، ويستوزر الأغمار .

خلعه : ( قال : ) وفي عام ٤٨٣ ، تحرك أمير المسلمين يوسف بن  
تاشفين لخلع رؤساء الأندلس ؛ فأجاز البحر وييم قرطبة . وتواترت الأنباء  
على حفيد باديس صاحب غرناطة بما يفيظه ويحمده ، حسباً تقدم<sup>(١)</sup> في  
اسم مؤمل مولى باديس . وقدم إلى غرناطة أربع محلات ؛ فنزلت بمقربة  
منها ، ولم تمتد يد إلى شيء بوجه ؛ فسر الناس واستبشروا ، وأمنت  
البادية ، وتسايك أهل الحاضرة إلى القرى . وأسرع حفيد باديس في  
المال ، وألحق السوق والمحاكة ، واستكثر من اللقيف ، وألح بالكتف  
على إذفونش بما يطعمه .

وتحقق يوسف بن تاشفين استشراف الحضرة إلى مقدمه ؛ فتحرك .  
وفي ليلة الأحد ثلاث عشرة خلت من رجب ، اجتمع إلى حفيد باديس  
صنائه ؛ فخوفوه من عاقبة التربص ، وحملوه على الخروج إليه . فركب ،  
وركبت أمه ، وخرجا ؛ وتركا القصر على حاله ؛ ولقي أمير المسلمين على  
فرسخين من المدينة ، فترجل وسأله العفو ؛ فعفا عنه ووقف عليه ، وأمره  
بالركوب ؛ فركب وأقبل حتى نزل بالمشيحة<sup>(٢)</sup> من خارج الحضرة .  
واضطربت المحلات ، وأمر مؤملاً بثقاف القصر ، فتولى ذلك .  
وخرج الجي من أهل المدينة ؛ فبايعوا أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ؛

(١) راجع أسفله ، ص ٢١٢ .

(٢) اسم مكان من خارج غرناطة لم نعر عليه . وإنما ثبتناه عن النسخة الثانية الامكوريالية من  
« الإحاطة » . وفي النسخة الأولى : « بالمشانح » .

قبلهم وأنسهم وسكن جانبهم ؛ فاطمأنوا . وسهل مؤمل إليه دخول  
الأعيان ؛ فأمر بكتب الصكوك ورفع أنواع القبالات والخراج ، إلا زكاة  
العين وصدقة الماشية وعشر الزرع . واستقصى ما كان بالقصر ؛ فظهر على  
ما يحول الناظر ، ويروع الخاطر ، من الأغلاق والدخيرة والحلى ، ونفيس  
الجواهر ، وأحجار الياقوت ، وقصب الزمرّد ، وآنية الذهب والفضة ،  
وأطباق البلّور الحكم ، والجرجانيّات ، والعراقيّات ، والثياب الرقيقة ،  
والأنماط ، والكال ، والسنائر ، وأوطنة الديباج ، ممّا كان في ادخار  
باديس واكتسابه . وأقبلت دوابّ الظهر من المنكب بأحمال السيّك  
والمسبوك . واختلفت أمّ عبد الله لاستخراج ما أودع بطن الأرض ،  
حتى لم يبق إلا الخردى والنقل والسقط ، وزرع تلك الأمير على قواده ، ولم  
يستأثر منه بشيء .

﴿ قال ﴾ : ورغب إليه مؤمل في دخول القصر ؛ فركب إليه ، وكثُر  
استحسانه إيّاه ، وأمر بحفظه وتقدّ أوضاعه وأمنيّته .

ونُقِلَ عبدُ الله إلى مرّاكش ، وسنه يوم خُلع خمس وثلاثون سنة وسبعة  
أشهر ؛ فاستقرّ بها هو وأخوه تميم ؛ وحلّ اعتقأهما ، ورثتهُ عنهما ؛  
وأجروا للرّكب والمساهمة عليهما . وأحسن عبد الله أداء الطاعة ، مع لين  
الكلمة ؛ فضيّبت مآربه ، وأسعفت رغبته ، وخفّ على الدولة ؛ فاستراح  
واستريح معه . ورزق الولد في المحول ؛ فعاش له ابنان وبنت جمع لهم  
للال ، فلما توفّي ترك لهم مالا جماً .

مولده : وُلد عبد الله سنة ٤٤٧ .

## ( ٢ )

## ترجمة مقاتل بن عطيّة (١)

مُقاتِل بن عَطِيَّة البرزالي ، يكنى أبا حَرْب . قال فيه أبو القاسم الغافقي (٢) : من أهل غرناطة ، ويُلقَّب بذي الوزارتين ؛ وتعرف بالرُّبْيه لحرقة كانت في وجهه .

حَالُهُ : كان من الفرسان الشجعان ، لا يصطلي نباره ؛ وكان معه من قومه نحو من ثلاثمائة فارس من بني برزّال . ولأه الأمير عبدالله بن بُلقين ابن باديس مدينة اليُسّانة ، والتقى به ابن عبّاد وأخذ بمخفئها . وكان عبدالله يحزره . وعندما تحقق حركة الممتونيين إليه ، صرفه عن جهته ؛ فقلّ لذلك قاصره ، وأسرع ذهاب أمره :

شجاعته : قال (٣) : وحضر مُقاتِل مع عبدالله بن بُلقين أمير غرناطة وقبة النّيبِل في صِدر سنة ٤٧٨ ؛ فأبلى فيها بلاءً عظيماً ، وجرح وجهه وخرق درعهُ بالطن والضرب . وذكر من حضرها ونجا منها ، قال : كنتُ قد سقطت الرمح من يدي ولم أشعر ، وحملت الترس ولم أعلم به ، وحلني الله إلى طريق منجاة ، فركبتها مرّةً أقعُ ومرّةً أقومُ ؛ فأدركتُ فارساً على فرس أدم ، ورمحه على عاتقه ، ودرقته على فخذه ، ودرعهُ مهتكةً بالطن ، وبه جرحٌ في وجهه يشعّب دماً تحت مِنقره ، وهو مع ذلك ينهض على رسله ، فرجعتُ إلى نفسي ؛ فوجدتُ قتلاً ؛ فتذكّرتُ الترس ؛ فأخرجتُ حالته عن عاتقي

(١) مخطوطة الاسكوريال (رقم ١٦٧٣) ، ص ١٨٨ .

وَأَلْقَيْتُهُ عَنِّي ؛ فَوَجِدْتُ خَفَّةً وَعُدْتُ إِلَى الْمَدْوِّ ؛ فَصَاحَ ذَلِكَ الْفَارَسُ : خُذِ  
 الترس ! « قلتُ : « لاحتاجة لي به ! » فقال : « خُذْهُ ! » فتركته ووايتُ  
 مسرعاً ؛ فهمز فرسه ووضع سنانَ رِجْله بين كتفَيَّ وقال : « خُذِ الترس ،  
 وإلاَّ أخرجته بين كتفَيْكَ في صدرك ! » فرأيتُ الموت الذي قَرَرْتُ منه ،  
 ورجعت إلى الترس ؛ فَأَخَذْتُهُ ، وَأَنَا أَدْعُو عَلَيْهِ ، وَأَسْرَعْتُ عَدْوًا . فقال  
 لي : « على ما كنتَ فليكن عدوك ! » فاستعذتُ وقلتُ : « ما بينه الله  
 إلاَّ هلاكِي ! » وإذا قطعة من خيل الروم قد بصرت به ؛ فوقع في نفسه أنه  
 يسرع الجَرَى فيسلم وأُقْتِلَ ، فلما ضاق الطلق ما بينه وبين أقربهم منه ، عطف  
 عليه كاللقاب وطعنه ووطره ، وتخلص الرمح منه ، ثمَّ حمل على آخر ، فطعنه  
 ومال على الثالث ، فانهزم منه ، فرجع إلىَّ ، وقد هبتُ من فعله ، ورشاش  
 دم الجرح يتطاير من قِنَاعِ الْفِغْرِ لشدَّةِ نفسه ، وقال لي : « يا فاعل ! يا صانع !  
 أتلقى الرمح ، وممك مُقَاتِلُ الرُّيَّةِ ؟ »

## ( ٣ )

ترجمة مُؤَمِّل<sup>(١)</sup>

مُؤَمِّل ، مولى باديس بن حَبُوس .  
 حاله وَحِجَّتُهُ : ﴿ قال ابن الصِّيرِيّ ﴾ وقد ذكر عبدَ الله بن بُلْقَيْن  
 حفيدَ باديس ، واستشارته في أمره لما بلغه حركة يوسف بن تاشفين إلى  
 خَلْمِهِ : وكان في الجملة من أحبابه رجلٌ من عبيد جدِّه اسمه مُؤَمِّل ، وله  
 سنٌ ، وعنده دهان وفطنة ورأى ونظر .

( ١ ) مخطوطة الاسكوريال ( رقم ١٦٧٣ ) ، ص ١٩٨ - ١٩٩ .

﴿ قال في موضع آخر ﴾ : ولم يكن في وزراء مملكته وأجباء دولته أصيلُ الرأي جَزَلُ الكلمة إلا ابن أبي خَيْثَمَة من كتبه ، ومؤمل من عبيد جدّه ، وجعفر من فتيانه .

﴿ رجع . قال ﴾ : فألطف له مؤمل في القول ، وأعلمه برفقٍ وحُسن أدبٍ أن ذلك غير صواب . وأشار إليه بالخروج إلى أمير المسلمين ، إذا قَرَّبَ ، والتطارح عليه ؛ فإنه لا يمكنه مدافعة ولا إطلاق حربته ، والاستخذاء له أحد عاقبة وأيمنُ مغبة . وتابعه على ذلك نظراؤه من أهل السنِّ والحكمة ، ودافع في صدر رأيه الفلة الأعمار ؛ فاستشاط غيظاً على مؤمل ومن نحا نحوه ، وهمّ بهم . فخرجوا ، وقد سبل بهم فرقاً منه . فلما جنَّهم الليلُ ، فرّوا إلى كوشة ، وبها من أبناء عبيد باديس فائدها ؛ فلكوها وثاروا فيها بدعوة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين .

وبادر مؤمل بخطاب يوسف المذكور ؛ وقد كان سفر إليه عن سلطانه ؛ فأعجبه عقلاً ونبلاً ؛ فاهتزَّ إليه ؛ وكان أقوى الأسباب على حركته . وبادر حفيد باديس لأمره ؛ فأشخص الجيش لنظر صهره ؛ فغلب عليهم . وسبق مؤمل ومن كان معه شرَّ سوق في الحديد ، قد أركبوا على دوابِّ هجن ، وكشفت رؤوسهم ؛ وأردف وراء كلِّ رجل من يصفعه . وتقدّم الأمر في نصب الجنود وإحضار الرماة . ونلطفَ جعفر في أمرهم وقال للأمير عبد الله : « إن قتلهم الآن ، أطقأت غضبك وأذهبت مالك ؛ فاستخرج المال ، وأنت من وراء الانتقام » ففقههم . وأطعموا في أنفسهم ريثما شغله الهول . وأنفذ يوسف بن تاشفين في حلِّ اعتقالهم ؛ فلم تَسعهُ مخالفته . فأطلقهم . ولما ملك غرناطة على تفتية تلك الحال ، قدّم مؤملاً على



مُسْتَخْلَصَه ، وجعل بيده مفاتيح قصره ؛ فقال ما شاء من مال وحظوة ، واقتنى ما أراد من صاميتٍ وذخيرةٍ . ونُسبت إليه بغرناطة آثار ، منها السقاية بياض الفخارين ، والخور المروقة بخور مؤمل . أدركتها ، وهي بحالها .

وفاته : ﴿ قال ابن الصيرفي ﴾ : وفي ربيع الأول من هذا العام ، وهو عام ٤٩٢ ، توفي بغرناطة مؤمل ، مولى باديس بن حبوس ، عبد أمير المسلمين وجابي مُسْتَخْلَصَه . وكان له دهاء وصبر ؛ ولم يكن بقارى ولا كاتب ؛ رزقه الله عند أمير المسلمين أيام حياته منزلةً لطيفةً ودرجةً رفيعةً . ولا أشرف على النية ، أحضر ما كان عنده من مال المُسْتَخْلَص ، وأشهد الحاضرين على دفعه إلى من استوثقه على حمله ؛ ثم أبرأ جميع عماله وكتابه ، وأنفذ رجالاً من صناعته إلى أمير المسلمين بحملةٍ من مال نفسه ، يُريه أن ذلك جميع ما اكتسبه في دولته أيام خدمته ، وأن بيت المال أولى به ؛ وورغب في ستر أهله وولده . فلما وصل ذلك إليه ، أظهر الأسف عليه ، وأمضى تقديم صنيعته .

نمّ ذكر ما كشف البحث عنه من محتججه ، وشقاء من خلفه بسببه ، وعدّد مالا وذخيرةً .

## فهرس أسماء الرجال

٧١ ، ٨٢ ، ٩٠ ، ١٠٧ ، ١١٧ ،

١١٨ ، ١٣٠ ، ١٦٩ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ،

٢١٠

باديس بن المنصور (أمير إفريقية) ٢٤

باديس بن واري ١٤٦

باطر (بطر) شولش ٦٩ ، ٧٤

ابن البراء ١٣٧

بزلف (والي السوس) ١٦٣

بقراط ١٨٥

ابن بكر ١٧٠

أبو بكر بن مسكن ١١٨ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ،

١٥٧

بلبار الصنهاجي ٨٧

بلقين بن باديس سيف اللولة (والد عبد الله

المؤلف) ١٣ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٥ ،

٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ،

١٩٩

بلقين بن حبوس ٢٣ ، ٣٥

بلقين بن زاي بن زيري ٢٤

- ث -

ابن ياقنوت ٩٦ ، ٩٧

تيم بن بلقين بن باديس المعز (آخر عبد الله

المؤلف) ٤١ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٩٠ ،

٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠٢ ،

١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٦ ،

١٦٢ ، ١٦٣

- ج -

الجاسط ١٩٨

- ا -

أبو إبراهيم اليهودي (ابن نفالة) ٣٠ ،

٣١ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٧ ،

ولد أبي إبراهيم اليهودي ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ،

٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٦ ،

٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ،

٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٦٦ ، ٦٧ ،

٨٨ ، ١٣٣ ، ٢٠٥ ،

ابن الأحسن السجلماسي ١٠٢ ، ١٧٢

ابن الأحمر ١٤٥

أبو الأحوص بن صاحب (صاحب المرية)

٤٤ ، ٤٥

أختا عبد الله المؤلف ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٤

الإذفونش ٢٠٧ ، ٢٠٩ . وانظر « ألفونش »

ابن أرقم ٥١ ، ٥٢

ابن الأصبحي ٩٧

ابن أسحى الكاتب ٦٣ ، ٦٠

إفلاطون ٨

أبرهانش ١٢٣ ، ١٢٤

ألفونش السادس ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ،

٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٠ ،

٨٤ ، ٩١ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ،

١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١١١ ، ١١٢ ،

١١٣ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ،

١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ،

١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ،

- ب -

باديس بن حبوس المظفر (جد عبد الله) ١١ ،

١٢ ، ١٣ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٦٨ ،

جالينوس ١٨٦ ، ١٩٣

جعفر الحصى ١٥١ ، ٢١٣

ابن أبي جوش ٨٦

## - ح -

حبوب بن ماكسن ( أمير غرناطة ) ١٧ ،

١٩ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ،

٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٧

الحجاج ١٩٢

ابن الحديدي ٧٧

ابن الحسن النباهي ( قاضي مالقة ) ٦٤

الحكم المستنصر بالله ١٥

## - خ -

ابن الخياط المنجم ٧٨

ابن أبي خيشمة ١٥٨ ، ٢١٣

## - د -

داود بن عائشة ١٠٣

## - ذ -

ابن ذي النون ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٢ ، ٦٧ ،

٦٩ ، ٧١ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨

## - ر -

الرازي ( ابن المعتمد بن عباد ) ١٠٣ ، ١٠٨

١١٢ ، ١٧١

أبو الربيع بن الماطوف ٤٨ ، ١٣٠

أبو الربيع النصراني ٦٦ ، ٦٨

الرشيدي ( هارون ) ١٨٤

الرشيدي ( ابن المعتمد بن عباد ) ٨١

ابن رشيق ٨٠ ، ٨١ ، ١٠٨ ، ١١٠ ،

١١١ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١٢١ ، ١٢٢

١٤٤ ، ١٧٣ ، ١٧٤

الرومي أو النصراني = ألفونس السادس

الريه ( لقب مقاتل بن علية البرزالي ) ٢١١ ،

٢١٢

ابن الريولة ٧٧ ، ٧٨

## - ز -

زاوي بن زيري ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ ،

٢٤ ، ٢٥

زاوي الصنهاجي ٨٧

زهير ( صاحب المرية ) ٣٤ ، ٣٥

ابن الزيتوني القروي ١٥٨

## - س -

سراج الدولة ٨١

ابن سعدون ١٤٩ ، ١٥٥

ابن السقاء ٤٥

سقراط ٨ ، ١٩٨ ، ١٩٩

ابن سلمون ١١٧

سماجة الصنهاجي ٧٦ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ،

٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٥ ، ٩٦ ،

١٤١ ، ١٧٩ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨

السمساري ٢٠٧

ابن سهل ( القاضي ) ١١٥ ، ١١٨ ، ١٤٦

السيد للريق ١٧٥

سير ( الأمير المرابطي ) ١١٠ ، ١٦٠ ،

١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٤

سيف الدولة = بلقين بن باديس ولقد عبد الله

ابن سيق ١٣٢

## - ش -

شلالند ٧٣

## - ص -

الصحراني ( أبو بكر حم يوسف بن تاشفين )

١٧١

## -ق-

القادر (حفيد ابن ذي النون) ٧٧ ، ٨٠ ،  
 ١٥٣ ، ١٧٣ .  
 ولد القاضي (صاحب باغ) ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦  
 قروور ١١٠ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ،  
 ١١٦ ، ١٤٨ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ،  
 ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٨ ،  
 ١٧١ ، ١٧٣  
 ابن القطان ٢٠٥  
 ابن القليجي أبو جعفر ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ،  
 ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ،  
 ١٢٧ ، ١٢٨ ، ٢٠٧

## -ك-

كباب بن تميم ٧٥ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٥ ،  
 ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٠

## -ل-

ليب الخصى ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ،  
 ١٥١  
 لغة الخادم ١٥٨  
 ابن أبي لولا ١٣١

## -م-

ابن ما شاء الله ١٤٧  
 ماكن بن باديس بن حبيش ٤٠ ، ٤٨ ،  
 ٤٩ ، ٥٥ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٥ ،  
 ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٦ ، ٩٤ ،  
 ٢٠٥ ، ٢٠٦  
 المأمون بن المعتد ١٧٠  
 المتوكل بن الأقطس ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٦٥ ،  
 ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ،  
 ١٧٤ ، ١٧٦  
 مجاهد (صاحب دالية) ٤٤ ، ٤٥

ابن صادق = أبو الأحوص والمعتصم صاحب  
 المرية .

أبو الصمصام ١٧١

ابن الصيرفي ٢٠٨ ، ٢١٢ ، ٢١٤

## -ح-

عباد (المعتضد بن عباد) ٤٣ ، ٤٦ ، ٥٨ ،  
 ٥٩  
 عباد بن المعتد ٧١  
 العباس بن المتوكل بن الأقطس ١٧٤  
 أبو العباس الحكيم ١٣٢  
 أبو العباس (كاتب حبش) ٢٧ ، ٢٨ ،  
 ٣٠

ولد أبو العباس ٣٠ ، ٣١

ولد عباس (كاتب زهير) ٣٤ ، ٣٥

عبد الله بن القروي ٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ،  
 ٤٠ ، ٤٢ ، ٥٩

عبد الملك (القاضي) ١٠٢

أم العلوي (بنت عم ماكن) ٦٧ ، ٦٨

علي بن أبي طالب ١٨٣

علي بن القروي ٢٣ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ،  
 ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٢

ابن عمار ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٥ ،

٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ،

٩٦

عمر بن عبد العزيز ١١

## -غ-

الغافقي (أبو القاسم) ٢٠٨ ، ٢١١

## -ف-

فرقان ٢٨ ، ٣٢

الفضل بن المتوكل بن الأقطس ١٧٤

٤٥ ، ٤٤  
 المنصور بن المتوكل بن الأنطس ١٧٢ ،  
 ١٧٣ ، ١٧٤  
 المؤمن بن هود ٧٨ ، ٧٩  
 موسى ٨  
 موفق (صاحب المدينة) ٣٧  
 مؤهل ١١٧ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ،  
 ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٤ ، ١٤٨  
 ١٥٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٢  
 ٢١٣ ، ٢١٤  
 ابن ميمون (أمين عهد اليسانة) ١٣٠ ، ١٣١  
 ١٣٢

— ن —

الناية ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ،  
 ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤  
 ٦٥ ، ٧٠ ، ١٣٣  
 نعمان ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٤ ، ١٤٨

— ه —

هشام المؤيد ١٥

— و —

واصل الطنج ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٨  
 والدة المؤلف ٩٤ ، ٩٥ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ،  
 ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ٢١٠

— ي —

يحيى بن يفران ٥٣ ، ٥٧ ، ٥٨ ،  
 يدوير بن حسانة بن ماسكن ٢٧ ، ٢٨ ،  
 ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤  
 أين يعيش ٦٤  
 أين يكون ١٤٥  
 يوسف بن تافعين أمير المسلمين ١٠٢ ، ١٠٣ ،

ولد مجاهد ٦٢ ، ٧٨  
 مخلوف بن ملوك ٥٨  
 المرادى ٢٠٥  
 المرتضى ٢٠ ، ٢٢ ، ٣٥  
 ابن مرتين ٧١  
 ابن المرة ١٣٠ ، ١٣٢  
 المستعين بن هود ٧٨  
 مسكن بن حبوس المغرالي ٥٣ ، ٥٥ ، ٦٠ ،  
 ٦١ ، ٦٢  
 المظفر (جد عبد الله) = باديس بن حبوس -  
 المستصم بن صادق (صاحب المرية) ٤٥ ،  
 ٤٦ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ،  
 ٥٦ ، ٥٧ ، ٧١ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ،  
 ١٠٤ ، ١٠٩ ، ١١٣ ، ١٤٤ ، ١٦٤  
 ١٦٥ ، ١٦٧  
 المعتضد = صباد  
 المعتضد بن عباد ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٥ ،  
 ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٩١ ،  
 ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠١ ،  
 ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١١ ،  
 ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ،  
 ١٣١ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ،  
 ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩  
 ١٧٠ ، ١٧١ ، ٢٠٦

معد بن يعلى ١٣٩  
 المعز بن باديس (أمير إفريقية) ٢٤ ، ٢٥ ،  
 ٤٣

المعز = نجم بن بلقين بن باديس -  
 معز النولة بن المستصم بن صادق ١٦٧  
 مقاتل بن ضحيلة البرزالي ٢٠٦ ، ٢١١ ، ٢١٢ ،  
 مقاتل بن يحيى ٤٧  
 المقتدر بن هود ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ،  
 ابن ملحان ٧١  
 منلو بن هود ٧٩  
 المنصور بن أبي عامر ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ،  
 المنصور بن أبي عامر (صاحب شرق الأندلس)

۱۷۶ ۱۷۴ ۱۷۲ - ۱۴۳ ۱۳۸	۱۰۸ ۱۰۷ ۱۰۶ ۱۰۵ ۱۰۴
۲۱۳ ۲۱۲ ۲۱۰ ۲۰۹ ۲۰۶	۱۱۴ ۱۱۳ ۱۱۲ ۱۱۱ ۱۱۰
۲۱۴	۱۲۰ ۱۱۹ ۱۱۸ ۱۱۷ ۱۱۵
یوسف بن سراج ۱۴۷ ۱۴۶ ۱۴۰ ۱۳۸	۱۲۹ ۱۲۸ ۱۲۷ ۱۲۲ ۱۲۱

## فهرس أسماء الأمم والقبائل والمائلات

صنهاجة ١٨ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ،	الإفرنج ٤٤ ، ٤٥ ، ٨١
٢٨ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٥٢ ، ٥٤ ،	البربر ١٦ ، ١٨ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٤٥ ،
٥٥ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٧ ،	٦٤ ، ٩٣ ، ١٥٠
٨٥ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ٢٠٥ ،	بنو برزال ٦٢ ، ٦٣
بنو عباد ٤٧ ، ٧٩ ، ١٦٤	بنو ناقناوت ٩٧ ، ٩٨
بنو الوارثي ٧٧	تلكاتة ٢٤ ، ٥٧ ، ٨٧ ، ١٤٦
لخونة ٢٠٦	بنو حمود ٤٤
المرايطون ٤٥ ، ٨١ ، ١٠١ ، ١٠٢ ،	الروم أو النصراني ١٥ ، ١٦ ، ٧٠ ،
١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٦ ، ١٢١ ، ١٢٢ ،	٧٣ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٩ ،
١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ،	١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١١٢ ، ١٢٨ ،
١٣٩ ، ١٤٩ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٦٠ ،	١٢٩ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٤ ، ١٥٢ ،
١٦٨ ، ١٧٥	١٧٤ ، ١٧٥ ، ٢١٢
المغاربة ٦٠ ، ٦١ ، ١١٩ ، ١٥٠ ،	زناقة ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ،
بنو مغيث ٧٧	١٣٧
اليهود ٣٢ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ،	بنو زيري ١٢٨

## فهرس الأعلام الجغرافية

١٦٠٤ ١٥٢٤ ١٠٨٤ ١٠٤	أرجلونة (Archidona) ٩٥٤ ٩١
جلرون (Jotirón) ٩٤٤ ٩٢	إسطة (Estepe) ٧٥
جليقية (Galice) ٧٢	إشبيلية (Sevilla) ١٠٣٤ ١٠٢٤ ٧٥
جيان (Jaén) ١٩٤ ٥٣٤ ٥٥٤ ٦٠٤	١٧٥٤ ١٧٠٤ ١٦٨٤ ١٢٨٤ ١٠٥
٢٠٥٤ ٩٤٤ ٧٦٤ ٦٣٤ ٦١	أشتير ٩١
حماروق ٩٤	حصن آشر (Iznajar) ١٩
الحمرام (Alhambra) ١٣٠٤ ٥٤	إغرناطة = غرناطة
العمة (Alhama) ٩١	آغمات ١٧١
حور مؤيل (بغرناطة) ٢١٤	إلبيرة (Élvira) ٢٠٤ ١٩٤ ١٨٤
دانية (Denia) ٧٩٤ ٧٨٤ ٧٧٤ ٤٥٤	٢٢٤ ٢١
الرملة (La Rambla) ٣٢	أنقيرة (Antequera) ٩٥
رندة (Ronda) ١٧١	أبرش ٩٢
ريه ٩١	باب الفخارين (بغرناطة) ٢١٣
ريشة ٩٤٤ ٩٢	باب فتنالة (بمالقة) ٩٢
الزاوية (La Zuhia) ٢٢	باغه (Priego) ٦٩٤ ٦٦٤ ٦٤٤ ٤٤٤
الزلافة (Sagrajas) ١٠٦٤ ١٠٥٤ ١٠٤٤	بسطة (Baza) ٧١٤ ٥٧٤
سبتة (Ceuta) ١٢٩٤ ١٠٣٤ ١٠٢٤	بطليوس (Badajoz) ١٠٥٤ ١٠٤٤ ٤٠٤
١٦٠٤ ١٤٦٤ ١٤٥٤	١٧٣٤ ١٧٢٤ ١١٥٤ ١١٤٤ ١١٣٤
سرقسطة (Saragossa) ١٢٢٤ ٨١٤ ٨٠٤ ٧٨٤	١٧٤٤
السطح (عمل) ٣٢٤ ٢٢٤	بلنسية (Valencia) ١٥٣٤ ٧٨٤ ٧٧٤
الموس ١٦٣	١٧٥٤ ١٧٣٤
شاط (Jete) ٩٠	بليش (Velillos) ٧٢٤ ٧١٤ ٧٠٤
شربة ١١٣	١٤٨٤ ٧٤٤
شرق الأندلس ١٢٢٤ ٨٠٤ ٦٠٤	بياسة (Baza) ٩٦٤ ٦٣٤ ٦٢٤
شقورة (Segura) ٨١٤ ٨٠٤	تدلس (Dellys) ١٦٨
شليز (Sierra Nevada) ٢٢	تسمير ٧٩
شنت أتلج ٧٢	الجبيل (نظر) ١١٣٤ ٢٢٤
شنت مرية (Santa Maria) ٨٠	جريشة ٩٦٤ ٩٧٤ ٩٨٤ ١٠٤٤
شنيل (Genil) ٢٠	الجزائر (Alger) ١٦٨
شيلس ٧٢٤ ٧١٤	جزيرة الأندلس ١٠٧٤ ١٠١٤
صالحه (Zalia) ٩١	الجزيرة الخضراء (Algeciras) ١٠٣٤ ١٠٢٤



الصحراء (Sahara) ١٥٨

حصنة حبيب ٩٢

حصنة دويس ٩١

طرابلس ٨٩

طليطلة (Tolèdo) ٧٣ ، ٦٥ ، ٦٢ ، ٥٦

١٠١ ، ٨٠

المغرة (Maroc) ١١٨ ، ١٨ ، ١٦

١٦٥ ، ١٦٤ ، ١٣٩ ، ١١٩

الغريزة ٩٤ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٨

غرناطة (Grenade) ٢٤ ، ٢٣ ، ٢٢

٤٧ ، ٤٤ ، ٤٣ ، ٣٩ ، ٣٤ ، ٢٥

٦٣ ، ٦٢ ، ٦٠ ، ٥٩ ، ٥٣ ، ٥٢

٧٥ ، ٧٤ ، ٧٢ ، ٧١ ، ٧٠ ، ٦٩ ، ٦٥

١٢٠ ، ١١٣ ، ١٠٧ ، ٩٢ ، ٨٦

١٣٧ ، ١٣٤ ، ١٢٩ ، ١٢٣ ، ١٢١

١٥٣ ، ١٥٢ ، ١٥١ ، ١٥٠ ، ١٤٩

١٦٨ ، ١٦٥ ، ١٦٤ ، ١٦٢ ، ١٥٦

٢٠٩ ، ٢٠٨ ، ٢٠٦ ، ١٧٠ ، ١٦٩

٢١٤ ، ٢١٣

فحص غرناطة ٢٢ ، ٤٤ ، ٧٠ ، ١٥٢

فنيانة (Fijana) ٨٩ ، ٨٨ ، ٦٠ ، ٥٩

الفؤت (Alfuent) ٣٤

قاشغره ٧٦

قامرة ٩٤

قبريرة ٥٣

قبرة (Cabra) ٦٦ ، ٦٤ ، ٤٤

قرطبة (Gordono) ٧١ ، ٤٥ ، ٤٣

١٤٧ ، ١٤٦ ، ١٣١ ، ٧٨ ، ٧٧

٢٠٩ ، ١٧٠ ، ١٦٨ ، ١٥٢

قرطمة (Cartama) ٩٤

قربولة (Carmona) ١٧٠

القصر (حصن) ٩١

قلعة أسطير (Alcala la Real) ٧٥ ، ٧٠

قلعة حماد ١٦٧ ، ١٦٨

قو لجر ٣٢

القيروان ٢٤ ، ٢٥

لرقة (Lorca) ٤٤

لوشة (Loja) ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٤ ، ٤

٢١٣ ، ٢٠٦ ، ١٥١

ليط (Alodo) ٨١ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ٤

١٢٢ ، ١١٧ ، ١١٥ ، ١١٤ ، ١١٢

١٧٣ ، ١٦٥ ، ١٤٤ ، ١٣١ ، ١٢٤

مارتش (Martos) ٧٦

مالقة (Malaga) ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٧

٩٣ ، ٩٢ ، ٩١ ، ٦٤ ، ٥٨ ، ٥٧

١٠٧ ، ١٠٦ ، ١٠٢ ، ٩٦ ، ٩٥

١٣٨ ، ١١٥ ، ١١٣

المدينة ٢١

مراكش ٢١٠ (وانظر مراكش)

مرسية (Murle) ٧٦ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١

١٤٥ ، ١٤٤ ، ١١٣ ، ١١١ ، ١٠٨

١٤٦

مروكش ١٢٥ ، ١٧١

المرية (Almaria) ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٤ ، ٤

٩٠ ، ٨٩ ، ٨٨ ، ٥٧ ، ٥٦ ، ٤٥

١٦٧ ، ١٦٥ ، ١٦٤ ، ١٢٣ ، ١١٣

٢٠٦ ، ١٦٨

مرية بلش (Velez Malaga) ٩١

المشيخة ٢٠٩

المطمر ٧٦

مكناسة الزيتون ١١٥ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ٤

١٧١ ، ١٧٠ ، ١٦٣

منت ماس ٩٢

المتورى ٨٨ ، ٨٩

النكب (Almuficars) ٤٤ ، ٥٣ ، ٤

١٢١ ، ١٢٠ ، ٩٠ ، ٨٧ ، ٨٥

٢١٠ ، ٢٠٧ ، ١٥٩

ميشش (Mijas) ٩٤

٢٢٣

١١٣ ٠ ٨٧ ٠ ٨٦ ٠ ٨٥ ٠ ٦٤ ٠ ٥٩

١٢٣ ٠ ١١٤

٠ ١٣١ ٠ ١٣٠ (Lucena) الريانة

١٤٨ ٠ ١٤٥

٢١١ ٠ ١٢٩ (Nivar) النيل

٩٦ نيمش

١١٨ الحند

٤٤١ ٠ ٣٩ ٠ ٣٨ (Guadix) وادي آش

٤٥٨ ٠ ٤٥٧ ٠ ٥٦ ٠ ٥٥ ٠ ٥٣ ٠ ٤٤

## فهرس الفصول

صفحة

١	مقدمة الناشر . . . . .
١	الفصل الأول : نظرات عامة للمؤلف . . . . .
١	١ - القواعد التي يتعين للمؤلف اتباعها . . . . .
٣	٢ - حقيقة الإسلام والرد على من لا يؤمن به . . . . .
٦	٣ - قصور القياس دون عون من الوحي . . . . .
١٠	٤ - ضرورة التعلم والتجربة . . . . .
١١	٥ - التكوين السياسي للمؤلف . . . . .
١٣	٦ - صعوبة الإنصاف التاريخي . . . . .
١٤	٧ - المصادقة وأثرها في التأريخ - مثل المنصور . . . . .
	الفصل الثاني : الأحداث المهمة لقيام دولة بني زيري وأوليات هذه الدولة . أيام زاي بن
١٦	زيري وجوس بن ماكسن . . . . .
	٨ - الإصلاح العسكري الذي أدخله المنصور . قنوم بني زيري إلى الأندلس وقيام
١٦	دول الطوائف . . . . .
١٨	٩ - استقرار بني زيري في البيرة بناء على طلب أهلها . . . . .
٢٠	١٠ - رد الفعل الذي أحدثه في الأندلس قيام دولة بني زيري - اختطاط غرناطة . . . . .
٢٢	١١ - خروج المرتضى لحرب بني زيري وهزيمته . . . . .
٢٤	١٢ - رحيل زاي بن زيري إلى إفريقية وموته هناك مسموماً . . . . .
٢٥	١٣ - إمارة جوس بن ماكسن . . . . .
٢٧	١٤ - المؤامرات التي دبرت لإسناد الإمارة إلى يدير بن حياصة . موت جوس . . . . .
٣٠	الفصل الثالث : إمارة باديس بن جوس ( ١ ) من أوليتها إلى موت ابن نقرالة . . . . .
٣٠	١٥ - أولية إمارة باديس بن جوس وتعاظم الوزير اليهودي أبي إبراهيم . . . . .
٣٢	١٦ - فشل المؤامرة التي دبرها يدير بن حياصة ضد باديس . . . . .
٣٤	١٧ - انتصار باديس على زهير صاحب المرية . . . . .
٣٦	١٨ - شخصية الأمير بلقين سيف الدولة والد المؤلف . . . . .
٣٦	١٩ - نشاط يوسف بن نقرالة اليهودي ومؤامراته . . . . .

## صفحة

- ٢٠ - موت الأمير بلقين مسموماً . . . . . ٣٩
- ٢١ - ما بلغ ابن نقرلة من المكان الأرفع . . . . . ٤٢
- ٢٢ - استيلاء باديس على مالقة . . . . . ٤٣
- ٢٣ - علاقات باديس ببنى صامح أصحاب المرية . . . . . ٤٤
- ٢٤ - وصول الناية إلى غرناطة . حظوته ومنافسته اليهودي . . . . . ٤٦
- ٢٥ - إجلاله الأمير ماكن بن باديس . . . . . ٤٨
- الفصل الرابع : إمارة باديس بن حبوس . ( ٢ ) من موت ابن نقرلة إلى نهايتها ٥٠
- ٢٦ - مؤامرة للوزير اليهودي ابن نقرلة . ثورة صنهاجة عليه وقتله . . . . . ٥٠
- ٢٧ - الحركة الموقفة التي قام بها باديس لانتزاع وادي آش من أيدي ابن صامح . . . . . ٥٥
- ٢٨ - الحركة الموقفة التي قام بها باديس لانتزاع مالقة من يد ابن عباد . . . . . ٥٧
- ٢٩ - الكشف عن أمر فتيانة وقتلتها . . . . . ٥٩
- ٣٠ - استيلاء باديس على مدينة جيان . . . . . ٦٠
- ٣١ - استيلاء الناية على ياسة . . . . . ٦٢
- ٣٢ - مؤامرة ضد الناية ومقتله . . . . . ٦٣
- ٣٣ - استدعاء الأمير باديس ولده ماكن ورجوعه إلى الحضرة . . . . . ٦٦
- الفصل الخامس : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : ( ١ ) مشاكل
- الاندلس الخارجية وحال الجزيرة عند ابتداء إمارة عبد الله . . . . . ٦٩
- ٣٤ - رفض مطالب ألفونس السادس واشتراكه مع بن عمار . . . . . ٦٩
- ٣٥ - المهادنة بين عبد الله وابن صامح صاحب المرية . . . . . ٧١
- ٣٦ - مهاجمة ألفونس السادس على غرناطة واضطرار عبد الله إلى المهادنة معه . . . . . ٧٢
- ٣٧ - استيلاء ألفونس السادس على طليطلة . . . . . ٧٦
- ٣٨ - استيلاء ابن هود على ذاتية . بعض أخبار بني هود . . . . . ٧٧
- ٣٩ - ثورة ابن عمار على المعتمد بمروية إلى أن أخرجه منها ابن رشيق . أعماله بعد ذلك وبهلكه الشيع . . . . . ٧٩
- ٤٠ - عقد الصلح بين عبد الله وبين المعتمد صاحب أشيلية . . . . . ٨٢
- ٤١ - المؤلف يتحدث من منهجه في كتابة مذكراته . . . . . ٨٢

## الفصل السادس : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : ( ٢ ) مشاكل

- غرناطة الداخلية إلى قنوم المرابطين . . . . . ٨٤
- ٤٢ - عزل الوزير صنهاجة ، ثم إجلاله واستقلال عبد الله في الأمر . . . . . ٨٤

## صفحة

- ٤٣ - النزاع على الحدود بين ملكة غرناطة وملكة المرية . تعاقب أحداثه وحله . . . . . ٨٨  
 ٤٤ - توجيه صكر ضد تميم بن بلقين صاحب مالقة وأخى المؤلف ، ونصره إياه . . . . . ٩٠  
 ٤٥ - ذكر ثورة كباب بن تميم وثورة بني تاقنوت ونهايتهما . . . . . ٩٥

## الفصل السابع : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : ( ٣ ) قدوم

- المرابطين إلى الأندلس وموقعة الزلاقة ومحاصرة حصن لبيب . . . . . ١٠١  
 ٤٦ - مقدمات تدخل المرابطين في شؤون الأندلس . . . . . ١٠١  
 ٤٧ - إرسال سفارات أندلسية إلى مراکش . احتلال المرابطين الجزيرة الخضراء . . . . . ١٠٢  
 ٤٨ - تجمع جيوش الأندلسيين برسم الجهاد . . . . . ١٠٤  
 ٤٩ - موقعة الزلاقة وانتصار المسلمين على ألفونس السادس . . . . . ١٠٤  
 ٥٠ - يوسف بن تاشفين يحقد مجلس رؤساء الأندلس بعد المعركة . بدء الخلاف بين  
 المتحالفين . . . . . ١٠٦  
 ٥١ - عودة يوسف بن تاشفين إلى الأندلس . حصار حصن لبيب . . . . . ١٠٨  
 ٥٢ - محاصرة لبيب . تصور فوضى ملوك الطوائف في ذلك الحين . . . . . ١٠٩  
 ٥٣ - النزاع بين ابن عباد وبين ابن ربيق . . . . . ١١٠  
 ٥٤ - رفع الحصار عن لبيب . تفرق المحاصرين وإنشاء الخلاف بينهم . . . . . ١١٢

## الفصل الثامن : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : ( ٤ ) سياسة

- عبد الله بعد حودته من لبيب . إجراءات دفاعية وسياسية . . . . . ١١٤  
 ٥٥ - تشاؤم عبد الله بعد رجوعه من حصار لبيب . ممالك قرور . . . . . ١١٤  
 ٥٦ - بعض المؤامرات وتحاذل القليعي . . . . . ١١٦  
 ٥٧ - سيرة الجند مع الأمير في ذلك الحين . تشييد الحصون . . . . . ١١٩  
 ٥٨ - معاقبة عبد الله مع البرهانش وكبل ألفونس السادس . . . . . ١٢٢  
 ٥٩ - التزام عبد الله على أداء الجزية لألفونس السادس وعقد اتفاق جديد معه . . . . . ١٢٤  
 ٦٠ - تهديد يوسف بن تاشفين إلى عبد الله . عبد الله يبرر سلوكه . . . . . ١٢٧

## الفصل التاسع : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : ( ٥ ) الحوادث

- الأخيرة قبل النزاع وفيلز الكارثة . . . . . ١٣٠  
 ٦١ - ثورة يهود مدينة البسطة . . . . . ١٣٠  
 ٦٢ - قضية زناة . . . . . ١٣٣  
 ٦٣ - انقلاب مؤيد وثورته في لوشة . . . . . ١٣٦

## صفحة

- ٦٤ - وصف التاجر نهبان وسيرته ضد عبد الله . . . . . ١٣٩  
 ٦٥ - مسألة زواج الأميرتين أختي عبد الله . . . . . ١٣٩  
 ٦٦ - حديث معترض عن نصحاء الأمير عبد الله . . . . . ١٤١  
 ٦٧ - رجوع الحديث عن زواج الأميرتين أختي المؤلف . . . . . ١٤٣  
 ٦٨ - تسلل الأمير عبد الله في مسألة مرسية ونصب المعتد . . . . . ١٤٤  
 ٦٩ - إرسال سفارة إلى يوسف بن تاشفين بسبب من قبل عبد الله وإيقاع الخوف في نفسه بعد رجوعها . . . . . ١٤٥

## الفصل العاشر : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : ( ٦ ) استلامه

- السلطان المرابطي . محبته . إخراج من الأندلس ونفيه . . . . . ١٤٧  
 ٧٠ - عبور يوسف بن تاشفين إلى الأندلس وبدا مقاتلته إياه . . . . . ١٤٧  
 ٧١ - وصول الجيش المرابطي قبالة غرناطة . . . . . ١٤٩  
 ٧٢ - الحالة داخل حضرة غرناطة . . . . . ١٥٠  
 ٧٣ - لا يجد عبد الله مخرجاً إلا بالتسليم . . . . . ١٥١  
 ٧٤ - تسام الأمير عبد الله ونهب أمواله . . . . . ١٥٤  
 ٧٥ - نفي الأمير عبد الله إلى المغرب الأقصى . . . . . ١٦٠  
 ٧٦ - عزل الأمير تميم صاحب مالقة وأختي عبد الله . نفيه . . . . . ١٦٢

## الفصل الحادي عشر : عزل بقية ملوك الطوائف ومصيرهم بعد ذلك . . . . . ١٦٤

- ٧٧ - موقف ملوك الطوائف أثناء الحملة على غرناطة . . . . . ١٦٤  
 ٧٨ - حركات المرابطين على المرية . . . . . ١٦٧  
 ٧٩ - توتر العلاقات بين الأمير المرابطي والمعتد . . . . . ١٦٨  
 ٨٠ - الاستيلاء على قرطبة وإشبيلية ونفي ابن عباد . . . . . ١٦٩  
 ٨١ - قفول يوسف بن تاشفين إلى مراكنس . . . . . ١٧١  
 ٨٢ - عزل المتوكل بن الأفطس صاحب بطليموس وبهلكه . . . . . ١٧٢  
 ٨٣ - نشاط المرابطين ضد التصاري . استيلاء السيد و لتريق على بلنسية . . . . . ١٧٥  
 ٨٤ - تأملات في تقلب الأقدار . . . . . ١٧٦

## الفصل الثاني عشر : تأملات أخيرة بعد النفي . . . . . ١٧٨

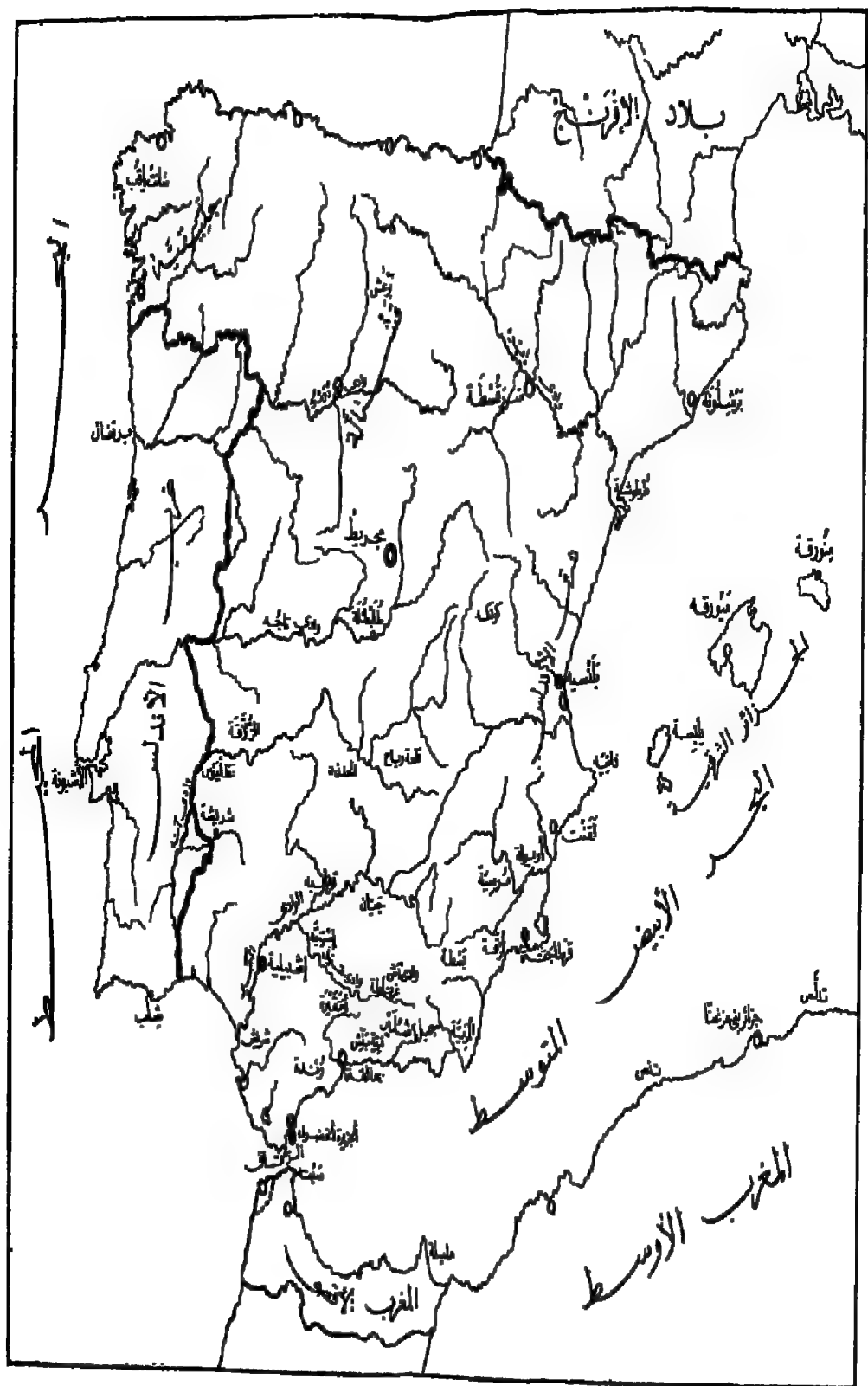
- ٨٥ - المؤلف والشعر . . . . . ١٧٨  
 ٨٦ - استطراد المؤلف إلى الكلام عن طالعه ومصيره . . . . . ١٧٩  
 ٨٧ - آراء المؤلف في التنجيم . . . . . ١٨١

١٨٢	٨٨ - آراء طيبة في الأغذية والتبيل . . . . .
١٨٨	٨٩ - ربح الكلام عن التنجيم . . . . .
١٩١	٩٠ - مسائل فلكية . . . . .
١٩٢	٩١ - تحديد العلوم الطبيعية والطب . . . . .
١٩٣	٩٢ - نقض قول من ينكر أن الجن تتكلم . . . . .
١٩٤	٩٣ - حديث عن المسرة وعن هموم الهوى والشباب . . . . .
١٩٥	٩٤ - تأملات نظرية وأمثلة يضر بها المؤلف من قصة حياته عن الطموح وزوال خيراته الدنيا . . . . .
١٩٨	٩٥ - يتحدث المؤلف عن أولاده . . . . .
٢٠٠	٩٦ - توجه المؤلف الحديث إلى قرائه راضين عنه أو ساخطين عليه . . . . .
٢٠١	٩٧ - يبالغ المؤلف عن نفسه ما عسى أن يؤخذ عليه من أخطاء حياته الخاصة . . . . .

٢٠٥	الملحق الأول : منتخبات من «كتاب البيان المغرب» لابن عطارى المراكشى عن دولة الأمير عبد الله . . . . .
	الملحق الثاني : منتخبات من «كتاب الإحاطة في تاريخ غرناطة» لسان الدين ابن الخطيب : . . . . .

٢٠٨	( ١ ) ترجمة عبد الله بن بلقين . . . . .
٢١١	( ٢ ) ترجمة مقاتل بن عطية . . . . .
٢١٢	( ٣ ) ترجمة مؤمل . . . . .

٢١٥	فهارس الكتاب . . . . .
-----	------------------------



خريطة جزيرة الأندلس في عهد ملوك الغرناقيين





en préparation, sera en grande partie éclairée sous un nouveau jour grâce à cet appoint d'une documentation fort riche et non suspecte.

\* \* \*

Le manuscrit des "Mémoires" de 'Abd Allâh contient au total 80 feuilles d'épais papier de grand format [29 x 31 centimètres], inventoriées à la bibliothèque d'al-Qarawiyyîn à Fès sous le No. 1886. L'écriture est du genre *mabrûṭ* andalou; la copie est en général en bon état de conservation; seuls deux feuillets sont fort mutilés. Nous avons adjoint au texte deux appendices comportant des passages inédits du *Kitâb al-Bayân al-mughîb* d'Ibn 'Idhârî et de l'*Iḥâṭa* de Ibn al-Khaṭîb sur 'Abd Allah et deux personnages importants de son règne. Enfin une carte permettra au lecteur de retrouver les plus importantes localités du Sud de l'Espagne qui sont citées dans le texte.

Je voudrais, pour terminer, signaler à ceux de mes lecteurs qui s'étonneront de certaines acceptions ou de certaines tournures des "Mémoires" que la langue de 'Abd Allâh, bien qu'en général correcte, a subi dans une certaine mesure l'influence de l'arabe vulgaire hispanique et qu'il faut pour comprendre certains mots qui peuvent paraître erronés, faire appel principalement au *Supplément aux Dictionnaires arabes* de Dozy.

Je n'ai pas besoin de signaler d'autre part au lecteur que les titres qui ont été introduits pour séparer les diverses sections des "Mémoires" et en annoncer le contenu n'existent pas dans le texte original.

Paris, 26 juin 1955

R. L.-P.

sinhâjienne des Banû Zîrî. Né en 447 [1056], il fut désigné à la mort de son père Buluggîn Sayf al-dawla, en 456 [1064] comme l'héritier présomptif de son grand père Bâdîs ibn Ḥabûs, et il lui succéda sur le trône de Grenade en 469 [1077], tandis que son frère Tamîm al-Mu'izz devenait prince indépendant de Malaga. Son règne ne fut qu'une longue suite de troubles à l'intérieur de son royaume, de conflits armés avec ses voisins musulmans et de compromissions avec le roi de Castille Alphonse VI. Au moment de l'intervention des Almoravides en Espagne, il participa aux campagnes d'al-Zallâqa et d'Aledo. Mais ses tractations avec le roi chrétien finirent par lui coûter son trône. En 489 [1090], Yûsuf ibn Tâshufîn vint le bloquer dans Grenade et il dut se rendre à sa merci. Il fut déchu de son trône et envoyé en exil dans le Sud du Maroc, à Aghmât, où il finit ses jours.

Ce fut au cours de son séjour forcé à Aghmât que 'Abd Allâh composa ses "Mémoires". Cette autobiographie — on pourra s'en rendre facilement compte — constitue la somme documentaire la plus considérable et la moins déformée que l'on possède sur l'histoire des *mulûk al-ṭawâ'if*. Malgré de longues digressions dans lesquelles l'auteur tente de justifier sa position politique devant les périls qui menaçaient son royaume, le *Kitâb al-Tibyân* fournit une chronique extrêmement détaillée de tous les événements qui aboutirent en 478 [1085] à la prise de Tolède par Alphonse VI, et, l'année suivante, à l'intervention des Almoravides dans la Péninsule ibérique.

C'est en même temps un document psychologique de premier ordre, qui permet, beaucoup mieux que les chroniques postérieures, de juger de l'état de décomposition sociale et politique de l'Espagne musulmane avant et après la bataille d'al-Zallâqa et des progrès accomplis à cette époque par les champions de la Reconquête chrétienne. Le récit des événements antérieurs au propre règne de l'émir 'Abd Allâh est également fort nouveau et fort important. Les "Mémoires" du prince de Grenade doivent être considérées, à partir de l'époque où prend fin la chronique d'Ibn Ḥayyân, comme un fil conducteur à travers l'histoire confuse des *ṭawâ'if*. Cette période, qui sera décrite au quatrième tome de mon *Histoire de l'Espagne musulmane*, actuellement

cahiers manuscrits jetés au rebut dans une dépendance de la mosquée d'al-Qarawiyîn à Fès depuis au moins six siècles.

On savait, grâce à une indication fournie par la chronique anonyme intitulée *al-Hulal al-mamshaya*, que l'émir 'Abd Allâh avait composé un livre sur la dynastie fondée en Espagne par sa famille et dont il fut le dernier représentant. Quand, en 1934, je donnai une première édition de la partie relative à al-Andalus du *Kitâb A'mâl al-a'lâm* d'Ibn al-Khatîb, le passage suivant [p. 269] retint mon attention. "J'ai vu un *diwân*, écrit de sa propre main, que 'Abd Allâh ibn Buluggîn composa, après sa déposition, dans la ville d'Aghmât; il y relate son histoire et les événements qui concoururent à sa chute, et cette œuvre est fort curieuse. Le prédicateur de la mosquée d'Aghmât me fit cadeau de ce document". Nous savons, grâce à une précision fournie par le même ouvrage, qu'Ibn al-Khatîb visita Aghmât et le tombeau d'al-Mu'tamid Ibn 'Abbâd en 781 [1360]. Et l'on peut se demander si le manuscrit que nous avons utilisé n'est pas, sinon cette copie elle-même, du moins une seconde copie faite sur l'original et confrontée avec lui, comme le prouve la mention fréquente: *ṣahha; aṣl<sup>m</sup>*.

Enfin, un autre hasard de lecture devait me révéler le titre exact des "Mémoires" de 'Abd Allâh: en effet, d'un passage du *Kitâb al-Marqaba al-'ulyâ*, [p. 97], ouvrage sur la judicature andalouse que j'ai publié au Caire en 1948 et dont l'auteur fut le célèbre Ibn al-Ḥasan al-Nubâhî, il ressort que le livre s'intitulait *al-Tibyân 'an al-ḥadîtha al-kā'ina bi-dawlat Banî Z̧ḩr fi Gharnāṣa*.

Ce titre dit bien ce qu'il veut dire: l'auteur, détrôné et exilé, s'est proposé de relater l'histoire de son règne et les circonstances de sa chute.

\*\*\*

Qui était cet émir 'Abd Allâh et quelle valeur faut-il attribuer à son livre? Qu'il me suffise de résumer ici ce que j'en ai écrit récemment dans la nouvelle édition de *l'Encyclopédie de l'Islam* [p. 45].

'Abd Allâh ibn Buluggîn ibn Bâdis ibn Ḥabûs ibn Z̧ḩr fut le troisième et dernier souverain du royaume de Grenade fondé après la chute du califat de Cordoue par une branche collatérale de la famille berbère

## AVANT - PROPOS

L'ouvrage dont on va trouver ici la plus grande partie du texte — tout ce qui en a été jusqu'ici retrouvé — est déjà connu de tous ceux qui ont étudié quelque peu l'histoire de l'Espagne musulmane et plus spécialement la période de cette histoire dite des *mulūk al-ṭawāʾif*, correspondant en gros au Ve siècle de l'hégire [XI<sup>e</sup> siècle de J.-C.]. En effet, au fur et à mesure de leur découverte et à deux reprises, j'en ai publié d'abord trois puis deux fragments étendus dans la revue "al-Andalus" de Madrid, en 1935-36 et en 1941. De l'ensemble aujourd'hui reconstitué, à part la première page et une longue et regrettable lacune centrale, une traduction en espagnol paraîtra à bref délai sous la signature de mon collègue et ami le Prof. E. García Gómez et la mienne. Cette traduction sera accompagnée d'une introduction détaillée et d'un appareil de notes historiques et géographiques auxquelles je renvoie d'ores et déjà le lecteur désireux d'être renseigné en détail sur l'ouvrage que je publie aujourd'hui et sur sa valeur documentaire et littéraire.

Je me bornerai donc ici à quelques indications essentielles. Il n'est pas fréquent de rencontrer, dans l'histoire du monde arabe, des souverains ou des personnages haut placés qui aient pris soin de retracer leur carrière en rédigeant leurs "Mémoires" à l'intention de leurs contemporains ou des générations futures. Cette constatation est encore plus vraie pour l'Occident de l'Islam que pour l'Orient; si on y trouve quelques autobiographies de personnages importants, tels qu'Ibn Khaldûn et Ibn al-Khaṭīb au VIII<sup>e</sup> siècle [XIV<sup>e</sup> siècle J.-C.], on ne connaît, dans ce genre historique, qu'une œuvre à citer: celle d'al-Baydhaq, le compagnon du Mahdî Ibn Tûmart, le fondateur de l'almoḥadisme, dont j'eus la chance, il y a plus de vingt-cinq ans, de retrouver en Espagne, à l'Escorial, un manuscrit jusque-là demeuré ignoré. C'est une autre chance, non moins heureuse, qui m'a valu de mettre la main, à plusieurs années d'intervalle et morceau par morceau, sur un ouvrage autobiographique non moins précieux: celui de l'émir 'Abd Allâh, dont les feuillets s'entassaient pêle-mêle dans un fouillis de



# **LES « MÉMOIRES » DE ʿABD ALLAH**

**DERNIER ROI ZIRIDE DE GRENADE**

**[Ve-XIe siècle]**

**TEXTE ARABE**

**publié d'après l'original de Fès**

*par*

**E. LEVI - PROVENÇAL**

*Professeur à la Sorbonne,*

*Directeur de l'Institut d'Etudes Islamiques*

*de l'Université de Paris*

**LE CAIRE**

**ÉDITIONS AL-MAAREF**

**1955**











